

الأعمال
الفكرية

تأليف : هنرى لنك
ترجمة
الدكتور ثروت عكاشة

العزوبة إلى الزيجات



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦
مهرجان القراء للجميع

العودة إلى الإيمان

لنك، هنرى.

العودة إلى الإيمان/ هنرى لنك؛ ترجمة: ثروت
عكاشة. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،
٢٠١٠.

٢٠٠ ص: ٢٢ سم .

تدمك ٣ ٢٦٥ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - الإيمان.

أ . عكاشة، ثروت (مترجم)

ب - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١٠ / ٤٠٤٠

I. S. B. N 978 - 977 - 421 - 265 - 3

ديوى ٢٠٤

العودة إلى الإيمان

د. هنري لنك

ترجمة

د. ثروت عكاشة



المكتبة الإسلامية العامة للكتاب

٢٠١٠

تصميم الغلاف
والإشراف الفني

عبد الواحد

مقدمة المترجم (*)

إلى قارئى العزيز أقدم له مساحة صادقة من مشاعرى قبل الانتقال معاً إلى باحات هذا العمل الشائق والشاق، على أننى لا أكتمه السر فى أننى حال الشروع فى ترجمة هذا العمل وقعتُ بين منطقتين غاية فى الجذب والروعة، وربما يصوّر حالتى الأولى قول نيتشه الفيلسوف العظيم: «إن الفن العظيم هو التوفيق بين الإلهين الإغريقين «أبوللو» إله التصميم والإحكام، ومُلهم المعمار والشعر، و«ديونيسوس» إله النشوة والرقص والخمر والصَّخب». إن الفن والإبداع توفيق بين التصميم والإلهام وبين العقل والجسد، وتلك منطقة أولى تأسرُننى وتأخذنى فى أعمالى وكتاباتى، ومنطقة أخرى يُصوِّرها الشاعر الجميل صلاح عبد الصبور بقوله: «إن العقل يجب أن يسبقَ الإلهام، غير أن ساعة الإلهام نفسها ساعةٌ مقدَّسة، تلقائية، عفوية، زاهرة بالبهجة والعذاب معاً.»

وإليك قارئى العزيز أقدم لك أيضاً وصفاً فنيةً بديعة قبل الدخول إلى عوالم هذا الكتاب، لتعرف أن المترجم يُعيدُ خلقَ النصِّ ويدوِّنه بقلبه،

(*) هذه هى الطبعة الخامسة لهذا الكتاب بالإضافة إلى الشروح والتعليقات.

ويتشئ لحظة العمل بالجانب الإلهامى الممنوح من الخالق تبارك وتعالى،
والذى يصنطقى به بعض عباده. على أننى أؤكد لقارئى العزيز أيضاً أن هذا
الإلهام الذى اعتمدتُ عليه فى ترجمتى لهذا الكتاب، كى أحقق باعثاً
إيمانياً أردتُ تحقيقه وغمسه استلزم منى جهداً وتنظيماً وصياغة وأداء
ونشاطاً إرادياً، لازم كل ذلك التوفيق والفتح وحسن التيسير من ربى.

ولسوف تستولى عليك الدهشة، عندما أؤكد لك قبل أن تقرأ هذا
الكتاب للدكتور هنرى لنك - وتلك جرأة وشهادة؛ أما الجرأة فهى
تأكيدى لك أن هذا العمل سوف ينقلك من حالة الشك والارتياب إلى
حالة الإيمان والتسليم واليقين. أما الشهادة فهى أن الكتاب بحق يستحق
أن يُقرأ، أما استيلاء الدهشة فمن موضوع الكتاب وحالية التدرج من
مرحلة إلى أخرى بسلاسة وهدوء، وكأنك ترى يد القدرة تعزفُ لك إيقاعاً
إيمانياً هادئاً يريحُ خاطرك، ويسعد قلبك. وإذا كان لا بد من تأكيد قبل
البدء ففى أنه لا وسيلة لتحقيق سعادتنا وتوازن وجودنا إلا بالعودة إلى
إيماننا القديم، هذا بلا شائبة من شك أو هزة من قلق أو نزعة من جموح.
حينئذ نستطيع أن نواجه الحياة مُستمتعين بما تنطوى عليه من حق وخير
وفضيلة وجمال. حينئذ أيضاً نستطيع أن نتصل بالمجتمع مُستمتعين بما
يزخر به من روح الجماعة، وما تُسيغه هذه الروح على الأفراد من هناء
وطمأنينة واستقرار.

وقد تَهمنى بالمباشرة فى بعض العرض وخطابية اللّهجة عندما أقدم
لك قول أهل الإشراف فى أن الله إذا فَتَحَ لك وَجْهَهُ من التَّعرُّفِ إليه فلا
تُبال معها إن قَلَّ عملُك، فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرَّفَ إليك.

أَوَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ التَّعَرُّفَ هُوَ مُؤَرِّدُهُ عَلَيْكَ، وَأَنَّ الْأَعْمَالَ أَنْتَ مُهْدِيهَا إِلَيْهِ؟
وَأَيْنَ مَا تُهْدِيهِ إِلَيْهِ مِمَّا هُوَ مُؤَرِّدُهُ عَلَيْكَ^(١)؟

لكن كلَّ واحدٍ منا لو عاد إلى نفسه يختبرُ ما تخلَّلها من لحظات القلق
وهزّة الشك، لوجدَ أن مرجع ذلك يعود إلى أثر العلوم الطبيعية وطُغيانها
الجارف الذى أحدثَ فى بعض النفوس تصدُّعًا وانشقاقًا، وربما أحدثتْ هذه
العلوم أيضًا انهيارًا فى آلية التَّصديق والتَّيقُّن، و عليه انطلقت النفوس
لتُجابه نفسها بسؤال غاية فى التَّطرُّف وسوء التَّجاوُز عندما تتساءل عن
ماهية هذه الأديان التى يعتنقها الناس، ويؤمنون بها، ويقفون عند حدودها
وأوامرها ونواهيها، ثم الانتقال إلى ما هو أكثر عندما تساءل البعض عن
حقيقة الله، وما هى؟ وماذا تكون؟ وتلك للأسف حالة من الإسراف
والتَّخَبُّط وفساد الاعتقاد.

هذه حالة ولا شك انتقلت من الأفراد فى دائرة دون جُدُر أو حدود إلى
الجماعات والشعوب والمجموعة الإنسانية كلها، حتى استفاق العالم على
تجربة مريّة كادت تعصفُ بالعلاقات والقيم والمُثُل، وتُحطِّم فى طريقها
كل ما بقى من عناصر هذا المجتمع اليقينية الثابتة، والتى تكفُل له راحة
البال والهناء والاستقرار، وكان الدين والإيمان بالله مما تعرَّضَ لهذه
الموجّة العاتية من الشك والارتباب.

(١) اقتبس المترجم هذا المعنى الإيماني من « الحِكْمَ العطائية » لابن عطاء الله السكندري، أحد متصوّفى
القرن الثامن الهجرى، عاش بالإسكندرية ودُفِنَ بالقاهرة وهو من تلامذة أبى الحسن الشاذلى من
أعلام التَّصوّف السُّنى المعتدل.

لكن هذه الحالة المُفَعَّمة بأجواء الشك والريبة، والتي غلّقت المجموعة الإنسانية، ما لبثت أن انحسرت وانداحت تحت جهود رجال علم النفس التجريبي، الذين أثبتوا في تجاربهم أن العلم لا يتناقض أبداً مع الدين، وأن الدين هو الضابط لحركية التقدم، بل هو المُحرك والباعث لها بما يملك من مُعطيات قيمية وإيمانية.

وفى هذا الكتاب للدكتور هنرى لنك ستجد الدليل المادى المائل لاثّر الدين فى الحياة، وما يُقدِّمه من مُعطيات تطوّرت بها حياة البشر.

والدكتور هنرى لنك أحد فرسان هذا الميدان - ميدان علم النفس التجريبي - وكانت لتجاربه فى هذا الميدان أثر كبير فى عودة الناس لحظيرة الإيمان، يروى هذه التجارب التى شاء الرجل أن يحكيها فجاءت فى صورة لدغات النحل الشافية، حيث لاقى الكتاب نجاحاً منقطع النظير فى أوروبا وأمريكا، وقد قُدِّر عدد قرائه بالملايين، وربما تدلُّك عدد الطبعات التى تجاوزت السبع والأربعين طبعة على أهمية هذا الكتاب، لكن العجب والدهشة قد تعلو وجهك وتملكُ زمام قلبك لو علمت عزيزى القارئ أن الطبعة الأولى لهذا الكتاب صدرت عام ١٩٣٦، ويعنى ذلك أن طبعات الكتاب كانت تتوالى كل ستة أشهر بل ربما أقل، كما يعنى أننا نترجم لكتاب صدر منذ اثنين وسبعين عاماً، وفى ذلك ضربٌ من التساؤل، لكننى أريح القلب عندما أقول إن آخر طبعة للكتاب صدرت بأمريكا عام ٢٠٠٧، لذا كان لزاماً علىّ أن أتقدّم وأترجم هذا الكتاب فى الأربعينيات عندما كنت ضابطاً بسلّاح الفرسان بالقوات المسلّحة المصرية، حيث صدرت طبعته

الأولى عام ١٩٥٠، وطبعته الرابعة عام ١٩٩٦، وها هي ذى طبعته الخامسة عام ٢٠٠٩^(١).

ويروى الدكتور هنرى لنك للقراء قصة انحرافه هو نفسه عن الدين، وعن الإيمان به، وكيف أخذ يلمس بنفسه تأثير الدين فى نفسية مريضه، وكيف كان الإيمان له فعل السحر فى علاجهم، عندما كانت تخفق ألوان العلاج الأخرى، فكان لا يجد وسيلة يعالج بها آلاف الحالات التى عرّضت له إلا أن يعيد إليها توازنها الاجتماعى، بالدين والإيمان والنشاط الاجتماعى فى مختلف الميادين.

لكن رحلة الطبيب النفسانى هنرى لنك من شكّه فى المعطيات الدينية والإيمانية لم تكن لتؤتى بشمارها الإيجابية، وهى الإيمان المطلق والكامل بأثر الدين لولا التجارب العملية التى مارسها فى عيادته على المرضى، الذين كانوا يترددون عليه. أنبرى الرجل يصف لمرضاه الدواء الناجع فى اتباع الدين، والتمسك بالقيم والتقاليد الإيجابية النافعة، حيث وجد أنه لا مناص للإنسان من أن يستظل براية الإيمان، تلك الراية التى تفرد هالة من الراحة والاطمئنان والسكينة والحضور النفسى الهادئ، ناصحًا إياهم بإيمان حقيقى مجرد مما اعتور بعض الأديان من تقاليد وانحراف، وما اعترى

(١) تجدر الإشارة إلى أن هذه الطبعة مزيدة ومنقّحة، وقد توسّع فيها المترجم بما يخدم الهدف، بحيث تعتبر الترجمة لهذا الكتاب دعوة إيمانية يُطلقها المترجم لعودة الناس إلى حُسْن الاعتقاد واليقين بالله، والتوكُّل على الله وتسليم الأسباب والأمور له، ورؤيته سبحانه وتعالى فى كل الأفعال لا سيما فى هذا الظرف العاصف والدامى الذى تعيشه البشرية؛ حيث سيطرت قوى الدمار وآلة القتل على علاقات الشعوب.

بعض هذه الأديان أيضاً من خلافاً أساسها الخلافات المصطنعة فى بعض النصوص الموروثة.

ورويداً رويداً عاد للرجل إيمانه المطلق الحق، لكنه لم ينته أن يفيد من المرتكزات الإيجابية المتوارثة، والمُتمثلة فى منظومة القيم والتقاليد الثابتة على مرّ الزمن، حتى التقاليد التى يصفها أنصار «السَّبية» بالتقاليد الرجعية أو المتخلّفة، فقد ثبتَ للدكتور لك أن هذه التقاليد أيضاً وسيلة ناجعة وفعّالة فى علاج الأمراض الاجتماعية المختلفة، وأنها طريقة ناجحة وآمنة فى التربية الفردية والجماعية والتكيف الاجتماعى، حتى أن الرجل بدافع من أثر التقاليد الإيجابية، والأثر الإيمانى الفعّال أهدى إحدى طبعات كتابه إلى ملايين الأجداد، الذين منّحو لأبنائهم ما هو أكثر مما تمنّحه اليوم، بالرغم من حالة المعرفة المتكدّسة والرصيد المعرفى الهائل.

وإذا كان الدكتور هنرى لك قد أهدى إحدى طبعات كتابه للأجداد، فإنه لم ينس، وأمام الموقف العالمى الحالى، وظاهرة التلّهُف على كتابه، أن يُسوّق إهداءه أيضاً إلى آباء هذا الجيل وآباء الغد، وهم الذين يكافحون - فرادى أو جماعات - ليجعلوا من العالم عالماً تَسودُ فيه واحة العدل والحق، وأن الحق دائماً فوق القوة، وأن الحق أيضاً ميزانٌ لضبط القوى.

وبوجهة نظر أكاديمية يعرضُ الدكتور لك أيضاً فى صفحات هذا الكتاب لوسائل التربية وأثرها فى تكوين شخصية الإنسان المنضبطة، وكيف يمكن أن يتوفّر التّوازن العاطفى والفكرى والدينى والاجتماعى والفنى فى كل شخصيّة، وذلك من أجل أن تتوافر عوامل النجاح، وتيسّر سُبُل السّعادة، وُصولاً إلى وجودٍ يخدمُ صِلاتها بالمجتمع الإنسانى الذى نعيش فيه.

وَيَجْمَلُ بِي، وأنا فى طور التقديم لهذا الكتاب، أن أَجْمَلَ أولاً الآتى، وهو من عطاءات هذا الكتاب و وفقاً لما قدّمه صاحبه:

إن هذا الكتاب يُعتبر نقطة تحوّل واضحة فى نظرة هذا الجيل إلى الإيمان، حيث يرجع له الفضل فى توضيح ما للإيمان من أثر فى حياة الأفراد والجماعات والأمم والجماعة الإنسانية.

إن الإيمان هو الحل الحاسم والسريع لكل مشكلات المجتمع، وذلك عندما يشيع فى المجتمع وبين الأفراد، حيث يؤمن كل فرد بما عليه من واجبات، ويعرف ما له من حقوق، ويؤمن المجتمع أيضاً بقيمه ومقدساته، يتوج ذلك كله الإيمان بالله وبأوامره ونواهيه ومنظومة العلاقات الواردة فى الكتب المنزلة، والأحاديث الشريفة والآثار الدينية القديمة، والرصيد المعرفى المتوارث من الأئمة والعلماء، والتى تُحدّد علاقات الأفراد ببعضهم البعض، بالإضافة إلى علاقاتهم بالمجتمع على أساس الثقة والأمل والانضباط.

أما ما أقدمه أنا من أجل إضفاء العمل حلّة قشيشة تُزيّن الكتاب، فهو حرصى المبالغ فيه على أن أقرب الموضوع إلى واقعنا العربى المعيش، وقد استلزم هذا الأمر منى طائفة من الإجراءات التى سوف أجملها عليك فى الآتى، على أن تنصفح معاً هذا الكتاب بعد:

— استبعاد الأمثلة البعيدة عما ألفناه فى حياتنا وبيئتنا.

— إضافة لحنٍ من التوضيح والكشف إلى بعض الفقرات، حتى يزيد الأمر وضوحاً وقرباً إلى أفهامنا.

— بَثُّ جوٍّ من المشاعر الإيمانية المُفعمة بالحب والسَّكينة والهدوء في النَّصِّ كَكُلِّ أَمَلٍ أن تتسرَّب المشاعر من النصِّ إلى روح القارئ الأَملة في مساحة من الامتلاء النفسي والغبطة الإيمانية.

— غير أنني أُسجِّل الآتي بحقِّ :

إذا كان المؤلف قد لجأ في علاجه لانطواء الشخصية إلى ما تعارفت عليه تقاليد المجتمع الغربي وعاداته، فإن هذا لا يعنى أن ذلك هو الطريق الأَوْحَد لعلاج هذا الانطواء، ورسم طريق السعادة للأفراد وللجماعات، فلِكُلِّ مجتمع تقاليده، ولكل بيئة معتقداتها، وفي حدود هذه التقاليد والمُعتقدات يمكن أن يقوم العلاج على أساس سليم و واضح ومعقول، وهذا بدءاً. أما نهاية، فإن الهزَّات التي اقتحمت العقائد شيء أقرب إلى النزوات، وكما أن النزوة عَرَضٌ يزول كلما عَمَّقَت التجربة، فكذلك هزَّات القلق في حياة الأفراد والجماعات مصيرها أن تزول وأن يُفسَحَ الطريق للإيمان بالله والمثُل، وكل ما هو جميل و طاهر في هذه الحياة. وبهذا تمضى الحياة، ونمضى نحن في الحياة بأمل في مستقبل أقوى من شكوك الماضي.

وأخيراً «قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علَّمتنا إنك أنت العليم الحكيم» البقرة (٣٢) صدق الله العظيم

هكذا قال الرب «قِفُوا على الطُّرُق، وانظروا واسألوا عن السُّبُل القديمة، أين هو الطريق الصالح وسيروا فيه فتجدوا راحة لنفوسكم». (سفر أرميا: الإصحاح السادس)

المترجم

المعادي ١٨ فبراير ٢٠٠٩

الفصل الأول

عودتى إلى الإيمان

« ... وإذا أردتم أن تعرفوا الله فلا تشغلوا أنفسكم بحلّ الألغاز، بل انظروا حولكم تروّه يداعب أطفالكم، وانظروا إلى الفضاء تروّه يسير بين السحاب، ويبسط ذراعيه فى البرق، ويتنزّل مع المطر، أجل، تروّه يتسم فى الزهر، ثم يصعد ويلوّح بيديه فى الشجر ... ».

يحسّن بى قبل البدء فى سرد هذه الصفحات، والتى تقدم لحياتى مقدمة ذاتية خالصة من أى مدهانة أو خداع، أن أؤكد أن هذا العمل موجزٌ لمسيرات الآلاف ممن ساقَتْهم الظروف للتردد علىّ لمعالجتهم، و عليه سأروى فى صفحات هذا الكتاب محاولاتهم الدءوبة فى تلمس حقائق الحياة وسط هذا العالم الصّاخب المضطرب، محاولات تطمح إلى أساسٍ راسخ أمين، ينطلقون منه إلى دنيا السعادة والهناء التى يندشونها.

على أن عودتى إلى الإيمان بالدين و دَوْرِهِ فى الحياة، وأثره فى وصول الإنسان إلى سلام نفسه يحقق له السعادة ليست هى الشىء الأولى فى هذا الكتاب، إذ إن تصوّرى لتلك الطائفة من المرضى، ونضالهم للوصول إلى نضوج وارتياح من أسباب إيمانى بهذا العمل، وبخاصة بعد الدّور السديد

الذى أظهره علم النفس فى تقديم مثل هذه الشخصيات والمشكلات، هذا العلم الذى لم يتيسر بعد لسواد الشعب الوقوف على حقائقه ومنجزاته.

ولكى أؤكد للقارئ أيضاً أن إملائى لهذا الكتاب هو نتيجة الإيمان بأثر علم النفس فى معالجة القضايا المجتمعية والشخصية الحادثة، بالإضافة إلى الأثر الإيحائى الذى أحدثه هذا العلم فى، ودوره فى رجعتى إلى الإيمان لم تكن لأسباب وقعت لى اضطررتنى عندها إلى العودة إلى دنيا الإيمان والتفويض.

فأنا أؤكد، منذ البداية، أن عودتى إلى الإيمان لم تكن وليدة الضائقة المالية التى اكتسحت العالم وقتاً ما ^(١)، ولو أننى أعترفُ مع ذلك بأن تلك الفترة قد ساعدت على نضوج بعض الحقائق النافعة لى. وما كان تقدّم سنّى أو اقترابى من الشيخوخة هما السبب فى عودتى إلى الإيمان، بالرغم من أثر هذين السببين على آراء وسلوكيات الناس فى بعض الأحيان.

فإنى ما زلت فى مستهل الخامسة والأربعين ^(٢) وهى سنٌ تُعتبر مبكرة نوعاً ما، وما زلت بحمد الله موفور الصحة قوى البنية، قادراً على الانحناء عشر مرات متواليات ^(٣) وسباحة ميل كامل، والتهام كل ما أشتهى

(١) يشير المؤلف هنا إلى الهزة الاقتصادية التى وقعت للعالم إبان النصف الأول من القرن العشرين. (المترجم)

(٢) كان ذلك فى العقد الرابع من القرن العشرين، فقد صدرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ١٩٣٦. المترجم

(٣) إلحاح إلى توافر الحيوية والصحة لدى المؤلف، وأنه يقدر على ممارسة التمارين الرياضية، ويعنى ذلك أن عودته للإيمان بأثر الدين لم يكن سببها المرض أو الاعتلال، وهذا يعطى مصداقية لأثر الدين فى حياة النفوس والشعوب. (المترجم)

من طعام دون خَشْيَةِ آية عواقب. فعودتى إلى الإيمان لا ترجع إلى تدهور
صحتى ولا إلى ما عساه أن أكون قاسيته من الآلام، التى تؤثر على عقلية
المريض، فَتَجَرُّفُهُ فى تيار التَّمَنى للتخلص من هذه الحياة، والإخلاد لحياة
أخرى كلها راحة واطمئنان. كما أعترف بأنها لم تأت فى أعقاب مصيبة أو
كارثة من كوارث الحياة ومشاكلها، بل بالعكس جاءت بعد أن قضيت ستة
عشر عامًا أنعمُ بحياة زوجية هائلة، فأنا رجل محظوظ لى ثلاثة أطفال هم
مصدر سعادتى وغبطتى، وأحرزت من النجاح أكثر مما كنت أصبو إليه، أما
إيرادى فيربو على حاجتى ومطالب أسرتى.

ومن هنا، ترى أن هُداى لم تصطحبه آية حبكة روائية أو إثارة ما
لعواطفى، فلم أمرّ بتجربة قاسية، ولم تُحرِّك إحساسى كارثة، كما لم يهر
بصرى اكتشاف جديد قد يؤدى إلى هذا التَّغْيِير الذى أسجله الآن.

لقد أتانى الهدى وثيداً حتى أننى لم أتبيَّنه فى نفسى خلال مراحل
الأولى، وما كان مرجع هذا التَّغْيِير إلا تلك التجارب المتواصلة التى
صادفتنى أثناء ممارستى لمهنتى كطبيب نفسانى.

وقد ساعدتنى المهنة - ولا أنكر ذلك - بحكم عملى كطبيب نفسانى،
فى أن أقدم النصيح لحوالى أربعة آلاف نفس من الشباب والكهول والأغنياء
والفقراء والفتيان والفتيات، وقد سمحت لى هذه التعددية فى الفئات
العُمرية والتمايز الثقافى والبيئى والاجتماعى، بالإضافة إلى اختلاف
الأنواع، فى أن أقيس أثر إملأته ونصائحى الطبية عليهم، إلا أن هذه
التعددية التى أذكرها كانت مشاكلها تقترب من العادية جداً، إن لم تكن
مشاكل عادية تحدث لأى فرد فى مجتمع يتعايش معه، ويتفاعل مع أفراد

كل وقت؛ فمنهم من لم يستطب أسلوب حياته ومعيشته فركن إلى الخمول والترّف والكسل دون محاولة إلى تغيير ذلك، ومنهم من كان يعاني مشاكل زوجية بسيطة ومن ثم كان يسعى إلى الانفصال أو الطلاق، ومنهم من كان يعاني مشقةً أيضاً في كيفية كسب الأصدقاء والاحتفاظ بهم، ومنهم من كان يتلبّسه الخجل والحياء المفرط، ومنهم من كان يحاول أن يجد حلاً للمشكلات التي قد تعترض تربية أطفاله وتعليمهم أو التي تُبرزها عاداتهم وطبائعهم. ومنهم من كان يعاني صراعاً عنيفاً بين العقائد الدينية والتجارب الدينية، ومن ثم يسعى إلى الوصول إلى نوع من التّهادن بين الناحيتين، ومنهم من كان يرضخ تحت بعض العادات القبيحة ويودّ الخلاص منها. إلا أن جملة القول في ذلك هي أن هذه المشكلات جميعاً كانت عادية وأمكن علاجها بواسطة أصول علم النفس، وهي بعيدة كل البعد عن الأمراض النفسية المعقّدة والتي ميدان علاجها طب الأمراض العقلية في المصحات النفسية والعقلية.

وقد يُفاجأ القارئ بهذا الأمر الذي سوف أعرضه عليه في هذه الفقرة، وهو أنني كنت في بعض الأحيان - إن لم يكن في أغلبها - أنصح المرضى باتّباع بعض تعاليم الكتاب المقدس، وقراءة بعض آياته، وأوصيهم باتّباع العقائد المعقولة، مع كوني بعيداً جداً عن الإيمان بذلك والاعتقاد فيه، وفي هذا ضرب من التناقض في سلوكي كطبيب نفساني، أن أصف أو أنصح ما لا أؤمن به، لكنك ستمنحني العذر عندما أصرّح لك بأنني رأيت عجز المعلومات النفسية والعلمية عن تقديم النصيحة اللازمة في كل الأحوال،

فما هي بالحاسمة، ولا هي بالكافية لسد حاجات أولئك الذين سَعَوْا إلى
يبلغون النصح والإرشاد^(١).

ولشدة إيماني بهذا المنهج ما خُضْتُ مساجلات علمية أو تحدثت مع
أحد من المترددين علىَّ إلا وكنت شديد الإيمان بهذا النهج، حتى أنني
كنت أشير عليهم باتباع سُنَّة خلقية ناتجة عن ثقافات المجتمع، وإذا بي بعد
وقت أحاول أن أبحث بيني وبين نفسي عن أوجه الشبه بين هذه السُّنن
الخلقية الوضعية والتعاليم الدينية، وإذا بي أيضاً أصاب بنوع من التبليبل
الفكري، كان ذلك نتيجة إيماني الكامل بالعلوم الطبيعية وما أضافه من
خلال المقارنة بينها وبين التعاليم الدينية، وهنا تأثرت ميولي، ووجدتني أنا
الآخر بمرور الزمن أتشبع بعدد لا حصر له من التعاليم الدينية، التي كنت
في منأى عنها منذ أكثر من عشرين عاماً.

والحق أنني لم أتردد على دار العبادة أكثر من عشرين مرة في مدى
العشرين عاماً السابقة، إلا أنني، وبدون وعي مني، لاحظت أنني أشيرُ
على مرضاي من وقت لآخر ببذل نشاطهم في معاونة الكنيسة والاشتراك
في أية جمعية دينية على غرار جمعية الشبان المسيحية^(٢).

(١) المؤلف عنده كامل الحق فيما صرَّح به في هذه الفقرة، وفي أثر الكتب السماوية المُترَكَّة في ضبط
الإيقاع النفسي لدى المُتلقي، ونشر قَدْرٍ من الطُمأنينة على مَنْ يتعبَّد تلاوةً في هذه الكتب فضلاً
عن الالتزام والعمل، وهما الأولي بالتأكيد. (المترجم)

(٢) لا يعني ذلك قصور الكتب السماوية الأخرى ومؤسساتها التَّعبُدية والاجتماعية عن أداء دورها في
خدمة المجتمع والارتقاء بالذوق العام، وتعزيز جانب الطُمأنينة والسَّلام النفسي على نفوس مُريدِها،
لكن المؤلف يُصدِّرُ عن واقعه وسياق حياته هو. (المترجم)

وقد جاءتنى مرة سيّدة شابة تتلخّص مُشكلاتها فى تطلّعها إلى بدء حياة جديدة بعيداً عن مسقط رأسها، واحتراف مهنة تقوم بِأودها . وقد نجحت بالفعل فى تحقيق رغبتها بعد أن تم اكتشاف نواح معينة من ميولها ولياقتها بواسطة بعض الاختبارات النفسية، ولكنها عادت بعد ستة أشهر لاستشارتى قائلة: «... ما زِلْتُ أجدُ صعوبة فى معاملة الناس وخصوصاً الرجال منهم، وأخشى أن أكون مُصابة ببعض العُقد النفسية التى تَحُول دون اكتسابى هذه العادة، فهل من وسيلة للتخلّص من هذه العُقدة؟». وعندما شخّصت حالتها اكتشفتُ أنه ليس ثمة عقبة تحول دون تحقيق رغباتها؛ فمشكلاتها الكبرى فى الواقع تنحصر فى أنها كانت تعيش لنفسها، فتفكيرها ونشاطها كانا يدوران حول ذاتها فحسب. كانت تفتقر إلى عادات مُعيّنة وكفايات خاصة، لن تُكتسب بالتحليل النفسى أو بالتأمل الباطنى، إنما بالمحاولة المتواصلة والمران الدائم. ولذا أوصيتها بعدة أمور كأن تنضمّ إلى كنيسة ما، وأن تنتهز كل فرصة لتقوم بنشاط فعّال فى سبيلها بعد أن تُلقى بنفسها فى خِصَم أى عمل فى سبيل الغير. ولا يفوتنى أنها اعترفت لى ضمناً بأن إيمانها صادق، وأنها أحد أعضاء كنيسة بلديها، ولكنها سألتنى متعجّبة: «أليس من الخِسة الانضمام إلى الكنيسة لمجرد تهذيب نفسى حتى أغدو سيّدة اجتماعية؟»

ولم أجد مناصاً أو مفراً من أن أفسّر لها أهمية وأثر الدين فى الحياة، معللاً ذلك بالأثر الاجتماعى الواسع للدين فى الحياة، بالإضافة إلى الدور والنشاط الاجتماعى الواسع الذى قدّمه كل الأنبياء، وأنهم إنما أفنوا ذواتهم من أجل غيرهم، وأنكروا الذات فى أفعالهم من أجل الغير، وهذا الأمر الذى تفعلينه إنما فعّله الأنبياء والصالحون من قبل. على أن هذا التفسير

الذى قدَّمته لهذه السيدة قد صادف قبولاً واستحساناً وراحة منها، حيث إن إدراكها الدينى لم يكن قد تعدَّى الإيمان ببعض النواحي الإيمانية الضئيلة، ولم تجد فى حياتها مَنْ يُرشدُها إلى فضيلة إنكار الذات وإيثار الغير، ولا مَنْ يُعلِّمُها أن طُمأنينة النفس وهدوءها لا يتأتَّيان إلا إذا قام المرء بعمل نافع للمجتمع، أو أدَّى خدمة للغير وهو يصارع فى مَعَمعة الحياة. والذى أُحِبُّ أن أؤكد عليه، وقد سبق هذا التأكيد أننى وجدت نفسى - بالذات - وأنا المُلحد المُنكر للبعث، الكافر بالله، فى هذه الحادثة أتمحَّسُ دفاعاً عن الدين، والتَّمسُّكُ بِقِيَمِهِ وتعاليمه وأوامره ونواهيه، وقد أخذتُ هذه الحالة وأشبابها تدفعنى خطوة إثر أخرى حتى اقتنعتُ تماماً بأن كل مكتشفات علم النفس ونظرياته فى تقويم الشخصية، والوصول إلى شخصية سوية ومن ثم الوصول إلى سعادة النفس ورضاها تنتهى إلى التمسُّكُ بالحقائق الدينية تمسُّكاً يقينياً نابعاً من إيمان ثابت وتصديق مطلق ^(١).

وكما كنت قديماً مؤمناً بدور العلوم الطبيعية وأهميتها فى الحياة، ورفع قدرها على كل شىء، ومن ثم رفض المعطيات الدينية على إطلاقها، وجدتني الآن أبداً من العلم أيضاً فى رحلتى إلى التصديق والإيمان المطلق

(١) تتفق الأديان السماوية جميعها فى الأثر الذى تُنبِغُه على متَّبِعِيها، ومنظومة الأخلاق التى تدعو إليها، ويتبع ذلك الثواب المقيم فى الآخرة فى ظل اتِّباع الأوامر والنواهي. قال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (٨) إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَقْطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤) وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ فَوَارِيرَ (١٥) فَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا (١٦) وَيَسْقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى

سلسبيل ﴿ الإنسان (٨-١٨) ﴾

بدور الدين وتعاليمه فى الحياة، فكما جَرَفنى العلمُ قديماً بعيداً عن الدين، كانت عودتى إليه أيضاً عن طريقه، وهنا كان التناقض.

وأرى قارئى العزيز قد ازداد شغفه إلى معرفة تفاصيل أدق عن حياتى، العلمية منها على وجه التأكيد، وأنا أقدم لهذه الرحلة العلمية بالتحاقى بالجامعة، وكنت قد نشأت نشأة دينية، التحقت بالجامعة ورِعاً تقيّاً مولعاً بالدين منذ نعومة أظفارى، شديد التعلق به، والاهتمام بتفاصيله، متأثراً بتعاليمه، وأواظب على مناسكه، ولا أتخلف عن مواقيت الصلاة، ولا أتوانى عن تقديم كل العون لغيرى، وقد زاد اهتمامى بالدين إلى الانتقال من مرحلة الإيمان المطلق بتعاليمه إلى مرحلة دعوة غيرى إلى التمسك بالدين، فصرت ألقى دروساً دينية بين وقت وآخر، وأستطيع أن أجمل توصيفاً لشخصيتى فى هذه الفترة، وهو أننى كنت شاباً متطرفاً تناول جرعة دينية مُكثِّفة ظهرت فى تصرفاته وأفعاله. لكن ما الذى حدث لى بعد ذلك؟

كانت الكلية التى التحقتُ بها بعد مراحل دراستى المدرسية كلية شهيرة، أما سبب شهرتها فيرجع إلى أن ثمانين فى المائة من خريجي هذه الكلية كانوا يلتحقون عادة بوظائف دينية، ومن ثم اصطبغت الدراسة فى هذه الكلية بالناحية الدينية، وقد لمستُ أنا ذلك فى الكلية حيث كان النشاط الدينى متفجراً فيها، ولما كنتُ شغوفاً بالعلم والمعرفة، والبحث عن الحقيقة، اشتعلتُ جذوة القلق فى نفسى، ورُحْتُ أَعْتَاطُ من المناخ العقلانى المصْطَبغ باللمسة الدينية فى الكلية. وكثيراً ما تأتى الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد تناقلت الألسنة فى سفور وكشف العلاقة الغرامية الفاضحة، التى كانت بين عميد الكلية ورئيسة الراهبات، وهنا تأجَّجت الشكوك

داخلي، وفَرَعَتْ أسباب الاطمئنان من نفسى، وأرهق ذهنى المكدود لِتَوْهٍ بالبحث والتحرى، وعندها التحقَّتْ فى السنة التالية بكلية أخرى من كُبريات الكليات فى شرق أمريكا، حيث بدأت أدرس تاريخ الفلسفة والتربية الدينية^(١).

أما تاريخ الفلسفة فهو قصة تحرُّر العقل البشرى من الخرافات والأوهام الدينية المضلَّة، وقد لازم ميلاد هذه العلوم وظهورها استشهاد جمهرة من أفاضل الفلاسفة والعلماء، والذين عدوا من خلال آرائهم مجترئين على الكنيسة، ومن ثم اتَّهموا بتسفيه العقائد الدينية، الأمر الذى أغضب الكنيسة وأزعجها فكادت لهم، ولا يخفى على البصير الناقد أن الدراسات الفلسفية التى قدِمَتْ كانت لا تخرج عن الإعلاء من شأن ربط الأسباب بالمُسبَّبات^(٢)، فكل حادث ما هو إلا حلقة من سلسلة من الأسباب والمُسبَّبات التى لا تنقطع، بعكس الميل السائد لدى كبار رجال الكنيسة الأول أمثال طِرْطُولِيَان^(٣) الذى قال: « لا بد لى من الإيمان بتعاليم الكنيسة بالرغم من سخافتها »، حيث أظهرت هذه الآراء التناقض الواضح بين زُهد المسيحيين الأوَّل وإنكارهم لسرمدية هذه الحياة، وبين الحاد الإغريق وإغراقهم فى إشباع شهواتهم، وتحقيق مبدأ اللذة والمتعة،

(١) لا يعنى ذلك أن المؤلف محقٌّ فى تصرفه هذا، فإننا لا ننظر إلى الدين باثره فى الأفراد؛ إذ كثيراً ما ينحرف الأفراد عن التعاليم الدينية، ولا يعنى ذلك خللاً فى الدين، أو السعى إلى انتقاص قدره وآثره، فالدين لا يُحكَّم عليه بتصرف الأفراد ولكن يُحكَّم على الأفراد من خلال الدين. (المترجم)

(٢) قال تعالى فى كتابه الحكيم: «وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا فَاتَّبِعْ سَبِيلَ» ، وفى هذا النص الكريم ما يكفى لإثبات أن الدين لا يتناقض مع العلوم. (المترجم)

Tertullian (٣)

وأظهرت هذه الآراء أيضاً كيف تطوّرت الطقوس الدينية، والنظريات والمذاهب الكنسية تبعاً لمجريات القوى السياسية، وارتفاع شأن الشعوب ثم اندثارها. كما بالغت في وصف أثر العلوم الطبيعية مثل علوم الطبيعة والكيمياء والأحياء وطبقات الأرض، كل هذه الأمور قد أزاحت الستار عن العقائد الدينية وسفسطتها؛ لذلك كان هذه الشوط من الدراسة هو الأمتع والأبهر بالنسبة لى؛ لأنه كان الجواب الشافى عن تلك الشكوك الدينية التى سأورتنى من قبل، ولم أهتم إلى حلّها يقنعنى، وقد خرجت من هذه التجربة باحترام عميق لقوة التّسبيب، ولما كشفت العلم الحديث، أما عقيدتى الدينية فقد هوتْ وانداحتْ فى دائرة الخفاء حيث لم تجد ما تستند إليه وتقوم عليه.

لا أعرف سبب اهتمامى أيضاً بالدراسة الدينية وخصوصاً بعد أن خبا نور الإيمان من نفسى، وبعد المساحة المظلمة التى غلّقت حياتى؛ ويُسعفننى القول بأن ما بين الظلام والنور رباطاً واهياً نحتاج أن نحافظ عليه بإحكام، وإذا كنت قد شدّدته فأثر فى هداية من الخالق، فقد ارتأيت أن أعيد حساباتى؛ لذلك كان الشّوط الذى بدّأته فى العام الدراسى نفسه دراسة التربية الدينية، دراسة فى البحث والمنهج التاريخى لها، وما حدّثَ لها من تطوّر، وما حلّ بالكتاب المقدس، فعرفنا الطريقة الفاسدة التى اكتمل بها هذا الكتاب، ولمسنا فى الأسفار التى درسناها الدلائل القاطعة على أن رجال الدين الواحد تلو الآخر قد أخذوا يعيثون بالكتاب، فيعيدون كتابة بعض أجزائه، مُضيفين إليه ما يعنّ لهم، ومن هنا قسّمتُ محتويات «العهد الجديد» إلى ثلاثة أقسام متساوية: تلك المقطوع بصدقها أى التى جاءت على لسان المسيح، وتلك المشكوك فيها، وتلك التى زُيِّت على مرّ

الأيام. وكانت هذه الدراسة سبباً فى اعتقادى أن كل ما سبق أن اعتنقته من مبادئ الكتاب المقدس يبدو لى صبياناً.

وليس هناك ما يدعو بطبيعة الحال إلى استعراض كل ما درسته بالجامعة، غير أن هناك مادة واحدة تستحق الذكر، وهى مادة علم دراسة الأجناس، فلقد كانت هذه المادة أكثر المواد شيوعاً وأشدّها هدماً، أكثرها شيوعاً لسهولة اجتياز امتحاناتها، وأشدّها هدماً؛ لأنها كانت بعيدة الأثر فى قلب عقائد الطلبة الدينية رأساً على عقب. وقد بلغت هذه المادة الذروة فى الهدم خلال تلك المحاضرة التى رسم فيها الأستاذ دائرة صغيرة تحوطها دائرة أكبر، ثم قال :

« تشتمل هذه الدائرة الصغيرة على مملكة الحقائق العلمية التى نلّم بها إماماً تاماً ونستطيع إثباتها، أعنى حقائق علوم الطبيعة والكيمياء والرياضيات، إثبات وجود عناصر كيميائية مُعيّنة. أما هذه المساحة الكائنة بين الدائرة الصغرى والكبرى فهى ميدان الحقائق الثابتة ثبوتاً جزئياً وأنصاف المعلومات، ومثال ذلك أننا نعتقد بوجود عناصر أخرى برغم أن هذه المعرفة غير مؤكّدة. أما ما هو خارج عن هذه الدائرة الكبرى فهو مملكة الخرافات والعقائد والأوهام التى لا نملك لها برهاناً، ففكرة الله والمعتقدات الدينية تَسْبَحُ فى هذه المنطقة غير المحدودة. ونحن لا يمكننا إثبات وجود الله كما لا يمكننا إثبات عدم وجوده، وقياساً على ذلك لا يسع المرء اللبيب إلا أن يقول: «أنا لا أعرف» ، أعنى أن يكون ملحدًا ».

ولوضع الحق فى نصابه لا يفوتنى أن أعترف أن بعض أساتذتى كانوا شديدي التدين، وكانت الكنيسة التى نتردد عليها يوم الأحد مرغمين تكتظُّ

بالوعاظ المُتميّزين، ومع ذلك كان انصرافنا دائماً إلى ربط الأسباب بالمسببات هو هدفنا الأسمى، وهو ما حاولنا أن نألفه في نمط تفكيرنا وقياسنا للأمور، كان بحثنا دائماً عن سبب وراء المسببات.

وقد كنّا في قائمة الدرس فريقين غاية في التباين والاختلاف، فريق غنى عما يقوله الأساتذة، لا يهتم بما يقولون، ولا يفهم أيضاً معنى ما يتلقاه، وفريق متفتق الذهن يسعى مُجدداً وراء الحقيقة. فكلما زاد غياب الطالب بقيت عقيدته ثابتة لا تتزعزع في زاوية مُحكمة الإغلاق لا تتسرّب إليها ثمرات الدراسة التي يخضع لها، وكلما كان ذكاؤه عالياً^(١) نفّص عن نفسه غبار العقيدة، ولجأ إلى التحليل الصادق سعياً وراء الحقيقة.

وبعد سنوات تخرّجتُ في هذه الجامعة، ونلتُ منها شهادةً في بيتا كاپا^(٢)، تخرجت ملحقاً شديد الاقتناع برفض الدين، قوى الإيمان بفكرة الإلحاد، والأكثر من ذلك كنت مستعداً لإقناع غيرى بفكرة إلحادى، وقد أثر هذا الأمر في سلوكى، فقد أصبحت طوال عشرين عاماً أبالغ في احتقار تعاليم الكنيسة مؤمناً بفكرة أن الدين هو الملجأ للعقول الخاملة الكسولة.

الآن أصبحت، عزيزى القارئ، مقتنعاً بفكرة التناقض التى وقعت فيها، والتى بدأت من رفض الدين بالعلم ثم الانتهاء إلى الدين والدخول

intelligence quotient (١)

(٢) هو اسم أقدم مؤسسة صحفية للأدب الإغريق تأسست في ٥ ديسمبر عام ١٧٧٦ شعارها «الفلسفة دليل الحياة» Phi Beta Kappa، وهى لا تعدو الآن أن تكون منظمة شرفية فقدت قيمتها الاجتماعية وصار اسمها الآن يُمنح كدرجة علمية للطلبة المتأخرين. (الترجم)

تحت عباءته من باب العلم، أقصد علم النفس الحديث القائم على أساس الرياضيات والأرقام، والذي يُطبَّق على البَشَر لا على الورق، علم النفس الحديث الذي قلب آرائى ومبادئى رأساً على عقب دون أن أشعر بالتطور الذى حلَّ بى من مدة طويلة.

وينبغى أن نفرِّق هنا بين علم النفس كعلم والتحليل النفسى، والذى أدَّى إلى ظهور نظريات تأملية لا يمكن الجزم بصحتها جميعاً، كالتعبير عن الذات والقمع والأحلام والعقل الباطن والليبدو^(١) وعُقْدَةُ النقص والتربية التقدمية . . . إلخ، أما علم النفس فقد بلغتْ دَقَّتُهُ الدرجة التى وصلتْ إليها الكيمياء والطبيعة منذ قرن من الزمان.

وقد يبدو لمبعض أن علم النفس ومنجزاته بعيد عن أذهان الناس بالرَّغم من سماع البعض أيضاً عن اختبارات الذكاء أو مقياس الذكاء، إلا أن القليلين منهم الذين يُدركون أن من ضمن إنجازات علم النفس تقديم أكثر من ١٠,٠٠٠ اختبار نفسى قدَّمها علماء النفس، وأن معظم هذه الاختبارات مُستخدمة الآن فى الحياة العامة. والقليلون أيضاً يعلمون أن مؤسسة رُوكفِلَر وَهَبَتْ مجموعة من علماء النفس نصف مليون دولار لاكتشاف اختبارات التعاون المُستخدمة الآن بمعظم المدارس، وفى ذلك تقديرٍ لمنجزات هذا العلم.

(١) libido هى الطاقة الحيويّة فى الإنسان قصدَ بها فرويد الحرمان الجنىسى أو الجانب العقلى للغريزة الجنسية، ولكن يُنصح ما لبث أن توسَّع فى معنى التعبير وأطلقه بصفة عامة على الطاقة الحيويّة بأسرها. (المترجم)

ومن عطاءات هذا العلم أن تعرف أن أساتذة علم النفس بجامعة مينيسوتا قد قضوا خمس سنوات فى بحث متواصل إلى أن اهتمدوا إلى استنباط ثلاثة اختبارات لقياس مدى كفاية المرء الآلية، ومدى استعداد الطبعى للتعامل مع الأجهزة الآلية، وقد أنفق هؤلاء العلماء ما يقرب من مائة ألف دولار تبرع بها مجمع الأبحاث الوطنى وغيره من المؤسسات المعنّية بهذا الأمر كى يصلوا إلى هذه النتائج، مما يعنى الاهتمام المبالغ بأبحاث علم النفس وأثرها فى المجتمع^(١).

ومن عطاءات هذا العلم أيضاً أن تعرف أن ملايين الدولارات التى تُنفق على دراسة الموسيقى يُقابِلها صمتٌ مُطبّقٌ وجهل واضح بدقة اختبار سيشور لاكتشاف المواهب الموسيقية الفطرية فى الإنسان، وقد وُضِعَ هذا الاختبار بعد دراسة امتدّت خمسة وعشرين عاماً، بمعاونة علماء نفس آخرين، وقليلون أيضاً هم الذين سمعوا عن الجهاد العنيف الذى خاضه علماء أمثال دُورث و ثيرستون و ألبورت و ولز و زوت و برنر و يتر وغيرهم فى مجال الشخصية وحدها، والتى كان لها الأثر الأكبر فى تفهّم أسرار الشخصية والارتقاء بها، والإفادة منها فى علاج المرضى بالعيادات. فقد أُجْرِى اختبار قياس الشخصية وحده على حوالى نصف مليون شخص عام ١٩٣٥ فى عيادات الولايات المتحدة ومدارسها.

هذا الفرع من علم النفس هو الذى زرع الإيمان فى، و ولّد فى شحنة إيمانية كبرى، وأحيا باعثَ الراحة والسكينة والطمأنينة فى نفسى، وأضاء

(١) ينبغى ألا يعزل القارئ هذا الكلام عن سياقه الزمنى والذى ألف فيه هذا الكتاب حتى تكون الفكرة واضحة. (المترجم)

مُجَسِّمًا من النور داخل ذاتي، فقد تبدَّلت مُعتقداتي الدينية كما سبق أن أوضحتُ.

ولا أدعى أن التجارب العلمية في مجال علم النفس التي قُمتُ بها كانت ممكنة التحقيق لولا استنادها على التجارب التي اضطلع بها غيري من العلماء النفسيين، بالرغم من أن التجارب التي قدَّمْتُها قد حازت القبول، أما كون هذه النتائج المُستخلصة من هذه الدراسات تؤيِّد أو تُطابقُ بعض المعتقدات الدينية الأساسية فهذا ما سيلمُّسُه الجميع حتمًا بمرور الزمن، والحق أن مكتشفات علم النفس قد طُبِّقت تطبيقًا واسع النطاق على معظم المشكلات الإنسانية، حيث قامت مصلحة تشغيل المُتعطلين بمدينة نيويورك، بإجراء اختبارات نفسية على ١٥٣٢١ فردًا من الرجال والنساء المُتعطلين في فترة لا تتجاوز ستة عشر شهرًا. وفي ضوء هذه الاختبارات أمكن توجيه كُلِّ منهم إلى المهنة المناسبة، والتدريب المناسب له حتى يغدو لائقًا لهذه المهنة، وفي كثير من الأحيان كانت النصائح والاستشارات العلمية تُقدِّمُ مستندةً على المُشكلات والعقد المُكتشفة في شخصية كل منهم، والتي عادة ما تكون السبب الرئيسي في تعطلهم، وقد تكلفت هذه التجربة أكثر من مائتي ألف دولار تبرَّعت بمعظمها مؤسسة كارنيجي، وجمعية مساعدة العمال العاطلين بمدينة نيويورك.

ولما كنت قد عيّنتُ مستشارًا خاصًا لهذه العملية، ونيط بي وضع الخطط ومراقبة الدراسات الإحصائية المستخلصة لعشرة آلاف نفس ممن أُجريت عليهم الاختبار، فقد أُجريتُ عليهم ما قدره ٧٣٢٢٦ اختبارًا نفسيًا، وسجَّلتُ تقريرًا شخصيًا شاملًا لكل فرد منهم. وفي هذه المرحلة بالذات

بدأ إدراكى لأهمية العقيدة الدينية بالنسبة لحياة الإنسان، و وجدت نفسى مُنْصَافًا لمُضَاهَاة تجاربى السَّابِقَة على مرضاى بالنتائج الباهرة، التى توصَّلتُ إليها تلك الاختبارات المهمة التى تولَّيتُ الإشراف عليها. وقد استخلصنا من هذه الاختبارات نتيجة مهمة - رغم أنها لم تُنشر فى التقرير النهائى - وهى أن كلَّ مَنْ يعتنق دينًا أو يتردَّد على دار العبادة يَتَمَتَّعُ بشخصية أقوى وأفضل ممن لا دين له أو لا يؤدى ^(١) أية عبادة.

وعلى ذلك لم تكن عودتى إلى الدين عَوْدَة الضَّال الذى اهتدى إلى دين صائب، أعنى أن هذه العودة لم يُصاحبها شعور متوقِّد أو نعمة عاطفية، لكنها كانت عودة عن طريق العقل فحسب لسوء الحظ ! ولا أظن أن كافة المُتدينين يَقْرُون هذه الحقيقة، حتى أنا نفسى لا أعتقد أنها الطريقة المثلى، ففكرتُ عن الدين تتضمَّن بضعة معتقدات لا تؤيدها مذاهب دينية مُعينة، وتنبذ بعض الآراء التى تراها مذاهب جوهرية معينة. إذاً .. فما الدين؟

الدين هو الإيمان بوجود «قوة» ما كمصدر للحياة، هذه القوة هى قوة الله، مدبِّر الكون، خالق السماوات، وهو الاقتناع بالدستور الخُلُقَى الإلهى الذى سنَّه الله فى كُتُبهِ المتعاقبة، واعتبار التعاليم السَّماوية أئمن كثر تُغْتَرَفُ منه الحقائق الدينية، وهى أسمى فى مرمائها من العلوم كلها مجتمعة، والقيم الخلقية التى هى أقوى فى أساسها من نظرية السَّيِّئة السالفة الذِّكْر.

(١) العبادة عند المؤلف مزاولَةٌ وممارسة بحُكم العادة، أما العبادة فهى إيمان كامل بالتعاليم الدينية، ومحاولة تطبيقها التطبيق الأمثل، بعيدة عن العادة، فهناك فرقٌ بين أداء العبادة كعادة وأداء العبادة كعبادة. (المترجم)

فأنا مثلاً أؤمن بصِدْقِ رواية مولد السيد المسيح، ولكن ليس تصديقي لهذه الرواية نتيجة لمقارنة عقيدتي الدينية بغيرها من العقائد، ولكنه إيمان خالص جاء فى أعقاب اهتدائى إلى المزايا الصحيحة التى يحتويها دينى، الذى سبق أن نبذته لما كنت عاجزاً عن اكتشاف ما يحثشد به من خير.

وكثيراً ما كنت أحتُ مرضاى من الكاثوليك ليكونوا أشدّ تديّناً، وبصفة خاصة فى مسألة الاعتراف التى أراها طريقة فريدة فى فائدتها النفسية. وكنت أشجّع مرضاى من غير المسيحيين على التردد على معابدهم ومُشآتهم الدينية، وكنت أنحو هذا النحو فى كل هذه المراحل على أساس مطالب الأفراد وضرورة استخدام الوسائل الممكنة فى هذا السبيل.

ومن هنا ترى أن عودتى إلى رَوْضة الإيمان والاعتقاد المُطلق بالدين باعتبارى أحد أفراد المجتمع ليست بذات أهمية إن لم يوضع فى الحسبان أثر علم النفس العلمى الحديث فى بثّ هذه الروح الإيمانية بداخلى.

وإذا كانت العلوم الطبيعية قد انتقلتُ بالإنسان من مرحلة إلى أخرى، حيث أسبغت عليه واحةً من الهدوء والسكينة والارتياح سواء فى إعاناته على إطالة عُمره من خلال التقدم الطبى والعلمى الهائل، أو توفير سُبُل الراحة، أو تخفيف آلام المرضى، أو حشد الحياة بمُشهيات من الترف والتسلية والبَهجة والراحة، أو توفير فرص التعليم، لو بحثت فى كل هذا، ربما توفّر لك بعد ذلك الحكم مطلقاً بالقول بأن الناس لم يُصْبِحُوا أوفرَ سعادة، أو أن الأسر لم تتوطّد أواصر علاقاتها، وأن الحكومات فقدت جانباً كبيراً من الحكمة والتَّعقُّل، وأن رُحى الحرب ما زالت تدور مُشتعلة.

إن الدليل الملموس يقودنا إلى الاعتقاد حقًا بالسابق، وربما يترسّخ الاعتقاد وأكثر عندما تعلم أن عدد الشعوب والجنود الذين شاركوا في القتال بين عامي ١٩٤٣، ١٩٤٥ يفوق أى رقم سجّله الحروب منذ خلق هذا الكون^(١).

وبينما كان العالم يتلظى بجحيم هذا الأتون المُلتهب وهى (الحرب)، لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية بأسعد حالاً، فقد كانت تعاني إضرابات وحرب طبقات وصراعاً دنيئاً للوصول إلى الحُكم، كما كانت تعاني تفكُّك عُرَى الأسرة، وانفصام الروابط الزوجية وذلك من خلال تزايد حالات الطلاق والتي سجّلتها المحاكم، وقد ثبتَ خلال عام ١٩٣٨ أن ٤٧ من أسرة المستشفيات بالولايات المتحدة كانت تشغلها حالات عقلية. ومثل هذه الحالات هى التى تُبين مدى التَفَشَّى والانهازم النفسى والإخفاق الذى لحق بالمجتمع، حتى أن هذا الإخفاق الذى لحق بهذه المجتمعات لا تزال أعراضه آخذة فى الاستمرار، يظهر ذلك فى السَّعى الحثيث للعشور على تزيان السعادة والهناء، الذى تبحث عنه المدينة الحديثة، حتى ليكاد عصرنا الذى نعيش فيه يتميز بأنه عصر البحث عن السعادة.

لقد أدّت دراستى لحالات الأفراد إلى مساندة ومعايشة ذلك القَبَس المضى من نور الهداية، وسواء كان أمل الإنسان هو فى الحصول على الوظيفة اللائقة أو الأمن الاقتصادى أو الاطمئنان الاجتماعى أو السعادة الزوجية فلن يعمّ الرخاء إلا إذا حارب الناس أسلوب الحياة الرأهنة

(١) يقصد المترجم بذلك السنوات التى اشتعلت فيها الحرب العالمية الثانية.

والمجتمع الحالى حرباً لا هوادة فيها؛ حرباً تُوقدُ جذوتها عدةً من المُثل العليا العلمية الصادقة؛ فالدين ليس ملجأً للضعفاء، الدين سلاح الأقوياء، الدين وسيلة الحياة الباسلة التى تنهضُ بالإنسان ليصير سيد بيئته المسيطر عليها، لا فريستها وعبدها الخانع.

الفصل الثانى

لماذا أتردد على بيت الله؟

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (الشورى ٢٠)

«من وجدَ حياته يُضيعها، ومن أضاع حياته من أجلِ يجدها» (إنجيل متى ١٠: ٣٩)

من خلال عملى أخذتُ أحتُ غيرى من وقت لآخر على التردد على الكنيسة، ومن ثم وجدتني أنا أيضاً مواظباً على التردد عليها، لكننى أصارحك القول فى هذه المساحة، بادئاً مصارحتى بالقول: لماذا أذهب إلى الكنيسة؟ الحق أنى أذهب إليها لأدرب نفسى على التضحية بما تهواه وقبول ما تُبغضه، فذهابى يخرمنى من نوم للذيد حتى أضاحى أيام الأحاد، وهى الفرصة الفريدة، والمُحِبَّة إلىِّ والتي أستمعُ فيها برقاد طويل، ولو أنى لم أذهب لكنتُ مستلقياً على فراشى مستمتعاً أيضاً بتصفُّح صحف الصباح. وأذهب أيضاً لأنى أدرك قدرَ الغبطة التى ستغمر والدى العجوزين إذا علِمَا بذهابى، وكذلك مدى غبطة حموى إذا وقع بصرهما على فى بهو

الكنيسة. وفى الكنيسة أيضاً سأكبجُ جموح نفسى عندما أضطر إلى كَبِتْ شعورى بمصافحة قوم لا أميل إلى معظمهم. أذهبُ أيضاً إلى الكنيسة لأننى إذا تَخَلَّفْتُ ظَهَرَ أبنائى بعُذْر قوى يُبَرِّرُ تَغْيِيهِمْ عن دروس الدين بها، ولأننى أعلم أن هناك واجبات ثقيلة على النفس لا مفرَّ من أن أؤديها مضطراً، وأذهب أيضاً لكى أَعُوِّدَ نفسى على قبول الآخر والتزول عند رايه؛ فقد أكون مخالفاً للواعظ فى رايه، ومع ذلك أرغم نفسى على الإصغاء إلى موعظته. ولأن بعض خاصة أصدقائى ممن يحيطون عَلَمًا بكل دقائق حياتى يعدُّوننى مُرائيًا، لأننى لا أصدِّق مبادئ هذه الكنيسة أو غيرها. والخلاصة أنى أذهب إلى الكنيسة مُرْغَمًا، مع كراهية شديدة لذلك، إلا أننى كنت مُتَيْقِنًا بأن ذهابى سَيُفِيدُ.

لقد شُغِلْتُ كثيراً بحثًا وتَقْيِيًا طَلَبًا للهداية والمعرفة، وكنت أسائل نفسى ما الشئ الغامض الذى أحال حياة الناس إلى هذا البؤس، وحوَّلَ حياتهم من سعادة إلى شقاء، وعندما عثرتُ على هذا الشئ، وجَدْتُهُ قد ترعرع وتشعَّب وتشابكت خيوطه كخيوط العنكبوت، وأن هذا الشئ الغامض بآثره الضَّارَّ غدا كأعشاب برِّية ضارَّةً حان موعد استئصالها، وإن جاء هذا الموعد متأخرًا بعض الشئ، لكن هذا التأخُّر لم يكن ببعيد، إذ إن مَوَاضَاتِ النور كان ضَوْؤُهَا لا يزال يتسرَّب فى حياء وخجل.

إن الاعتقاد بأن مجرد التردُّد على بيت الله هو الحل العملى لمشكلات الحياة، وبه يستكمل المرء كأس سعادته، كل ذلك قد أصبح بإجماع الآراء فكرة بالية عتيقة، على أنسى قد آثرتُ الخوضَ فى سرد تفاصيل لا طائل منها، وذلك قبل البدء فى حديثى لسببين: أولهما: إن العبادات التى يؤدِّيها

المرء ما هى إلا وجه واحد من فرائض الدين المتعددة ^(١) فقد جاء فى العهد الجديد: «وبالاعمال أكمل الإيمان، إن الإيمان بدون أعمال ميت».

وقد صارحنى عدد جم من معارفى بالقول : إننا لا نشك فى وجود الخالق، بل نحن نؤمن به وبقدرته جلّ وعلا، لكنه إيمان من نوع جديد، إيمان يرفض كل المقولات السلفية السابقة، ويحجم عن ترديدها، إيمان لم يأت عن طريق ترديد الخلف قول السلف، فكلنا يمقت الكنيسة ويتجنبها لما تُثيره فينا نظرياتها ومبادئها بل ورجالها من النفور والاشمئزاز، وكان ردى على معارفى حال هذا التصدير بالقول إمامة برأسى كدليل على الموافقة، لأنها تؤيد مبادئى تأييداً مطلقاً، وتُبرّر نفورى من الكنيسة. وقد أدركت الآن، أن هذا المقت والنفور من الكنيسة يشبه إلى حد بعيد نفس شعور الكراهية الذى يحسّه المرء إزاء ظروف الحياة وأحوالها المختلفة. فمرضى ينشدون السعادة الزوجية مثلاً دون أن يبذلوا جهداً فى سبيل تحقيقها، ويؤمنون بالصدّاقة ولكن دون أن يضحوا من أجل المحافظة عليها، ويثقون بكفائتهم وقدراتهم، ولكنهم لا يستسيغون الكدّ والعناء اللازمين لمن ييغى العظمة، ويصبو إلى التفوق فى أى ضرب من ضروب الحياة.

أما السبب الثانى، فهو يكمن فى الاتجاه الذى أصبح سائداً الآن فى دوائر علم النفس الحديث، والذى يؤكّد أنه ليس هناك طريق للسعادة غير

(١) يقول الله تعالى فى كتابه الحكيم : «لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» : البقرة: ١٧٧ (المترجم)

ويقول سبحانه وتعالى أيضاً : «قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ» : البقرة: ٢٦٣ (المترجم)

العمل والكَدَّ والنشاط، وَيَسْتَهْجِن معظم الآراء النظرية القديمة، كالتأمل الباطنى، وتحليل النفس، وعزاء المرء لنفسه بالمنجاة ومحاولة الإقناع، حيث جاء وقت - وفى ظنى أنه لا يزال سائداً حتى الآن - اعتقد فيه الأطباء غير الجادّين، والذين يزاولون قشور مهنة علم النفس أن المريض يمكنه أن يقوم بجانب من علاج النفس عن طريق المناقشة، وذلك فى جلسات أسبوعية أو يومية مدة عام كامل، وذلك لكشف رغباته المكبوتة، وعلاج مخاوفه، وضبط الشحنة الجنسية بجهازه العقلى، وعُقِدَتِ التعلُّقُ بالأب أو الأم، والأسباب الموعِزة بِكَيْتِ الغرائز.

والحق أن بعض هذه الحالات قد حَقَّقَت نوعاً من النجاحات منقطعة النظير، فأنا شخصياً أعرف سيدة كانت تُشْكُ فى صدق مشاعرها تجاه زوجها، وقد أَمْضَتْ عاماً كاملاً لا تنقطع عن زيارة المحلِّل النفسى ثلاث مرات أسبوعياً إلى أن صارت مُقْتَنعة تماماً بصدق مشاعرها تجاه زوجها.

وقد اتضح من خلال التجربة والملاحظة أن أية وسيلة - بغضُّ النظر عن جدوى هذه الوسيلة، أو سخفها أو مناقضتها للمنطق العلمى، قد تُعِين أحياناً على شفاء بعض الناس، وهذه الوسائل عديدة، فمنها التحليل النفسى، والتنجيم، وقراءة الكَفِّ، والتحليل الخُلُقِى، وعلم الفراسة، وطريقة الدكتور كُويِه^(١) وغيرها من آلاف النظريات شبه العلمية، التى تتراءى فى مخيلة الناس بين حين وآخر، والسؤال الذى يُطْرَحُ الآن، ما الثمن الذى تُكَلِّفه أمثال هذه الوسائل؟ وإلى أى حدٍّ يبلغ ضررها؟ وكم فريسة وقعت فى حبال تلك الوسائل؟

(١) الدكتور «إميل كُويِه» طبيب فرنسى، وهو صاحب نظرية الإحياء الذاتى الشهيرة، وخلصتها إمكان شفاء المريض لنفسه بواسطة الإحياء لنفسه بقدرته على التخلص مما أصابه.

الطبيعى أننا لا نملك إجابة يقينية عن مثل هذه الأسئلة، لأن العادة لم تجر على الاحتفاظ بوثائق لتسجيل الإخفاق، على أنى أحمل للناس بشرى سارة، وهى بداية الاتجاه الجديد فى علم النفس، الذى يدعو إلى العمل والنشاط، ويحذّر من الانزلاق فى وسائل التأمل الباطنى، فقد بدأ التحليل النفسى فى غزو الدوائر والحلقات الطبية.

ولأهمية ما يقدمه علم النفس أو التحليل النفسى أقدم لك دليلاً فكهاً على ذلك، ولعلك تلمسه عند مدخل «جامعة برنستون» حيث تحمل عارضة على مدخل الجامعة حكمة خالدة لسقراط : «اعرف نفسك» مدونة بحروف يونانية. لكن هذه الحكمة الخالدة قد طالعها شخص ذكى ثاقب الفكر، وقد خطّ بالطباشير خطأ طويلاً فوق الحكمة وكتب تحتها : «هذب نفسك». فهذه الجملة الأخيرة تلخص كل مكتشفات علم النفس الحديث، التى تقول بأنه لن يتسنى لنا الحصول على الشخصية الناجعة أو الخلق القويم عن طريق التأمل الباطنى بل عن طريق تدريب النفس، أى تهذيبها وحكمها، والسيطرة عليها.

والحقيقة أن ما كتبه الرجل تحت حكمة سقراط الخالدة غاية فى الدقة والتوصيف، حيث إننا لا نستطيع أن نصل إلى تهذيب نفوسنا والسيطرة عليها إلا بالتدريب والتعود والمران، فكما أن عازف البيانو لا يُجيد عزف معقدات الثوت الموسيقية إلا بعد مران دائم ومستمر لسنين متعاقبة، كذلك الإنسان لن يُجيد فن الحياة، وأطر التعامل إلا بالتدريب المتواصل، مع الإلمام بآليات فن التعامل وسلوكيات الحياة. والقارئ يعلم تماماً أن قضاء ساعة واحدة فى التأمل والتفكير كفيلاً بالتوصل إلى العديد من الأفكار، التى لا يمكن تحقيقها فى ساعات طوال بل لشهور بأكملها من المحاولات.

وهكذا نرى أن مكتشفات علوم الطبيعة البشرية الحديثة تؤيد وتؤكد ما جاء على لسان السيد المسيح منذ حوالى ما يقرب من ألفى عام - فى الدعوة إلى طيب الأعمال وجليل المثل الخلقية، ولا أرى أحداً يُنكر العبارة التى سبقت الإشارة إليها وهى «هذب نفسك» ومدى اتقادها فى المعنى مع قوله عليه السلام : «إن الإيمان بدون أعمال ميّت». وبعد هذا الاستطراء أرائى قد أوشكت على الخروج عن موضوعى، الذى أحاول أن أبين فيه كيف أعادت تجاربى - والتى هى وليدة الخبرة بمشكلات الناس وأحوالهم عن كُتب - كنز الإيمان الثمين المفقود إلى قلبى المجدب.

على أننى قد تخيرتُ الحالات التى سأعرضها من بين الحوادث الخاصة، التى مرّت بالذين كان يترددون على فى المستشفى، وذلك حتى يمكن تطبيقها على أنفسنا بسهولة، فأكثرها يمثل مواقف شائعة بيننا تُطابق المواقف التى وقعت لمعارفنا بل لأنفسنا. وتُصور هذه الأحداث الأخطاء العامة التى تُشكّل مصدر المتاعب لإحساساتنا ومشاعرنا.

وتحضرنى الآن تلك الواقعة الغريبة حقاً والتى جاءت عبر مكالمة تليفونية، ولغرابتها أذكر تفاصيلها، كانت المُتحدثة تليفونياً سيدة لا تتعدى سنّها ستة وعشرين عاماً، وكانت تتمتع بقدر عالٍ من الجمال والرشاقة، جمال يأسرك لأول وهلة، ولقد واجهتنى قائلة :

«أنا امرأة نَعة، يا سيدى، فقد عجزتُ عن كَسب الأصدقاء والاحتفاظ بهم، وخصوصاً الرجال منهم. ولقد تعرّفت على الكثيرين فأظهروا نحوى من ضروب العطف الصادق والميل الشديد ما يجعل عن الوصف. وكنت أستجيب إلى دعواتهم بسرور سواء إلى الحفلات أو الرحلات، ولكن ما إن

تنتهى الدعوة حتى يختفى صاحبها. ويقينى أن الخطأ لا بد أن يكون من ناحيتى؛ لأننى عندما أنفرد بأحدهم أشعر بعجزى عن مقابلة وده بمثله، وأخفق فى التّسرية عنه، بل أعوقه عن الحديث بصراحة. وأنا أعمل سكرتيرة بإحدى المنشآت الشهيرة منذ ست سنوات، فليس ثمة مجال إذا كى أفترض فى نفسى الشُّذوذ أو الجنون، ولكنى كلما فكّرت فى هذا الأمر زاد قلقي وشعرتُ بخيبة الأمل.»

وقد تحمّستُ لدراسة هذه الحالة جيّداً، وقد اكتشفت من خلال دراستى لأحوالها أنها تُعانى المشاكل نفسها مع الإناث، حيث إنها تكون عاجزة عن اكتساب صديقاتها من الإناث، وتُضح لى أيضاً نفورها الشديد من العلاقات الاجتماعية، وفهمتُ أنها تُمارس الرقص، وإن كانت لا تُجيده، ولمستُ أيضاً نفورها من ألعاب الورق كالبريدج وغيره، وعلمتُ أيضاً من خلال متابعتى لها ترددها على الكنيسة دون أن يكون لها نصيب فى نشاطها، وبرغم معرفتها لمعظم زميلاتها فى العمل إلا أنها كانت تنفرُ من تناول الطعام معهم، وتؤثر أن تتناوله بمفردها. وقد أثار دَهْشَتى ما رسخ فى ذهنها أيضاً من الاعتقاد بأن معظم موظفى المكتب الذى تعمل به، بل و جُلُّ أقاربها، قوم عاديون أقل ذكاءً وأدنى مستوى منها، لذلك لم تكن تأبه لهم، ولا تُعيرهم أدنى اهتمام، حتى أنها كانت فى أغلب الأحيان ترفض تلبية دعواتهم أو تُصم أذنيها عن مثل هذه الدعوات.

وبدئى أنها صادفت من الناس وإن كانوا قلة من كانت تتحرّق شوقاً إلى التعرف عليهم بل ومُصادقتهم، إلا أنها كانت تخفق فى نيل ما تتمنى، لأنها عاجزة عن إدراك كُنه الصداقة، ومن ثم أخفقتُ فى اجتذاب ما تحب، لذلك غدت الفرصة السانحة أمامها لاكتساب صداقات معدومة.

وقد يذهب البعض إلى إعطاء الكثير من التفسيرات العلاجية لهذه الحالة، فالبعض قد يُرجع المصدر الأساسى لهذه المشكلة إلى الشَّحنة الجنسية من الجهاز العقلى «ليبدو»، وإما إلى عُقدة التعلُّق بالأب أو الأم، أو عُقدة الشعور بالنقص. ولكن الحقيقة هى أن هذه السيدة قد اعتادت من زمن بعيد ألا تعمل إلا ما يروقُ لها، وتتجنَّب ما لا تحبُّه، وقد يبدو فى هذا الأمر لونٌ من الصواب، إلا أن هذا الأمر قد يكون نواة لعُقدة ستأخذ بعد وقت فى النمو والتنامى. فعلى سبيل المثال لو أقام أحد معارفها حفلاً لا يروقُها كانت لا تذهب إليه أو تعتذر عن تلبية الدَّعوة، وإن قبلت الدَّعوة فى بعض الأحيان كانت لا تشارك المدَّعوين لهوهم، والغريب أيضاً أنها كانت تشترط فى الشاب، الذى تمنى مصاحبتة إلى السينما ألا تقل ثقافته وميوله الأدبية عن ثقافتها إن لم يكن يفوقها. وهكذا خلَّقت لنفسها الأسباب التى تُبعدها عن دائرة المجتمع، فأخذت الدَّعوات التى تتلقاها تتناقص شيئاً فشيئاً.

وكانت نصائحى لهذه الحالة المرضية الغريبة أن تلبى أية دَّعوة تُوجَّه إليها على مدى الأسابيع الستة التالية، على أن تعود إلى بعد تجربة ذلك، والواقع أن نصيحتى لها بذلك كانت ملائمة لمثل حالتها، حيث أقنعتها بأن سرَّ إخفاقها مع الناس الذين تميلُ نحوهم وتحب أن تتواصل معهم راجع إلى عجزها عن منح صداقتها لمن لا تميل إليهم، وأن مشكلتها لا تحتاج إلى التحليل أو مداومة البحث وراء المخاوف والعُقد المكبوتة بالعقل الباطن. ولكى أبسط لها الموقف أعطيتها الثقة فى نفسها من خلال إقناعها بأن هذه المناقشات المتداولة بينى وبينها لن تقدِّم أو تؤخِّر، فما أنا بساحر، ولا أحتفظ بعقاير أو أقراص نفسية تستطيع شفاءها، فما هى بالمریضة العضوية

أو أنها تشكو من التهاب الزائدة الدودية أو من دُمْل خبيث يستدعى أن أستخدم مِبْضَعِي. فالأمر في حالتها جدّ مختلف عن هذا وذاك، فكما سبق أن اجتهدتْ وكِدَتْ لتكتسب المهارة في فن الاعتزال أو الابتعاد والتَّرْفُع، فعلِها أيضًا بالمثل أن تكذّ وتجتهد حتى تُتقن فن كسب الأصدقاء، وهذا أمر لن يتأتّى إلا بالتغاضى عن هفوات الغير، وقبولها قبولاً حَسَنًا، وتحملُ المتاعب التى يُسبِّبها هذا المسلك. فإن هى فعلت ذلك أمكنها أن تصل إلى ما تحب، وإلا فلن تجد في علم النفس كله ما يُعينها. ومَرّت أيام ثلاثة وإذا بها تناديني تليفونيًا وتسالني: «هل تعنى حقًا ما قُلْتَه لى بصدد قبول أية دعوة توجّه إلىّ؟»

أجبتها لها: «نعم. إني أعنى كل ما قُلْتَه لك، ولكن لمَ هذا السؤال؟»
قالت: «أمامى دعوة إلى العشاء ثم إلى السينما مع أحد الشبان، ولكنى متردّدة فى قبولها.»

فانفجرت صائحًا: «بالله لمَ ؟ أ هو مجرم ؟ هل هو طريد السجون ؟
هل يضرب أمه ؟

أيتراّس إحدى العصابات ؟ أمتعطّل هو؟»

وكان جوابها عن كل هذه الأسئلة بالنفى، وعلى الفور سألتها : «إذا ما السبب؟» وقد راحت تشرح لى وجهة نظرها، ذاهبة إلى تفسيرات غير مقبولة فى أنه أقل منها ثقافة، وأن أسلوبه ركيك لا يُعجبها، ثم أضافت أنه مجرد عامل يعمل فى إصلاح السيارات، كما تشوّب سلوكه فظاظة واضحة.

فرددتُ عليها قائلاً: «إذا اعملى ما بوسعك هذه الليلة لإسعاد هذا الفتى، ولن تخسرى شيئاً إذا حاولت أن تكونى زميلة مُسلّية هذه المرة، وستُفيدين حتماً من هذه التجربة التى ستُعِينك فى المرات القادمة. ادعِها تضحية منك إذا شئت، ولكن تأكّدى أن القُدرة على كسب الأصدقاء والاحتفاظ بهم لن تأتى عن غير هذا الطريق^(١)» .

وتكشف هذه الحالة عن حقيقة مهمّة أن الإنسان يعجز عن اختيار الأصدقاء إذا لم يتعلّم كيف يكسبهم، فهذه السيدة ترفّعت عن مصادقة مَنْ هُم أدنى منها؛ لأنها نظرت إليهم من علي، وغالّت فى تقدير ذاتها، وهى وإن كانت تفوق غيرها فى كثير من الأمور، إلا أنها دون الجميع فيما يتعلّق بفن وآداب الصداقة، وبديهي إذا كنت عاجزاً فى اجتذاب وصناعة الأصدقاء فأنت أيضاً ستخفق فى الحفاظ على هذه الصداقة، وكان رأى لها أن عجّزها عن اجتذاب مَنْ تحبّه راجع لإخفاقها فى اكتساب مَنْ لا تحب .

والبعد عن الأصدقاء، وانعدام القدرة فى الاحتفاظ بهم اتّجاه أنانى ينجمُ عنه اختفاء عاطفة الحب السّامية، وتعزيز خِصال البُغض والكراهية، وقد تسمع البعض يتندّر تعالياً بالقول «أنا أعلم تماماً أن الكثيرين ممن حولى ذوّو خلال طيبة، ولكنى لا أخالط إلا القليل منهم»، ثم يشرع بعد ذلك فى تبرير مسلكه، منتحلاً شتى الأسباب والأعذار، متجاهلاً أن «المُتعة» ليست هى مصاحبة القلّة، ولكنها الدأب المستمرّ والسعى المتواصل لمضاعفة عددها .

(١) لا يقصد المؤلف من تصريحه السابق أن يتنازل الإنسان عن قيمه ومبادئه لكي ينجح فى التواصل مع الآخرين، ولكن المؤلف يعالج حالة مَرَضِيّة تعاني الانعزال والإحساس بالأنا المبالغ فيه . والمعنى المقصود فى الفقرة محاولة الوصول إلى قناة اتصال سليمة بينها وبين المتلقّي لضمان سلامة التواصل .
(المترجم)

على أنني أستطيع أن أقرّر حقيقة مهمة، وهى أنه قد ثبت بالبرهان القاطع أن من يُقصر معاملته على مَنْ يُحبهم فقط، يحاول دائماً تلمس الأسباب التى تُبرّر كراهيته لمن يعجز عن كسب صداقتهم. ثم إن محاولة التقليل من شأن الغير وبخسه حقّه، تتولّد عن عجز المرء عن أن ينال ثقة هؤلاء الغير، فبقدر إخفاقنا مع الناس تزداد حدة النّقد فينا محاولين التنقيب والبحث عن عيوبهم وأخطائهم، لأن آراءنا وأفكارنا رهنٌ بنوع عاداتنا، فإذا ساءت خسرنا وإذا سَلِمَتْ سَلِمْنَا.

وهناك حالة أخرى لرجل فى الثامنة والثلاثين من عمره جاءنى يقول «تكاد وظيفتى تدفعنى دفعاً نحو الجنون، فانا أعمل مسجّلاً للمبيعات منذ عشر سنوات فى متجر متواضع، وإن كنت أقوم بتنسيق البضائع المعروضة على الجمهور، وأقدّم يد المساعدة أثناء حركة البيع والشراء. ومع أن رئيسى رجل له مكانته وقدره، إلا أنني لا أشعر نحوه بشعور طيّب، ولشدّ ما أمقتُ إشرافه الدائم علىّ طوال السنين العشرة السابقة، فلم يمنحنى يوماً ما أية سلطة أبأشّرها أو أية مسئولية أحمّلها. وهذا ما يقضّ مضجعى ويحزّ فى نفسى. والواقع أن مُرتبى لا بأس به، ولكنى أتوقُّ إلى وظيفة أُنْفانى فيها، وظيفة تُهيئ لى فرصة التعبير عن ذاتى، وتمنحنى الوقت الذى أتمكن فيه من تنمية روابطى الاجتماعية، وتجعلنى أشعر بعد ترك هذا العالم أننى أسهمتُ إلى حدٍّ ما فى إصلاح حاله وإسعاد مَنْ فيه.»

والواقع أن هذه الحالة التى أعرضها لا تكمن شكواها فى ضيق ذات اليد، لكنه وجد فى وظيفته طائفة من المثالب والعيوب مما دفعه إلى النظر فيمن حوله، راسمًا إياهم بجملة قاسية من النقائص، ومُحتدًا عليهم فى نقده، وبمراجعة الملاحظات التى دوّنت أثناء حديثه غَدَتِ المعلومات التالية

متوافرة لى، فهو «أعزب» ويعيش وحيداً بمنزله، ويتناول طعامه عادة بالخارج، وله أخ يكبره، وأختان تصغرانه، و والد على قيد الحياة، كلهم يعيشون فى مدى قريب منه، ولكنه لا يزورهم إلا نادراً، ومسلّاته الوحيدة هى المطالعة بحجرتة: هو ذو ذوقٍ رفيع فى انتقاء كتبه ومجلاته، مثل كتاب «كيف تجعل الحياة تستحق العناء؟» تأليف فيربانكس، وهو أيضاً لا يميل إلى لعب البريدج أو الورق، وحاول أن يتعلّم لعبة البنج يُنج ثم تركها غير آسف، وهو أيضاً يمضى أمسياته ويوم عطلته عادة فى المطالعة، ولم يمارس الألعاب الرياضية بالمدارس الثانوية أو الجامعة التى أمضى فيها ستين، ولا يجد وقتاً حتى يزاول بعض التمارين الرياضية السويدية، ولا يهتم بمشاهدة المباريات الرياضية، ولا يتردّد على الكنيسة، وغير مشترك فى جمعية الشبان المسيحية أو أية مؤسسة اجتماعية، ولا يدخن ولا يتناول الخمر».

والغريب أن إجمال مثل هذه الملاحظات، ثم الخروج منها بوصف عن هذا الرجل، قد يخرجُ بنتيجة هى أن «السلبية» هى مصدر متاعبه، سواء أ كانت راجعة إليه شخصياً أم إلى بيئته. وقد لاحظت فيما بعد، أنى تعمّدت تدوين عبارة تقوّه بها لفرط اهتمامى بمغزاه؛ إذ قال: « يبدو لى أن ضيق وقتى هو الذى حرمنى من أى نشاط خارجى. » ترى هل لهذا الاعتراف نصيب من الصّحة أو الصّواب؟

هذا الرجل تنحصر أفكاره فى محاولة الالتحاق بعمل يملك عليه مشاعره لىتفانى فيه ويحسّ فيه بذاته، وسلوكه هذا يدلُّ على تفانيه الزائد بل ومبالغته فى سبيل ذاته، لدرجة لا يمكنه معها التضحية فى سبيل عمله أو غيره، لأنه لا يخطو خطوة إلا فى الطريق الذى يستسيغه، ويُحجم -

على النقيض - عن المشاركة فى أى مشروع لا يروقُه، بل لا ترضاه له ذاته، فإذا هو فى هذه الحالة لا يُفضّل مسابقة الناس دون مسايرتهم له، وتلذّ له دراسة النظم الاجتماعية القائمة دون إقحام نفسه فيها، وهو أيضاً يُردّد الحُكَمَ والمواظب الدينية، التى تدعو إلى تهذيب النفس، فى حين يبتعد تمام البعد عن القيام بأى وجهٍ من أوجه النشاط الذى تُوصى به مثل هذه المواظب والحُكَم.

لقد أراد هذا الرجل إصلاح العالم، وتوفير أسباب السعادة لمن فيه، لكنه حبس نفسه فى عالم ضيق من صُنع يديه وأفقّه المحدود، عالم لا ارتباط بينه وبين عالمتنا، ولما أُجرى اختبار الذكاء على هذا الرجل اكتُشف أنه أشدّ ذكاء من ٥٥% من طلبة الجامعات، كما عدّ ضمن أذكى ١٠% من مجموع الشعب الأمريكى. أما الاختبار الذى أُجرى لمعرفة صفات شخصيته البارزة فإظهر أنه أكثر انطواء^(١) وبالتالى أشدّ اضطراباً فى عواطفه من ٨٧% من الشبان الذكور و أكثر تراخياً أو تقاعساً فى علاقاته الاجتماعية من ٨١% من الشبان الذكور، وأشدّ اكتفاءً بذاته واستقلالاً من ٦٧% من الشبان الذكور.

وبطالعة هذين الاختبارين يتبيّن أنهما يحملان جانبين متباينين، أما الجانب الأول فيكمن فى نفوره الاجتماعى، ومداومة تحليل نفسه بنفسه، أما الجانب الثانى، فاكتفاؤه الذاتى واستقلاله، وكلاهما يتواكب مع العالم الخاص، الذى يحاول أن يشيده لنفسه، وسأحاول الآن أن أفسّر هذا

(١) الشخص المنطوي introvert أو الفردى أو المنكش الشخصية وعكسه الشخص المنبسط - ex-trovert والاجتماعى أو الممتد الشخصية. (الترجم)

الاختبار، وأن أُبين أهميته، واضعاً في حسابي أن أقوم بالشرح لنظريتي
انطواء الشخصية وانبساطها.

ومن السابق، نستطيع القول بأن مشكلة هذا الرجل ليست هي محاولة
الاهتداء إلى عمل يستفد كل جهوده ونشاطه، ولكنها في الافتقار إلى
أسلوب جديد في حياته، أسلوب يتجه فيه بكل قواه اتجاهاً خارجياً يبذل
فيه جهوداً في سبيل الجماعة التي قد يجد نفسه فيها، فهو في حاجة أن
يتعامل بإيجابية مع أصدقاء له، يسامرهم ويلعب معهم البلياردو أو الورق
أو بعض الألعاب المسلية، ويردد على دور اللّهُو والحانات، ولا غرابة فيما
أنصح فيه من التردد على دور اللّهُو والحانات، فإن أدنا العلاقات
الاجتماعية وأحطها يتطلب منا إنكار الذات ورؤى الآخرين قبل أنفسنا.
حقاً كان الأولى بي أن أضع له برنامجاً ينطلق من جمعية دينية أو نادٍ
سياسي أو اجتماعي حيث يجد في مشاغله ما يشغل به وقته بالتدريج،
دون أن أضرب للعلاج أسوأ المثل الكفيلة بالإصلاح.

وقد تشير بعض المدارس الحديثة بأن الترياق في علاج بعض المشكلات
النفسية هو مبادرة مثل هذا الرجل بعقد قرانه ومن ثم تكوين أسرة، وقد
يكون الزواج والتوافق الجنسي الصحيح أمرين جوهرتين على مرّ العصور
لتحقيق السعادة، وبالرغم من ذلك فإنني أعرف بعض الأصدقاء الذين لم
يتزوجوا ثم هم يتمتعون بسعادة زوجية لا مثيل لها، ومع ذلك تجده في
قرارة نفسه شقياً تعساً.

وهذا شاب يعمل أستاذاً بإحدى الجامعات، ولا يجد للحياة طعمًا إلا
في هناء زوجته وبسمات طفليه الصغيرين ابتردني قائلاً: «إن مواجهتي

الطلابى هى أشقُّ الواجبات على نفسى وأصعبها، وهذه الصعوبة تتفاقم على مرَّ الأيام؛ لأننى أكاد الآن أدفع نفسى دفعًا نحو قاعة المحاضرات بعد أن أحشد كل ما فى جعبتى من إرادة. فإِذا تخطَّيتُ هذه العقبة وبدأت محاضرتى توترت أعصابى وتَهَيَّجَ شعورى، وغالبًا ما أفقد اتزانى إزاء أنفه الهفوات الصادرة عن أى طالب فأنفجرُ صاخبًا بدل أن أحاول كبت ما يخالجنى، وأكاد أشعر بازدياد الطلبة لى. وكثيرًا ما ترتجف رُكبتاى خلال المحاضرة أو يسيل العرق من جسدَى بغزارة. والواقع أنى لا أستطيع مغالبة الصِّراع مع نفسى أكثر من ذلك. وقبل أن أفكرُ فى محاولة الفرار من طلبتى رأيتُ أن أُلجأ إليك. ثم إنى إذا رجعتُ إلى بيتى وجلستُ أعدُّ دروسى أخفقتُ فى حصرُ ذهنى فيما أقوم به.

ومجموعة الإحساسات السابقة التى مرّت بمثل هذا الأستاذ قد تكون قد مرّت بأكثرنا، فإِما أن نقبلَها على علّاتها حتى لا نتخلّف عن موكب الحياة، وإِما أن نهزمَها فتخلّص منها، ونحُدَّ على ذلك مثال حالتك عندما تفكرُ فى إلقاء خطاب لأول مرة فى حفل عام. غير أن حالة هذا الأستاذ ما لبثت أن تفاقمت و زاد اضطراب مشاعره، وقد يلوح القارئ جانبًا من التوافق بينه وبين شخصية أو حالة الموظف السابقة، إلا أن هناك اختلافين جديرين بالذكر، الأول جاء فى سياق الحديث وهو حياته الزوجية الهائلة التى يحياها، والثانى عزمه منذ الصِّغر على أن يكون أستاذًا جامعياً، ثم نيّله و وُصوله إلى ما يتمنى وهو فى ريعان شبابه، بيد أنه دفع ثمن ذلك غالبًا من كنز سعادته وحياته. تُرى ما السبب فى ذلك؟

السبب فى ذلك هو أن هذا الفتى بدأ حياته طموحًا تَوَاقًا إلى الوصول إلى هدف لا ترى عيناه إلا هو، وفى سبيل تحقيق هذه البُغية التى أرادها

وحلّمَ بها، أزاح جانبًا كل نشاط أو أوهام من شأنه أن يعيقه عن التقدّم للوصول إلى هدفه، فهو قد أزاح من عقله وسلوكه مصاحبة الناس منذ طفولته، وفي سبيل الوصول إلى هدفه أيضًا رفض الاجتماع بهم، وكان حذرًا في الانخراط ضمن جماعات رياضية أو جمعيات ورحلات مدرسية، بعيدًا كل البعد عن اجتماعيات النوادي والكنائس، وبسبب انشغاله بهدفه ضاق الوقت عن التزاور مع الناس، ولما كان التّعود على مثل هذه الاجتماعيات منذ الصّغر يُولّد آثارًا إيجابية تكمن في ازدياد مساحة الحدّ التواصلي بعد الكبر، شبّ الفتى وكَبُر لم يلمس في نفسه ميلًا لمزاولة هذه العادة، ولم يشغف بأية هواية يقضى فيها أوقات فراغه، ومع أن هذا الفتى أيضًا قد نجح في حياته الزوجية أيسمًا نجاح، إلا أنه يفتقر إلى المهارة، والتجارب اللازمة لتصريف الأمور مع الناس، فإذا نجحت زوجته الجميلة مرة في اصطحابه للخروج، أو دَعَتْ بعض الأصدقاء إلى بيتها ظل الفتى يعاني ضيقًا اجتماعيًا ناتجًا من عدم القدرة على الاتصال الاجتماعي بمن حوله، ومع ذلك قلَّ خروجه وندرت زيارة الناس له. ولما انتقلت حالته إلى هاجس مرضى مقلق نتج من تراحم الأفكار عليه، أخذ يعاني اضطرابًا في مشاعره، ومن ثم بحث عن كيفية التخلص من هذا الهاجس، فانغمس أكثر في العمل والمطالعة والدراسة، الأمر الذي لم يُغْنه شيئًا، ويومًا بعد يوم بدأ الرجل يفقد السيطرة على انتباهه، فأخذ يستلقى الساعات الطّوال ساهمًا مفكرًا شاردًا حتى أنه فقد بعد وقت القدرة على التفكير، فإذا سأله فيم أمضيت أمسك؟ قال لك: «لا شيء»، أقوم من هنا لأقعد هناك، أو أناقش بعض الأمور مع زوجتي.

وعندما أُجريتُ اختبار صفات الشخصية لهذا الشاب، وجدت أنه أكثر انطواءً من غيره. وبالتالي فهو أكثر اضطراباً في عواطفه عن الشبان المذكورين بنسبة ٩٧%، وأكثر تراخياً أو تقاعساً عنهم بنسبة ٩٤% من ناحية القدرة على تبادل العلاقات الاجتماعية.

وأظن أن الكثيرين فى شَوْقٍ وشغفٍ إلى استبيان الطريقة التى عالجت بها هذا الشاب وكيف تغلّبت على عقده. وأنا فى هذا الكتاب الذى حاولت أن أكون فيه خفياً وجذّاباً سأعرض لك كيف نجحت فى ذلك، وليس القصد من ذلك إظهار قدرة المعالج النفسى ومهارته، أو الطريقة التى يُعالج بها طبيب مُعيّن مرضاه، بل عَرَضُ بعض ظروف الحياة التى قد تؤدّى بنا إلى الوقوع فى براثن هذه المُشكلات.

ولأئنى أعتقد، كطبيب نفسى، أن الإمام بالوسائل التى يمكن بها تجنّب أن تقع فى مهاوى الشخصيات المسوخة غير السّوية، هو أولى من معرفة تلك الطُّرق البطيئة التى قد تؤدى أحياناً إلى الشّقاء.

ولقد أذهب فى تحلىلى كما يذهب بعض الأطباء النفسيين إلى أن هذين الرجلين قد تعرّضا لحالات انهيار عصبى، بل إنى أؤكد أن هذين الرجلين عانا إهمالاً طويلاً دام سنوات من إهمال القيم الإنسانية أو الجوهرية فى الحياة. ومهما تكن أسباب ما حلّ بهما من عدم الاستواء فى الشخصية، أو المعاناة القاسية التى عاشوها ولا يزالون، حتى لو لم نغفل تأثير الوالدين والوسّط المحيط، فإن عجز هذين الشخصين عن تكوين علاقات اجتماعية وصدقات جعل حياتهم جحيماً لا يُطاق، وبمعنى آخر كانا يحصدان ما زرعّا منذ سنين.

هذه الحالات التى سردتها عَلَيْكَ أخذت تتداعى إلى مُخِيلَتى شيئاً فشيئاً، ومن ثم وجدتني أذكّر آية من آيات العهد الجديد كنت أظن نفسي نسيْتُها، فلم أكن مشغولاً بالكنيسة أو بالدين كما سبق أن ذكرت، وجدتُ الآية تقول: «مَنْ وَجَدَ حَيَاتَهُ يُضِيعُهَا، وَمَنْ أَضَاعَ حَيَاتَهُ مِنْ أَجْلِ يَجِدُهَا، فَإِنْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِ يَجِدُهَا»^(١). ولكن لِمَ أذكر هذه الآية بالذات؟

لعل هذا الاستدعاء جاء من مطابقة معنى الآية للحالتين السَّالفتي الذَّكر، وهذا أمر لا يحتاج إلى دليل، ونستطيع أن نَصِفَ الحالتين أكثر إذا قلنا إن كليهما صاحب مبدأ، وهو مبدأ الأثرة وحب الذات، أى إنجاز أى عمل يروقُ لهما وتستحسنة نفساهما، والبُعد تمام البُعد عما لا تميل إليه نفساهما، وكانت النتيجة أن أخذت القابليَّة والميل لأى عمل تخبو وتضعُف شيئاً فشيئاً حتى أتى وقتٌ فقدا فيه لذة الاستمتاع بما كان يحلُّو لهما، لأنه أضحى أمراً مريراً.

إن كلمتى «من أجلّى» فى الآية السابقة لهما معنى عميق ومعزى خاص، فهما من الوجْهة النفسية أو التفسيرية تنطقان بقيم أخلاقية عليا تدفعنا إلى أن نتنازل طواعيةً ورضا عن كل ما تطمح إليه نفوسنا، فقد تكون الرغبة فى أن نفعل فإذا بنا نصادف نصّاً ودستوراً أو مثلاً أعلى أو عقيدة نبيلة تدفعنا إلى التضحية بطموحات النفس ورغباتها، و ولُوج مسلك أقل إمتاعاً وأشدَّ وعورة^(٢).

(١) إنجيل متى ١٠ : ٣٩ و ١٦ : ٢٥ .

(٢) قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ : البقرة: ٢١٨ (المترجم)

فالزُّهدُ، أعنى تضحية الإنسان بميوله ورغباته ونزعاته الخاصة، هو بلا مرء غُرَّة الأديان السماوية، فإذا ما راعينا مبدأ الزُّهد والتَّقشُّف وتهذيب النفس وضبط إيقاع رغباتها المتزايدة فى أسلوب حياتنا، سَمَتْ نفوسنا ونقلنا الزُّهد فى رغبات النفس إلى حياة غَنِيَّة واسعة وارفة، تنبى على الارتفاع برغبة الروح، وانضباط رغبات النفس، لأن تضحية الإنسان برغباته وميوله المباشرة فى سبيل تحقيق مبدأ سام لا يجنى من ورائه فائدة، يودى فى النهاية إلى النمو المُطَرَّد لعاطفة المحبة لدى الإنسان التى تحضُّ الأديان، فتتموُّ عاطفة الحب وتزداد ميول الخير.

وإنى لأعتقد أن أهمَّ ما فى مكتشفات علم النفس الحديث هو إثباته علمياً أن سعادة الإنسان وإمكانه إدراك ماهية نفسه ومعرفة كُنْهها لن يتأتيا بغير التضحية برغبات النفس فى سبيل الغير، وتعويد المرء نفسه على الخضوع، وكبت جماح رغباتها.

فالإنسان بطبعه أنانى ينقاد وراء دوافعه المباشرة، وقد أثبتت اختبارات الصِّفَات الشخصية، والتجارب الطبية لأطباء علم النفس أن الاتجاه فى هذا الطريق يودى إلى انكماش الشخصية، واضطراب العواطف، والعُصاب، والتخبط الفكرى والشقاء وسوء النظام، وأنه لا غنى للمرء عن الدين أو ما يقوم مقامه، على أن يسمو هذا البديل الأخير عن مستوى الفرد والجماعات، ليُمكنه قَهْر تلك الدوافع الأنانية، وقَمْعها فى الإنسان العادى، ولقيادته نحو حياة أشدَّ خصباً وأوفر متعة.

ولست أنكر أن ثمة حوافز أخرى غير الدين قد تَطَبَّعُ المرء بطابعها، وتسوِّقُه إلى التضحية بسعادته التى يرفلُ فيها فى سبيل غرض سام، ولكنك

لن تجد غير الدين وحده يضمُّ بين طياته هذا المبدأ كأساس منطقي للحياة العادية الهائلة .

كان إدراكي لهذه الحقيقة - بعد فوات الأوان - هو السبب في عودتي إلى التردد على الكنيسة التي أذهب إليها - ولا مانع هنا من التكرار - لأن ذهابي معناه طرح رغباتي وميولي جانباً حتى أفعل ما لا أستسيغه، وأؤدي من الواجبات ما تمجُّه نفسي . وأخيراً فإنني قد آمنتُ بالله عندما اكتشفت أن البشر عاجزون عن إدراك مدى أهميته الكامنة إذا لم يؤمنوا بقوة تفوقهم وتعلوهم وتتجاوزهم .

الفصل الثالث

سبيل السعادة

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة : ١٠٥)

وفى الإنجيل : «أجاب يسوع، وقال له الحق الحق أقول لك إن كان أحدٌ لا يولد من فوق، لا يقدر أن يرى ملكوت الله» (يوحنا ٣: ٣)

وقال : «الروح هو الذى يُحيى، أما الجسد فلا يفيد شيئاً» (يوحنا ٦: ٦٣)

سوف أنطلق فى هذا الفصل من طائفة الملاحظات التى سجلتها عن أحد الزائرين، والتى أغرّتنى حال مغادرته للمكان بمعاودة النظر فيها بالرغم من تدوينى لها فى سجلّى الخاص. لكننى اكتشفتُ فى هذا الشخص المثلّ الأعلى للإنسان المنضبط سلوكياً وأخلاقياً، هو حقاً مثال للبطل المجهول، وأقصد به الإنسان الذى يصارعُ فى ميدانى الانضباط العقلى والسّلامة الأخلاقية.

وقد تعجب إذا صرّحتُ لك بدءاً بأن هذا الرجل كان عاطلاً، فضلاً عن أنه غير موفور الذكاء، إلى جانب قلة فى الوَسامة والأناقة، وكذلك

غير ناجح من الوجهة الاجتماعية. وحالته المادية ليست متعسّرة وليست متيسّرة، أى لم يدّخر أكثر من بضعة مئات من الدولارات فى أحد المصارف، وبالرغم من هذه الصفات التى ذكرتها، فإن هذا الرجل حائزٌ لمجموعة من العادات والعقائد التى لا تفسّر سرّ طمأنينته فحسب، بل تُعتبر ضماناً لسعادته المُقبلة. وهى كالآتى :

السّن: ثمانى وعشرون سنة، متزوج منذ عامين .

الأولاد: له طفل عمره ستة أشهر .

المظهر: لا بأس به .

التعليم: قضى بالجامعة سنة كانت نتيجته فيها جيّدة .

المواد المُحبّبة إلى نفسه: الرياضيات والرسم والطبيعة .

المذهب الدينى: كاثوليكي وعضو بالكنيسة، حرٌّ فى عقائده، شديد التمييز

بين الحق والباطل .

الوظيفة: عاطل، اشتغل كاتباً للحسابات ثلاث سنوات، ثم مديراً لمحل

بدال مدة أربع سنوات، ويأمل فى الاشتغال بالأعمال الهندسية .

الألعاب التى يميل إليها : البيسبول، وكرة السلة والمسابقات والرقص

ولعب الورق .

الأندية والنشاط الاجتماعى: مشترك بنادى الاتحاد الاجتماعى، ونادى

الكنيسة وعضو بفريق الرماية .

شخصيته: أظهر اختبار برونر ويتّر لقياس صفات الشخصية أنه شخصية

منبسطة، متّزن الانفعال والعاطفة، وأن اكتفائه الذاتى ونضوجه الاجتماعى

فوق المتوسط .

والحقيقة التى أودُّ التصريح بها هى أن إعجابى بهذا الرجل ليس مثاره
إجاداته لأشياء لا أستطيع القيام بها، فمثلاً تميّزه و دقته فى التصويب
بالبنديقية وأنى لا أستطيع ذلك، أو لأنه بابوى المذهب وأنا لست كذلك،
إن سبب إعجابى بهذا الرجل حقاً إنما يرجع إلى توافر عدد كبير من أوجه
النشاط الاجتماعى، التى يقوم بها ويشارك فيها، إن هذا الأمر جعلنى أرى
فيه المثل الأعلى للرجل المُتزن.

ولعلك تذكر الرجلين السابقين اللذين تحدّثنا عنهما فى الفصل السابق،
والحقيقة أن المقارنة بين هذا الرجل وهذين الرجلين، تكشف عن مجموعة
الحقائق الآتية: أن الرجلين يشتغلان فى حين أن هذا الرجل متعطّل عن
العمل، وبالرغم من ذلك فهما شقيان ومضطربة انفعالاتهما، أما هو
فسعيد مُتزن، بالرغم أيضاً من قلقه المستمر ورغبته فى الحصول على
وظيفة. وهما أيضاً لا يثقان فى نفسيهما، وبالتالي لا يثقان فى المحيطين
بهما، ومن ثم أيضاً لا يثقان فى العالم كله، أما هو فممتلئ ثقة بنفسه
وبمن حوله بالرغم من الظروف العصيبة التى أحاطت به إبان فترة البطالة،
وتدلّنا المقارنة أيضاً على أنهما يفتقدان إلى الإيمان ببعض العقائد الدينية،
بالإضافة إلى افتقارهما إلى معرفة قيم الحياة؛ لأنهما كانا مُنساقين مع تيار
منطقهما الفوضوى والذاتى، أما هو فقد كان مرتبطاً مع العالم برباط عميق
وهو مطمئن النفس ثابت الجنان، كما كان مرتبطاً دينياً بالكنيسة.

والسؤال الآن: كيف تحقّقت السعادة لرجل لم يُحقّق من مطامحه إلا
النّزr اليسير وبين رجلين بلغا مُرادهما وحققا ما رغبا فيه، ويفوقانه معرفة
وذكاء بالرغم من أنهما لم يظفّرا من نشوة السعادة شيئاً؟

إن الإجابة العلمية عن هذا السؤال ومن وجهة نظر طبيب نفساني تكمن في أن كلا الرجلين ذو شخصية مُنكَمشة أو طبيعة مُنطوية، أما هو (الأخر) فذو شخصية مُنبسطة، نَمَى في نفسه عددًا من العادات والالتزامات المهذبة المُسايِرة لمجريات الحياة. وبأسلوب آخر، فإن الأولين نَميًا لديهما عادات الأثرة والأنانية وحب الذات، أما الثاني فقد نَمَى في نفسه - وعلى النقيض منهما - عادات الإيثار والعطاء وإنكار الذات.

لكنني الآن سأستمر وأستمح القارئ عذرًا في أن أوضح معنى كلمتي منطوي ومنبسط واللذان يستخدمهما الناس كثيرًا بتخبط في المعنى والدلالة، والواقع أن كليهما مقياس للأنانية، أعنى الأنانية المُتطرفة في حالة الانطواء، والأنانية البسيطة في حالة الانبساط؛ فالمنطوي أو الأناني يتحاشى مقابلة الناس، أما المنبسط فيذهب بنفسه إلى مقابلتهم، والتعرف إليهم، والمنطوي أو الأناني أيضًا يتهرب من التزامات الجمعيات والأندية ومطالبهما، أما المنبسط الاجتماعي فيتقبل ذلك بصدر رحب، وقد يُفكر المنطوي في القيام بعمل طيب، ولكن المنبسط يقوم بإتيان هذا بالفعل. وقد يتعلّل الأول في عدم إتيان الفعل بالكثير من التبريرات مثل ضيق الوقت، أى أنه لا يجد الوقت الكافي لعمل ما لا يحبه، في حين أن الثاني يتلمس الدقائق الخالية حتى يقوم بأداء ما يحب.

كذلك يحجم الشخص الأناني وغير المنبسط أو الفردى عن أداء الفعل خوفًا من ارتكاب الخطأ وبالتالي يفرغ من إرباك نفسه، فلا يُقدّم على أية مجازفة، لكن الاجتماعي، ولو أنه يخشى الخطأ إلا أنه يعمل بمشابة فيخطئ ويتعلّم ويقاسى ويمارس، لكنه يكتسب في النهاية المهارة فيما يمارسه، وتتولّد فيه الثقة بالنفس.

وانطلاقاً من التعريفين السابقين لمعنى الانطواء والانبساط كنت أقول لمرضاى : إنه من الأفضل أن يرتكبوا سبعة أخطاء بدلاً من أن يرتكبوا خطأ واحداً. فبينما يتردد الشخص الفردى قبل أن يمضى فى مشروع ما لشدة شعوره بنقصه، تجد الآخر غير مُبالٍ بارتكاب الأخطاء؛ لأنه يوقن تمام اليقين أنه لن يصل إلى المجد والرفعة إلا من خلال سلوك هذا الطريق، أما المنظوى فعندما يُفكر فى القيام بعمل ما أو فى تجاوزه، فإن ذلك يرجع إلى ما سيعود عليه شخصياً، أما المنبسط فينظر إلى ما سيعود على والديه أو أصدقائه أو معارفه.

والانطوائى يقرأ عن الحب والمغامرات، والثانى يَسعى إليهما، والفردى أيضاً شديد النقد لأصدقائه، ولا يفتأ يُنقَب عن ماضيهم، والاجتماعى يعمل على اكتساب أصدقاء جدد، ومن ثمّ مضاعفة خبرته وتجاربه، وفى حين يبدو صاحب التفكير الأول بلون قاتم فى تفكيره ومن ثم تبدو الحياة فى عينيه سقيمة مُملّة، يبدو صاحب التفكير مُتجدّداً فى أفكاره، حيث تحمل هذه الأفكار لوناً من الطزاجة والسكون.

ويلجأ المنظوى إلى أحلام اليقظة ليحقق ما يرجوه فى حلمه، ومحاولة أيضاً للفرار من حقائق الحياة المُرّة والعيش فى عالم من نسج خياله، حتى إذا واجهته ظروف الحياة الضرورية بإرغامها تخاذل وتألّم وشرع يشكو ضَعفه، وعدم استعداده للصمود أمام هذه الظروف ومواجهة الحقائق.

والصورة السابقة التى رسمتها لنمطين من الشخصيات وهما ما أسميتهما بالشخصية الانبساطية والشخصية الانطوائية أو (الاجتماعية والفردية) قد تنطبق على البعض، وقد لا تنطبق على البعض الآخر،

والذى أستطيع أن أؤكد عليه هو أن هناك صفات تنطبق تمام الانطباق، لكنى أؤكد أيضاً أن الأغلبية ليست هى بالمنطوية ^(١) كُلية ولا هى بالمنبسطة كُلية، وبمعنى آخر لا تتّصف بالأنانية المطلقة ولا بإنكار الذات الكامل.

والحقيقة أن صفتى الانطواء والانبساط واقعتان تحت سيطرة المرء بلا شك، إذ إن الإنسان يملك القدرة فى أن يكون غير ذلك، ويعنى هذا أن سعادة الأفراد ومدى نجاحهم فى المستقبل يتوقّف على الكيفية التى يواجهون بها الصّعاب، وكذلك الطريقة التى يتّبعونها للتسامى على مرّ الزمان. إن الشخصيات التى تتّصف بمثل هذه الصفات قد تواجه نفسها بسؤال مهم وخطير، وهو: ترى كيف سأبدو بعد عشر سنوات من الآن؟ هل سأكون أشدّ انطواء أم أشدّ انبساطاً؟

إن بعض الناس يصلون إلى بناء شخصية مُنبسطة وسوية، وذلك عن طريق تنمية مجموعة من العادات المُتّزنة منذ الطفولة، وتُثمر هذه الطريقة نتائج باهرة يظهر أثرها على الشخصية حتى تصل إلى مقام رفيع بعد ذلك فى ساعات حياته، ولا أعنى بالرفعة هنا المنصب المتميّز الذى قد يُسند إليه أو يمتّنه، ولكن أعنى أن يكون الفرد عضواً سعيداً ونافعاً فى مجتمعه، وعلى النقيض من ذلك يخفق بعض الناس فى الوصول إلى شخصية انبساطية تتمتع بعاداتها المتوازنة السوية فى صِغَرِهِمْ، ومن ثم ينضوى هؤلاء الصغار كباراً وشباباً تحت خيمة الانطواء المضروبة عليهم وهم فى سن العشرين أو الثلاثين، وإن كان من الجائز أن ينالوا بُغيتهم فيما بعد، إذا أفلح الواحد منهم فى إجادة مهنة تضطره إلى مخالطة الناس، ومن ثم ترَفُّعه إلى مصاف الاجتماعيين.

. ambivert (١)

وقد صادفتُ - بحُكم مهنتي - الكثير من الفنانين والموسيقيين، ومحترفي بعض المهن ممن كانوا على درجة كبيرة من الانطواء، وإذا بهم ينقلبون أشدّ انبساطاً من الإنسان العادى لسبب بسيط، هو تركيز جهودهم كلّها فى سبيل اكتساب المهارة اللازمة لإتقان حرفتهم، فإذا حقّقوا هذه المهارة أحرّزوا بأنفسهم، وبقدّرتهم على اجتياز العقبات بما اكتسبوه من قُدرة وموهبة، فإذا هم يتسابقون فى تيار اجتماعى أقوى مما اعتادوه.

ويميل البعض إلى القول بأن الشخص الفردى يكون أشدّ استجابة وأرهف حسّاً لكل ما هو دقيق رقيق من قيم الحياة بعكس الاجتماعى، وأن معظم التخيّلات والأحلام وأضخم الأفكار الذهنية وأسلم النجاحات الفنية يأتيتها الفريق الأول أكثر مما يأتيتها الثانى، والواقع أن هذا الادّعاء ليس له ما يؤيده علمياً، بل إن العلم الحديث يُثبت ما هو نقيض ذلك، ويمكن التّدليل على ذلك من خلال اختبارات قياس صفات الشخصية لحوالى ثلاثين فناناً من الفنانين البارزين والمتوسّطى الشهرة، فاتّضح لى أنهم جميعاً أشدّ انبساطاً من المستوى العادى للجماهير. فنحن غالباً ما نسمع أن الفنان ذو عاطفة مضطربة، وأنه يصبح أسيراً لفوّرات عصبية بين آن وآخر، ولكن الاختبار أثبت عكس ذلك؛ فالفنان الناجح أكثر توازناً فى انفعالاته وعاطفته من معظم الناس.

ومن الواضح أن الموسيقى الذى يبذل ست ساعات من وقته يومياً فى التّدريب، وإجادة عزف أنغامه حتى تتسّق مع بقية فرقته، لتتساب فى آذان المستمعين، ثم يمضى فى كفاحه، حتى أمام التّهيّط والسخرية اللاذعة، لا بد أن يكون أشدّ انبساطاً من المستوى العادى، حائزاً لعادات الاتزان الانفعالى.

أما الفنان الذى يؤثر الانطواء فهو عادة فنان مُخْفَق، ليس لديه استعداد كى يضْحَى بِلذَّاته ودوافعه الغريزية فى سبيل مجد يحاول أن يبلغه، لكن هذا الأمر الذى يطمح إليه لا يأتيه إلا عن طريق التدريب والمران الطويل، وخَوْض ميدان المنافسة المُرة والشديدة، ومثل هؤلاء تبقى أحلامهم ومطامحهم حبيسة أدراجهم، وأنهم ادّخروا نفوسهم بعيداً عن حركية الحياة وأنماط الممارسة والتجريب، فلا هم يُحسنون إلى أنفسهم ولا إلى غيرهم. والذى أستطيع أن أؤكد عليه أن فعالية الشخصية وحيويتها لن تتأتى إلا لمن كان مُتزناً عاطفياً وانفعالياً، بالإضافة إلى تمتعه بمجموعة من العادات الطيبة، وأستطيع أيضاً أن أضرب لك مثلاً، فقد جاءنى والدان بابهما الذى كان يدرس الهندسة ويجد فيها صعوبة، وعليه قمتُ بإجراء اختبارات الذكاء له والتي أثبتتُ لديه تَفَوُّقاً يفوق الحد الذى يتطلبه معهده، وبالتعمق فى مناقشة الصبى اتضح لى أنه يعانى مشقة كبرى فى مسابقة بقية زملاءه فى «جماعة الإخاء» التى تمَّ انتخابه فيها أخيراً، وأنه يُفكر جدياً فى الانسحاب منها.

ويسأله عن مدى مشاركته الإيجابية مع أصدقاء فى الجماعة ومدى نشاط إخوانه أيضاً فى الجماعة، كانت الإجابة أن نشاط البعض فى الجماعة غير مقبول ولا مستساغ، أما البعض الآخر فلا غبار على نشاطهم. وفهمتُ من خلال محاورتى معه أيضاً أنه يحب لُعبتى البُنْج بُنْج والبريدج، وهما أيضاً أحبّ الألعاب إلى قلوب الجماعة التى ينتمى إليها.

وسألته: «إذا طلب إخوانك إليك الاشتراك معهم فى لعبة البُنْج بُنْج فِيمَ

تجيبهم؟»

قال: «ألتبس لنفسي العذر بأنى لاعب غير ماهر.»

ثم إنه تبع هذا التصريح بقوله غاضباً: «فأنا لا أحذق شيئاً.»

واتضح لى أيضاً أنه كان يعود فى الحال إلى غرفته بالمنزل، ثم يُقبل على استذكار دروسه بشغفٍ ونَهَمٍ، وبعد حَصْرَ ذهنه وتركيزه بضع دقائق فيما يُطالعه، يفكرُ فجأةً فى لعبة الينج پنج، وكيف أنه غير ماهر فى ممارستها، وسخف الطريقة التى رفض بها دعوة زملائه للعبة، ثم يفكرُ فى حرج مركزه لو كان قد لبى الدعوة، ثم يفكرُ فى الوقت السعيد الذى كان يمكن أن يقضيه إخوانه فى مزاولة اللعب، ثم يحاول أن يعود بتفكيره مرة أخرى إلى ما يستذكره، لكن صدى ضحكات الأصدقاء واللاعبين لا يلبث أن يعاوده، فيشرع فى التماس الأعذار لنفسه بسبب تقصيره ورفضه، وبين رغبته فى أن يُقدِّم ويتجاوب مع الأصدقاء، وبين قراره بعدم المشاركة، ثم تَلَمَّسُ الأعذار، تكون الصعوبة فى حصر الانتباه، فلا يتمُّ فى ساعة كاملة من المدارس ما يحققه فى خمس عشرة دقيقة لو تهيأت لديه قوى التحصيل والتركيز والانتباه.

وبعد أن أوضحتُ له ملابسات حالته جيداً، كان ردُّه بأن هذه هى حالته بكل تأكيد، ثم سألتى النصيحة، فقلتُ له: «العب لعبة الينج پنج ولا ضرورة لكى تكون ماهراً فيها. وعندما يحدث هذا اختر خيرة اللاعبين إذا سألوك الانضمام إليهم، واختر لك أيضاً لاعباً ضعيفاً فى حالة ألا يسألك اللاعبون المَهرة المُنازلة. واعقد يا بنى العزم على أن تتحمل وتقاسى مهما يحدث، العب دائماً ولن يمضى وقت طويل حتى تكتشف أنت بذاتك مَنْ هو أضعف منك قُدرة، وستجد نفسك فيما بعد، قد فُزْتَ أكثر

من مرةً على أكثر من لاعب ماهر، ثم ستلمس بعد وقت ما فى هذا اللّعب من مُتعة ولذّة، وستعود إلى دراستك بقوة تركيز عالية؛ لأنك لن تلجأ إلى تلمّس الأعداء للنفس التى أبّت عليك أن تتمتع بالمشاركة واللعب، ومن ثم تقضى على قوة تركيزك أيضاً بتلمّس الأعداء، فبعد أن تبذل مجهودك فى نشاط اجتماعى ما تُشبع فيه بعض رغباتك، لن تجد ما يحول دون إجادة ما تقوم به بعدئذ من واجبات. ولعبة الپنج بُنِج فى حدّ ذاتها رُكنٌ تافه من أركان الحياة فى الكلية، إلا أن التعليم الجامعى والتحصيل يبقى هو الأهم؛ إذ لا تعدل التعليم الجامعى أى مَسرة من مسرات الحياة.

ومع أن هذا الفتى لم يحصل على درجات عالية فى مسيرته الدراسية إلا أننى نصحتُه بأن يُقلّل من الاستذكار ويكثر من اللّعب؛ لأن إخفاقه فى تكوين العادات الاجتماعية أثر على تحصيله الدراسى، ومن ثم فهو فى حاجة إلى إجادة بعض الألعاب الرياضية لمجابهة مطالب البيئة، التى يعيش فيها حتى يقوى على حصر انتباهه الحاد فى دراسته.

وكان فى مقدور هذا الفتى أن ينسحب من جماعته وينعزل بعيداً مع بعض الطلبة أمثاله، ولا غرو فإن أسرع الوسائل وأسهلها للتخلّص من أى صراع عاطفى هو تجنّب مُسبباته، كما يرى هذا الشاب ومن هم على شاكلته، أى الانسحاب أمام حقائق الحياة، وأن يحصر المرء نفسه فى دائرة ضيقة يقيمها حول نفسه، وفى هذا الأمر مُجانبة للصواب، ومثل هذا الحل لا يعدو إلا أن يكون حلاً مؤقتاً، ولن يؤدى إلا إلى حصر الفتى فى إطار نفسه الضيقة ومن ثم انكماشه واضطرابه، ومثل هذا الإجراء هو الذى يؤدى أيضاً فى النهاية إلى انطواء يؤدى إلى استمراره فى النهاية إلى ثورات

عيفة عُنف البُركان الثائر، فلم يكن لدى هذا الفتى إلا قدر يسير من مميزات الانبساطية، كما كان اضطرابه العاطفى شديداً، وإن كان قد شرع أخيراً يواجه الحياة، ويكوّن العادات التى تساعده على اجتيازها بنجاح.

وأظننى قد وُفِّقْتُ إلى حدٍّ ما فى تفسير نظرية الانطواء والاضطراب العاطفى والانفعالى لهذا الفتى، الأمر الذى يسمح لى بالتمثيل والتشبيه الحسى المأخوذ من نمط ممارسته ودراسته، فإن مثل هذا الطالب الذى يدرس فى كلية الهندسة، مثاله يجرى فى تشبيه ميكانيكى بسيط، فإذا كانت العادات المختلفة اللازمة لإشباع رغبات الإنسان تستهلك الطاقة النّاجمة من الجسد البشرى. مطرد الانتظام، فقد كان الإنسان داخل هذا الفتى مُمتدّاً الشخصية منبسّطاً، وبالتالي هادئاً ثابت الانفعال مُترنّ العاطفة، حتى إذا افتقر إلى عاداته المهمة والضرورية، كان كمثّل مُحرك سياره يدور بسرعة برغم أن السيارة نفسها ثابتة لا تتحرك، إما لأن الطاقة الآلية لم تنتقل من المُحرك خلال صندوق تروس السرعة إلى عجلاتها، وإما لأن تعشيق التروس نفسها داخل الصندوق مُختل. حقيقةً، إن المُحرك جاد فى السير والدوران، لكنه جهدٌ ضائع؛ لأن السيارة لم تتحرك قيد أنملة فى الحالة الأولى، وإذا سارت فى الحالة الثانية فإنها تخطو متعثرة.

والحقيقة أن اللحظات الانفعالية هذه التى كانت تطرأ على الفتى لا يخلو منها أى إنسان، فكلّنا يفعل من وقت لآخر، فإذا صادفت أن قابلت إنساناً لا تعرفه فلربما ترتفع داخلك حالتك الانفعالية، وربما لن تعرف ماذا تقول له، وربما تقول له ما لا يصحّ أن تقوله، وقد يتصاعد الدم إلى وجهك فتشعر بالارتباك والتلعثم، تلك حالات قد تصادفنا جميعاً؛ لأن ذلك يعدُّ من وجهة نظر علماء النفس فائضاً من الطاقة التى لم تُستنفد، أو

من الطاقة التي أُسيء استهلاكها. وكل فرد عادى عُرضة لمثل هذه التهيّجات الانفعالية التي تُعين الإنسان وتساعد، لأنها تُنبّههُ إلى إنماء عادات أفضل، أو اكتساب مهارات أعلى. وهذا القلق الانفعالي الضار لن يكون بمثل هذا الوصف إلا إذا أذعن المرء للهزيمة، وتوقّف عن إعادة الكرّة والمحاولة مُتْنى وثلاث. وحيثُئذ يعجزُ عن اكتساب المهارة اللازمة لمجابهة مواقف الحياة المتباينة، وتوليد العادات الضرورية لمواجهتها.

ومن الحقائق العلمية أن هذه الطاقة الزائدة ليستْ هي وحدها السبب في الاختلال العصبي، أو الهياج الانفعالي، أو القلق الزائد، أو انقباض النفس، ولكنها أكثرها شيوعاً. وقليلون هم الذين يُعانون الاستهلاك المتزايد لطاقتهم، ولكن أغلبية الناس هي التي تعاني الطاقة الفائضة التي تبقى دون أن يُفصحَ عنها إطلاقاً، أو يُفصحَ عنها بأساليب شاذة، حيث إن الشخص الأناني هو الذي يقيم حول طاقته سياجاً يُخزنها فيه ويحبسها داخله، فتكون النتيجة أن يشكو من تفاقمها، أما الشخص المُنبسط غير الأناني فيستنفد طاقته عن سعة في اتجاهات متعددة، وبذلك لا يُوفر غير فائض ضئيل من طاقته ليعالج به ضجره وتبرُّمه.

ولعل أحد المبادئ التي اختلف الناس في تفسيرها هو ذلك النص الذي ورد بالعهد الجديد: «الحق الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله. قال له نيقوديموس^(١) كيف يمكن الإنسان أن يولد وهو شيخ؟ أ لعله يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية ويُولد؟ أجاب يسوع: الحق الحق أقول لك: إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر

(١) نيقوديموس رئيس اليهود. (الترجم)

أن يدخل ملكوت الله. المولود من الجسدِ جسدٌ هو، والمولود من الروح هو روح. لا تتعجب أنى قلتُ لك: ينبغي أن تُولَدُوا من فوق. الريح تهبُّ حيث تشاء، وتسمع صوتهَا، لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب. هكذا كلٌّ من وُلد من الروح.^(١)»

فنظرية المَعصية الأولى الأصلية^(٢) والتأكيد ببعث الفرد مرة أخرى، كانا دائماً مما يُحيرُّ الألباب. وقد أُلقت الدراسات النفسية الضوء على هذه النظرية، ورأت أن الاستفادة من هذه النظرية إنما تتأتى عن طريق بعث أنفسنا من جديد ما دام الفرد من هذه الوجهة الإيمانية، يُبعث مرة ثانية، نحن دائماً نُولد منطويين أنانيّين غملي نحو نفوسنا، غير أننا لن نصير مُنْبسطين فى غير أنانية إلا بمواصلة بعث أنفسنا من جديد، أعنى البعث الشاق للعادات والصفات الشخصية الجديدة. فنحن فى سِنِي الطفولة المبكرة تلاحقنا دائماً توجيهات الوالدين، وبدون أن نشعر نكتسب عادات كثيرة، أما بعد ذلك وبعد أن تتقدّم بنا السّن فلن يمكننا أن نكتسب عادات جديدة أو حتى نغيّر من عاداتنا الموروثة إلا بِشِقِّ الأنفس.

فنحن نولد وبداخلنا حُرْمة من الطاقة غير المنظّمة، كمثّل آلة مولّدة للقوى، وتحوى أيضاً كمية هائلة من القوى غير المستخدمة، فنحن نأكل وننام ونخزن الطاقة المتولّدة فينا فى مراحل الطفولة، ولا نملك مع ذلك

(١) إنجيل يوحنا ٣ : ٣-٨ .

(٢) خطيئة آدم ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿ البقرة: ٣٥، ٣٦، ٣٧. (المترجم)

طريقة يمكننا بها أن نحول هذه الطاقة المُخزَّنة إلى أعمال نافعة، وفي ممارستنا مع أطفال من وجهة النظر هذه تجدنا نقوم بتلبية كل رغبات أطفالنا، لأنه عاجزٌ عن أن يؤدّي لنفسه عملاً، فهو يلوحُ بذراعيه ولكنه لا يتحكّم فيهما، ويلوى جسمه ويثنيه، ولكن لا يخطو خطوة واحدة، ويحرك عينيه وإن كان لا يستطيع تثبيتهما على شيء، كل ذلك والطاقة مُخزَّنة بداخله، لكنه بالتدريج يكتسب عادة القبض على الأشياء والإمساك بها وتثبيت عينيه عليها، ثم يتعلم أن يزحف ثم يسير ثم يتكلم ثم يعدو ويأكل ويرتدى ثيابه بنفسه، ويذهب إلى المدرسة ويقرأ ويكتب إلى آخره، كل هذه تُمثّل نماذج من العادات التي يتمكّن الطفل بها أن يحوّل تدريجياً طاقته الطبيعية مثل وجبات طعامه الثلاث ونوم الليل إلى أعمال تستنفد طاقته، والعمليات السابقة هذه من وجهة نظر علم النفس تعتبر «ألف باء» عملية الانبساط أو امتداد الشخصية.

فالطفل يجيد عادة تناول الطعام بالشوكة والسكين إجادة تؤهّله لأن يشارك غيره في غطّ تشاركي إيجابى ناجح، لكن هذه المشاركة مرهونة بست سنوات من التدريب الشاق والمتواصل من توجيهات الوالدين ومحاولات الطفل لنفسه فى ضبط حركية الأدوات بين يديه.

ومن المحتمل أيضاً أن يتعلم - تعزيزاً للعملية الانبساطية التى تنشأ بداخلنا بدءاً - قول: «من فضلك. وأشكرك» فى فترة قد تكون وجيزة بالنسبة لتدريبه على كيفية الأكل بالشوكة والسكين.

وبمرور الزمن أيضاً يكتسب الطفل إلى جانب المثلين السابقين عادات تُمكنه من مخالطة غيره من الأطفال، وتجنّب المشاجرات وكسب الأصدقاء

والمعارف، ثم يتعلَّم كيف يقضى وقته، وكيف يلعب إحدى الألعاب، وغالبًا ما تكون هذه الألعاب مرتبطة بالتسلية والمسابقات، وقد يكتسب أيضًا عادة أداء واجباته المدرسية وزيارة الأصدقاء ودعوتهم إلى منزله والتوجُّه إلى بيت الله، وقد يُنمى فى نفسه هواية ما، كعادة جمع الطوابع أو العزف على إحدى الآلات الموسيقية.

كل هذه العادات ومثلات غيرها هى الطريق إلى بناء الشخصية الانبساطية، وهى الطريقة نفسها التى تحوّل الطاقة المخزونة داخل أطفالنا إلى نشاط خارجى يضبط علاقات الطفل مع غيره فى هذا العالم المُطرَد النمو، فهو ينتقلُ من صدر الأم الذى ارتبط معه لوقت غير قصير، ثم هو ينتقل إلى محيط الوالدين والأسرة، مقيدٌ فى حياته بطائفة كبرى من اللوائح الإرشادية والتحذيرية مثل «افعلْ هذا .. ولا تفعلْ ذاك»، ثم علاقاته مع الضيوف ومشاجراته مع أطفال الجيران، ثم المدرسة، والمدينة، إلى مملكة الكتب، ثم السينما والراديو، ثم إلى ميدان آخر من النشاط والسلوك الانبساطى فى الألعاب والمباريات، إلى الصّلات الاجتماعية على وجه العموم، ثم إلى الجامعة والوظيفة والزّمانة والزواج ومسئولية الأسرة، فكل هذه الآلاف من العادات التى نَمّاها المرءُ لمقابلة هذه المواقف، والظروف التى تُمثّل عملية الانبساط أو بمعنى آخر عملية البعث الجديد، كما سبق أن أشرنا إليها وعلّقنا عليها بنصوص من الكتاب المقدس^(١).

ولعلك، عزيزى القارئ، تذكر الشاب الذى بدأت به فصلى، والذى اعتبرته مثلاً أعلى من وجهة نظرى، فلقد اكتسب هذا الشاب مجموعة

(١) تنبى الإشارة إلى أن المترجم ربط القول السابق بقوله تعالى «وَقُلْنَا التَّوَابُ الرَّجِيمُ» البقرة:

٣٥، ٣٦، ٣٧. (المترجم)

شاملة من العادات التى تصلح لأن يتفاعل من خلالها مع المواقف المختلفة، وهو فى الحقيقة لم يكتسب هذه العادات أو هذه البراعة بدون تضحية، وإرغام النفس على فعل ما لا يَسْتَهْوِيها، فمثلاً كانت نفسه تُزَيِّنُ له أن يمسك بكتاب ويُطالع ما فيه فالقراءة مُتعة، وهو يحس برغبة قوية تدفعه إلى البقاء فى بيته للقراءة، لكنه يتوجّه برغم ذلك إلى النادى لأنها ليلة النادى الأسبوعية، وكثيراً ما كان يتحرّق شوقاً إلى الذهاب إلى السينما، وما إن يدعوه أحد أصدقائه ليلعبه البريدج حتى يُلَبِّى دعوته ضارباً برغبته فى الذهاب إلى السينما عُرْض الحائط. وكثيراً ما يكون فى أشدّ الحاجة إلى الحديث مع بعض أصحابه فى شأن من الشئون، ولكنه يذهب إلى التدريب ليقضى ساعة أو بعض ساعة فى تمرين شاق مُجهد فى ألعاب كرة السلة أو الهوكى.

إن معظم أوجه النشاط التى يتمتع بها هذا الشاب الآن كانت فى بدايتها مصدراً من مصادر الضيق والتّبرم، لأنه لم يكن يُجيدُها أو كانت ضد رغبات النفس.

كان هذا الشاب يتحرك وفق نظم اجتماعية ودينية يحياها ويحب أن يعيش بها، قيم تحرفه بعيداً عن التمتع بلذاته وهواياته وأهدافه. فقد أجباني يوماً ما عندما سألته عن سبب عدم إتمامه التعليم الجامعى، فقال إن السبب يكمن فى إحساسه بالعبء، الذى يقع على الوالدين مادياً؛ إذ إنهما فى حاجة إلى عمله لا إلى عِلْمِهِ، ولما سألته أيضاً إن كان يَأْسُ المشاركة الدينية، ويحب أن يُلْقَى دروس الآحاد، جاءت إجابته بالموافقة، لكنه انطلق فى مقارنة جميلة حال قوله: لكنه يحب اللعب مع الأطفال أكثر،

إنه يجد مشقةً فى تحضير الدروس والاستيقاظ مبكراً صباح الأحد، ولذلك قلَّ هذا النشاط عنده وربما اندثر.

أما المنطوى فقد درج فى حياته على أساس عكسى مضاد للمُنْبَسِط، وأعنى بذلك أنه درَجَ على أن يعبرَ عن ذاته فقط. فهو لا يعمل إلا ما يحلو له، ويوافق فى تصرفه رغبات النفس وما تُمليه عليه، ولذلك نراه عاجزاً عن اكتساب العادات، التى تؤدى إلى البراعة فى معاملة الناس، وتراه لا يُرضى غير نفسه أولاً حيث يوفّر كل طاقاته فى سبيل نفسه فحسب، وبهذا يخفق فى محاولته تعلّم كيفية منح الغير بعض نفسه ووقته، فإذا هذه الطاقة تغمّره ومن ثم تقضى عليه، ثم يكتشف أن مطاوعته لنفسه، وعمل ما يروقها فقط، ومحاولة تكييف حياته وفق نهجه أسلوبه الخاص لا تقوده إلى النجاح المنشود، ومن ثم يسيطر عليه الشعور بالعزلة والانفراد، ويرى نفسه وقد انزلت فى جحيم انفعالى شديد. لكنه فى محاولته ليُكيّف حياته على نهج الخاص به يفقد ما فى هذه الحياة من بهجة وسعادة وهناء، فلقد عاش مع نفسه فقط، لذلك فهو حبيس رغبات النفس وشهواتها.

وبعد هذا العرض الموجز نستطيع القول بأن التّمادى فى هذه المهارة وذاك النشاط - أعنى المبالغة فى الانبساط - له خطره هو الآخر، ومع ذلك فخطر التّطرف فى الانبساط هو أشدُّ هوناً وأقلَّ أثراً من الإغراق فى الانطواء، لأن الانبساط هو نتيجة الحياة الزاخرة بالتجارب والنشاط، أما الانطواء فهو نتيجة تجنّب النشاط وندرة التجارب.

وبناء على ذلك فالشخص المُنبسط هو الذى يُقاسى الكثير فى مبدأ الأمر، أما المنطوى فهو من يعانى فى النهاية.

إن المسيح عيسى عليه السلام، الذى مثَّل لنا الحياة الخالية من الأنانية خير تمثيل لهو المثل الأعلى لإنكار الذات. فقد كان منبسطاً إلى حدٍّ لا يمكن لغيره بلوغه، وكان مثلاً فذاً فى حُسْن علاقاته الاجتماعية، فلم يتردد فى قبول الماء من المرأة الواقفة إلى جوار البئر عندما علم أنها سامرية^(١)، ولم يُحْجَم عن تبادل الحديث معها لأنها جاهلة لا تفهم لغته، ولم يقصر اهتمامه على مَنْ يؤمنون به فحسب، بل كان لا يتورَّع عن الحديث مع أى مخلوق سواء أ كان زكَّاءً رئيس العَشَّارين، أم نيقوديموس رئيس اليهود أو أحد الفريسيين^(٢) ولم يتعال عن مخاطبة الكسيح والكفيف والمُشَوَّه وبائع الخمر والغارقين فى الخطيئة. لقد كان للخير أسبق من غيره فلم يكن ينتظر حتى يدعوه الناس، بل كان يسبقهم فيدعوهم.

وقبل أن يبعث بتلاميذه وحواريه إلى أنحاء المعمورة حاملين رسالته شرع يُدرِّبهم على كيفية التقرب من الناس، فأوصاهم بالرفقة والوداعة وإن كان قد أمرهم بالإقدام بجرأة على فعل الخير. وبالرغم من أنه كان يطمع فى الوصول بالبشر إلى أعلى مراتب الحياة، إلا أن حياته الخاصة كانت فى الواقع مجموعة من الصَّلَات الاجتماعية المتينة الشاملة. فبينما كان يحاول أن يحثَّ الناس على صالح الأعمال، كان أشدَّ إدراكاً من تلاميذه لمطالب الناس المادية، وكان سريع الفهم والتقدير لوجهة نظر الغير مع احتفاظه برأيه الخاص، فلم يُزعِجْه اعتداء الأطفال عليه، ولم يُزعِزْ كيانه ضغط

(١) «فجاءت امرأة من السامرة لتسقى ماء، فقال لها يسوع: أعطيني لأشرب... فقالت له المرأة السامرية: كيف تطلب مني لتشرب، وأنت يهودي وأنا امرأة سامرية؟ لأن اليهود لا يعاملون السامريين» يوحنا (٤: ٧-٩). (المترجم)

(٢) الفريسيون هم علماء اليهود الذين كانوا يناقشون عيسى آراءه ومعتقداته ويُحاربونه. (المترجم)

الناس عليه . فكان يزور أولئك الذين يزدرون تعاليمه ويحيون الحياة التي ينقذها بدلاً من تجنبهم والانصراف عنهم .

ولم تكن الصفة الانبساطية أو صفة الإيثار في المسيح عليه السلام مجرد حادث عَرَضى بل هى نتيجة حتمية للمثل العليا التى كان يُقدِّرها أكثر مما يقدر راحته الشخصية بل وحياته ، فكان مؤمناً بأن رسالته هى تحقيق إرادة مَنْ بعثه . كان المُحرِّك لأفعاله والدافع لتصرفاته عقيدة أقوى كثيراً من العقبات المادية والمعنوية التى اعترضته . فلم يكن قد سمع بعد عن الغُدد التى تلعب دوراً كبيراً فى تكوين الشخصية ، أو عن التركيب الجسمانى الوراثى ، الذى تحمَّس له الدوائر الطبية الآن فتؤكد أنه بالنسبة لكليهما يكون استعداد المرء للإصابة بجنون المُرَاقَبة أو اضطراب الأعصاب أو الصَّرَع أو البارانويا ^(١) فكان يقول : «أما أنا فَلَسْتُ أدين أحداً ، وإن كنت أنا أدين فَدَيُّنُونَتِي حقاً ، لأننى لست وحدى بل أنا والأب الذى أرسلنى» .

هذا ، هو مبدأ المسيح فى الحياة الذى كان فى جَوْهره المقياس النفسى للحياة النشيطة السعيدة التى لا تكفّ عن البذل فى سبيل الغير .

(١)جنون الهواجس الاضطهادية .

الفصل الرابع

البلهاء عبيدو السَّبَبِيَّة

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ (البقرة: ٣) ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (النحل : ٤٢)

«أنا هو الطريق والحق والحياة» (يوحنا ١٤ : ٦)

«وأما الإيمان فهو الثقة بما يُرَجَى والإيقان بأمور لا تُرى» (الرسالة إلى

العبرانيين ١١ : ١)

«الحق أقول لكم : مَنْ لَا يَقْبَلُ مَلَكُوتَ اللَّهِ مِثْلَ وَلَدٍ فَلَنْ يَدْخُلَهُ» (لوقا ١٨ :

١٧)

اتَّضح لى سذاجة موقفى وسوء ظننى وتفاهة رأى عندما رأيتُ الناس يَقْصِدُونَنى وهم يظنون أنى الإله الذى يُوفِّرُ لهم سُبُلَ السَّعَادَةِ، وَيَقِيمُ لَهُمْ صَرَاحَ الْهَنَاءِ، وَأَنْ أُنْسَى الْإِلَهَ الْحَقِيقَى . . والحق أن ذلك هو الشعور الحقيقى الذى يدورُ بخَلَدِ كلِّ رجالِ علمِ النفسِ والدينِ والأطباءِ عندما يجدون الناسَ مُقْبِلِينَ على التردُّدِ عليهم، راغبين فى حلِّ المشكلاتِ ودنيا التَّصافى، فإذا بالغرور يغشاهم ويظن البعض منهم أنهم حقاً آلهة .

كان السابق تقدمة أو مدخلاً لما سأنوى أن أعرضه عليك فيما يأتى من صفحات أو من خلال ملابسات اللقاءات التى تَمَّتْ بينى وبين مرضاى .

أذكر حالة رجل أمضى فى السجن حوالى عشرين عاماً لاغتياه عشيق زوجته جاءنى قائلاً :

«أودّ أن أعرف هل للسنوات العديدة التى قضيتها فى السجن تأثير عقلاى على، وهل تؤثر بالسلب على تأديتى لأى عمل؟ ولكى تكون على بينة من أمرى، أقول لك إنى كنت ذا وظيفة ثابتة. ولقد دخلَ هذا الرجل بيتى فأحال هناءه تعاسة، ولذا قتلته متعمداً. وأعترف لك أن هذا العمل هو الإثم الوحيد الذى اقترفته فى حياتى، فأنما لم أَدخُن قط أو أشرب الخمر أو أقامر، وقد أدّى حُسن سلوكى بالسجن إلى إطلاق سراحى قبل المدة المحكوم علىّ بها بأربع سنوات. أما أثناء وجودى بالسجن فكنت أعمل كل ما بوسعى كى أشغل ذهنى، وتعلّمت الفرنسية والألمانية حتى أجدتُهما، ويمكننى الآن القراءة والكتابة بهاتين اللغتين، ولو أن لهجتى غير سليمة تماماً (وهنا أخذ يتحدث بهما قليلاً حتى يُثبت صدق ما يقول)، فكنت موقناً أنى لن أنال خيراً فى هذا العالم الموبوء إن لم أواظبُ بانتظام على دراسة شىء ما. ثم إنى أملك الآن ثمانين دولاراً علاوة على الخمسة والعشرين دولاراً التى أعطانيها السجن حين غادرته، كنت قد ادّخرتها من العلاوة التى نتقاضاها لشراء طوابع البريد كل أسبوع، فلقد تُوفّيتُ زوجتى عقب دخولى السجن بستتين فلم أجدَ مَنْ أُرسله، وبدلاً من إنفاق هذه الدولارات القليلة فى شراء التبغ والحلوى آثرتُ توفيرها. وأطمع الآن فى الحصول على وظيفة كمهندس إذا تيسّر ذلك، غير أن القلق يتتابى، لأنى أخشى أن تكون سنوات السجن الطويلة قد أحالتنى شخصاً غريب الأطوار برغم الجهود التى واصلتُ بذلها للمحافظة على اتزانى العقلى. هذا هو سبب التجائى إليك، راجياً أن تُصارحنى إذا كنت ما أزال إنساناً سيّياً.»

تُرى هل حافظ هذا الرجل على اتزانه العقلى برغم مجموعة الإجراءات
التي عمل عليها كي يخرج سليم العقل منضبط السلوك ؟

على أننى أخذت أجرى على هذا الرجل الاختبار تلو الاختبار،
ومَضَيْتُ أطمئنه على حالته، وأبثُّ فيه الثقة، وإن كنتُ أشفق عليه وأرثى
لحالته، لأننى كنتُ متأكداً من عدم كفاية هذه الإجراءات. إن رثائى لحاله
يكنم فى أنه يحاول بدء حياة جديدة وسط موجة عنيفة من موجات البطالة
الواسعة النطاق، زد على ذلك ما ينوء به كاهله من ماض ملوث بجريمة
اغتيال وسنوات طوال بالسجن.

كان هذا الرجل فى حاجة إلى ما هو أشد تأثيراً كي يستعيد مساحة الثقة
المفقودة فى سلامة عقله بواسطة الطبيب النفسانى. كان هذا الرجل فى
أمس الحاجة إلى إيمان يقينى يَشُدُّ من أزره أمام ما صادفه فى هذا المجتمع
من تجارب وتحامل وإجحاف. كان هذا الرجل يفقر إلى شحنة من الصلابة
أكثر ثباتاً من منطق ذهنه الذى يؤمن به، مهما تكن درجة اتزانه العقلى.

وبرغم ذلك فإن هذا الرجل طريد السجون كان أشد اتزاناً فى عاطفته
وأكثر انبساطاً فى عاداته، وأشد جرأة اجتماعية من أغلب الناس، الذين
نصادفهم فى الحياة كل يوم، حيث ترى بعض الناس يدخرون أو يخفون
طاقاتهم، ويحبسون أنفسهم كما لو كان قد قُضى عليهم بالسجن
الانفرادى، فيعيشون فى حياة انعزالية لا ثمر لها ولا رغبة ولا أمل،
يجوبون الطرقات ويؤدون أعمالهم وقد يجيبونك إذا ما سألتهم سؤالاً ما،
بل تجدهم أيضاً يُحسنون الحديث فى أمور تستهويهم، ومع ذلك تراهم
يفكرون فى أمور لا تفكر فيها إلا النفوس الحائرة القلقة، فيهدمون كل

مُعتَقَد قد يقودُهم فى يوم ما إلى الخلاص والنجاة والفوز، ويُسيطر على عقولهم فى هذه اللحظة منطق مُخربٍ مدمرٍ.

وسوف أقدمُ لك حالة أخرى مستطرفة فى فكرها مع العلم بأن مثل هذه الحالات ذائعة الشيوع، وهى حالة رجل لا يعتقد فى شيء ما، ويغلب عليه الانطواء، فقد فرّ منذ سنوات من مجابهة الواقع ومُنازكته، وعزفَ عن ممارسة تجارب الحياة، حتى أنه فى بعض الأحيان يجد صعوبة شديدة فى مزاوله مهنته أو اتِّباع سبيلٍ سهلٍ من سُبُل الحياة العادية.

بدأ حديثه بالقول: «إن هذه الحالة استغرقتُ من تفكيرى وقتًا طويلاً، ورُحْتُ أراجع الكتب والدراسات العلمية المتعلقة بعلم النفس، علَّنى أجد إجابة لما أعانيه أو أقوم بأداء عمل يتوجَّب علىَّ أدائه، على حين تلجَّ علىَّ فكرة الوقوف على أسباب الأشياء ومُسبباتها، ومن ثَمَّ رُحْتُ أسأل نفسى عن جدوى كل شيء حتى ولو كان قليلاً، فمثلاً: أسأل نفسى «لِمَ هذا الجُهد الذى أبذله فى التدريس والتعليم وما مدى الفائدة التى تعود علىَّ من هذا الجُهد. وأمام هذه المحاجة تولدت عندى الثقة فى أنى أُضَيِّع وقتهم سُدًى، وهم بالمثل معى يُضيعون وقتى، وكنت أفترض جدلاً إذا كانت المادة التى أقوم بتدريسها ذات نفع فلماذا لا يدرسها مَنْ هو أكفأ منى وأفضل، وأمام ذلك رُحْتُ أسرق مجموعة من الاستفسارات والأسئلة المتعلقة بسببية الأشياء، لِمَ كذا ولمَ كذا؟ ولمَ اجتماعى بغيرى من الناس ومواصلى ربط صلاتى بهم؟ ولمَ اشتراكى بالجمعيات؟

» وكلما اهتديتُ إلى بعض الأسباب التى تدعو إلى مثل هذا التَّصرُّف، عثرتُ بالمثل على بعض الأسباب القوية، التى تدفعنى إلى تجنُّبها والابتعاد

عنها! ومن ثم « لم الكدّ والشقاء ؟ لم التعب والنصب ؟ فحتى أسرّتى قادرة على المضيّ وحدها في موكب الحياة دون الحاجة إليّ ».

« ويخيّل إليك الآن أنك ستُشير علىّ بإتيان بعض أمور قد تُعينني، ولكنني لن أدعك تسترسل في نصائحك، بل سأسبقك فأقول إنني سأناقش الأسباب التي بنيت عليها آراءك، لعلنا نخرج منها بحُجة منطقية تقلب الحُجة التي ستسوقها رأساً على عقب. »

والحق أقول إن جملة الاستفسارات السابقة تمثل انتصاراً باهراً لنظرية السببية، انتصاراً تفوّقت به على جملة المعتقدات والمبادئ والعواطف التي نؤمن بها، انتصاراً على الحياة الآلية التي لا نجد لها تفسيراً لبعض أحداثها وأفعالها، ورأيت نفسي في هذه الحالة مطالباً بالإجابة قائلاً: « إنني أوافقك كل الموافقة على ما تقول، ودعني أقدم لك مثلاً عن عادة بسيطة لا يفكر معظم الكبار في استكناه أمرها وأصلها، وذلك حتى لا تظن أن موافقتي على ما طرّحته عليك سقته على سبيل المجاملة.

لماذا نتناول طعامنا بالشوكة والسكين؟ هذا سؤال يبدو في قمة السهولة، وهو عادة من العادات التي لن تجد لها سبباً مقنعاً، بل إنك قد تجد الكثير من الدوافع والمسببات التي تُيسر لك أن تترك الشوكة والسكين، وتلقّي بهما جانباً حال تناولك لطعامك، على أنني أؤكد لك أيضاً أن استعمالها يزيد في مساحة الإجراءات الفعلية لتجهيز المائدة قبل تناول الغذاء، ثم الجهد الزائد لإزالتها بعد الغذاء، والواجبات الأخرى المتبعة من غسيل وصقل، علاوة على أنها تُعدُّ مصدرًا لانتقال العدوى، ثم إنها تكلف الآباء عناء سنوات من التدريب والتهديب، في حين لو استخدم هذا الجهد في شيء

آخر كان أنفع وأصلح، أو على الأقل كان فى الإمكان توفير هذا الجهد المبذول، فتناول الطعام باليدين والأصابع هى من الأمور التى سَمَتَ بها الفطرة ومن أجلها هُيَ الخلق، إن استخدامهما من الأمور الفطرية الهَيَّة.

وقسْ على ذلك مجموعة إجراءات أخرى قد نأتى فى سردها فى كل مرحلة من مراحل حياتنا، وكل فرد له نصيب من الذكاء فى مقدوره أن يفعل الشيء نفسه.

وأنا لن أناقشك أو أحاول إقناعك بالحُجَّة، وكل ما هنالك أنى سأطرح عليك سؤالاً واحداً : هل أنت مرتاح إلى حالتك الراهنة ؟ ثم ومع راحتك هذه هل تودُّ أن تظلَّ كذلك؟ فإذا كان جوابك بالإيجاب فليس لك عندى علاج، أما إذا أجبت بالنفى فقد أستطيع معاونتك، وقد تستطيع معاونة نفسك، فمثلاً يمكننى القول بأن استخدام الشوكة والسكين عمل سليم لا لأن استخدامهما هو الطريقة الوحيدة المُستساغة فحسب، بل لأنك ستحسّ بنشوة عندما تستخدمهما بمهارة أمام الناس، بل أستطيع أن أقترح عليك مجموعة من النصائح إذا استخدمتها لن تنفّذها لمجرد أنها معقولة فحسب بل لأنك إذا عملت بها وحذقت استخدامها رَضِيتَ عن نفسك.

مثل هذه الحالة العقلية شائعة بين جمهور المنطوين الذين اعتادوا استبدال العمل بالتأمّل، والإيمان بالسَّببية، والعقيدة بالولوج فى التحليل. والغريب أنك لا تلاحظ هذه الظاهرة إلا عند ذوى العقول الرَّاجحة والاطِّلاع الواسع والثقافة الرَفِيعَة.

وسوف أعرض حالة أخرى تتفق مع المنطق السليم وتعتمدُ على منطق السببية المُقنع. وقد عَرَضْتُ هذه الحالة لطالب مفرط الذكاء، لكنه لا

يحصل على الدرجات اللازمة لاجتيازه الامتحان، مع كونه على رأس زملائه ذكاءً. إن مأساة هذا الطالب تكمنُ في عدم رضائه عن نظام التعليم في كُليته، ويكاد معظم الآباء والأصدقاء يرزحون تحت كاهل تلك العادة الغريبة التي لا يفهمون لها سبباً، وأعنى بها التزامهم طريق الحُجّة في محاولتهم إقناع غيرهم ممن لا يقلّون عنهم كفاية في إقامة الحُجّة إن لم يفقّهم، وقد تكون حُجّتهم قوية سليمة برغم ثقتنا أنهم مخطئون.

إن المبالغة في استخدام العقل قد يحيل الإنسان إلى مريض يستوجب الزيارة إلى المصحّات النفسية، وفي فرنسا يديرُ أحد علماء النفس مصحّة لعلاج المنطويين أو الذين يبالغون في التأمل، باحثين عن مُسبّبات الأشياء، بالإضافة إلى علاجه أيضاً الذين دبّ التعب إلى عقولهم من جرّاء المبالغة في البحث عن مسبّبات الشيء، ومن ثمّ ركنوا إلى الخمول والراحة نتيجة للمبالغة في التفكير، أما أسلوبه في العلاج فينحصر فيما يلي:

١- إيجاد نوع من الثقة العمياء بين الطبيب المعالج وبين المريض، ويعنى ذلك أن يؤدى المريض ما يُطلب إليه دون تردد، فإذا ما خالف المريض النصائح الموجهة إليه، أو حاول مناقشتها تخلى الطبيب عن علاجه.

٢- يوافق المريض على أن يصطحبه الطبيب إلى حفل مجاور للمصحّة العقلية، ويشير إلى قطعة من الأرض طولها خمسون قدماً وعرضها ثلاثة أقدام، ثم يناول مريضه معولاً ومجرفة ويأمره بحفر هذه المساحة من الأرض بارتفاع قامته، فيبدأ المريض فيشرع المريض بالحفر يوماً بعد يوم وتزداد ساعات الحفر، حتى تبلغ العشر ساعات يومياً.

٣- يقوم الطبيب بمراجعة ما تكبّده المريض طوال الأيام السابقة بشرط، أن يتأكد من أن المريض قام بحفر المساحة المُخصّصة له وَفْقًا للمقاييس المطلوبة، وعندما يتأكد من ذلك تمامًا يعاجل مريضه بالقول : « حسنًا .. عليك بملء الحفرة من جديد. »

والواقع أن انشغال المريض بعدّة واجبات من هذا النوع، والتي تدل في ظاهرها على عدم جدواها، ولا مُبرّر لها، يُعيد اتّزان قوى التّسيب في مجموع الشخصية، ويحوّل طاقة المرء وجهوده نحو الخارج، أعنى في سبيل بذل الجهد من أجل الغير لا من أجل نفسه .

إن التجربة التي خاضها هذا الرجل قد زَرَعَتْ بداخله أهمية العمل دون البحث عن السّبب، وإننا نستطيع أن نظفر بالسعادة في أعمالنا حتى ولو اقتطف غيرنا ثمارها، وَلَعَلَّنِي أَضِيفُ للتدليل فكرة مأخوذة من قول سليمان الحكيم « ارم خبزك على وجه المياه فإنك تجده بعد أيام كثيرة »، فسيعدُّ حقًا مَنْ يملك حقلًا تَنُمُو فيه الأعشاب الضّارة بضراوة بالرغم مما يبذله من جهود في اقتلاعها، ومحفوظٌ ذلك الذي يُثابِرُ على المُضَيِّ في التجربة عندما يحاول مرّةً واثنين دافعًا بكرته البيضاء الصغيرة في كل الاتجاهات إلا في الاتجاه الصحيح المطلوب، ثُمَّ هو يُثابِرُ ويستمر في دفعها. وسعيدةٌ هي المرأة التي تَرعى أسرة كبيرة محاولة إشباع رغبات أسرتها، ومع جهدها وسعيها تتيقّن تمام التيقّن من عدم الوفاء بكل الرغبات لكنها لا تَتى تفعل ذلك دائمًا، ومثلها المرأة التي تؤدى واجباتها المنزلية الثقيلة ثم هي تحيك ثياب الأسرة وهي في كامل السعادة والهناء، وسعداء هم الذين يؤدون أثقل الواجبات سواء أكان ذلك بمحض اختيارهم أم على الرغم منهم .

وسُعداءُ أيضاً من يقومون بحفر الخنادق وتنظيف الملابس والدُّور وجَمْع الطوابع وأشغال التَّطْرِيز وقيادة السيارات وغسل سراويل الأطفال، كل هؤلاء يؤدون وظائف مهمة، وكل هؤلاء يحسّون بالسعادة الكاملة.

وبين الفلاسفة والعلماء مَنْ يعتقد أن الحياة ليست تجربة مبنية على المنطق أو على كل ما هو معقول، وأن الطبيعة لا يمكن تفسيرها بواسطة المعلومات العلمية، فالناس لا يولدون في هذه الحياة بمحض اختيارهم أو لسبب يعرفونه ويدركونه، فهو يُمضون حياتهم وفق مزيج يجمع الغريزة والمسببات غير المعقولة أو الثابتة، وهم يعلمون أنهم سيموتون يوماً ما، ولكن دون أن يدرك منطقهم المحدود سبب هذا الموت. فالعقل يعجز عن إيجاد حلٍّ لهذه الأمور، علاوة على أنه لم يهيأ لمثل هذا الضرب من التفكير، فالفكر ليس غاية في حد ذاته، بقدر ما هو أداة يستخدمها الإنسان ليُكيّف شخصيته وفق قيم الحياة وأغراضها التي لا يمكن إدراك كُنْهها.

فكما أن الأسنان قد خُلقتْ للمَضغ بها لا لمَضغ نفسها، كذلك العقل قد وُهِبَ للتفكير في سواه لا للتفكير في استكناه أمره.. فالعقل آلة نعيشُ بها لا لأجلها.

وليس هناك شك في أن الحضارة الغربية قد ألْهَتْ العقل والفكر وجعلتهما في ذاتهما غاية، فالسعى إلى المعرفة والعلم واتجاه أسلوبنا التعليمي يَنحَوَانِ إلى تعظيم شأن الفكر وتحطيم القيم الجوهرية وهو ما يجعل هذا الفكر يستحق حيازته. وخلاصة القول إن هناك قوّة تُسير هذا الكون.

ولكن كيف نشأت هذه القوة المُحرَّكة الفاعلة؟! هذا سؤال حيرَ البشرية على مرَّ العصور. وللإجابة عن السؤال أقول لك إن القوة هي مفعول مدلول مُحسوس، لكنه غير منظور، ولكن ما هذه القوة؟

أؤكد للقارئ أن ثمة قوى محرَّكة لا تعرف كُنْهها، ولكننا نرى آثارها ماثلة أمامك، نُخذ مثلاً المنزل الذى تقيم فيه ويضاء بالكهرباء. أنت ترى أثر الكهرباء فى الضوء المنبعث من المصباح لكنك لا تدرك ماهية الكهرباء، تلك القوة المحرَّكة الباعثة نفسها، كذلك تستقل القطار الذى يسير بقوة الكهرباء، وتلتبس الدفء فى ظل مدفأة الكهرباء فى الليالى قارصة البرودة، ومع ذلك أسألك سؤالاً هل تعرف ما الكهرباء؟ هل تستطيع أن تحددها وتقض عليها بيدك؟ هذه قوة تعرف آثارها ولا يدرك كُنْهها. هذا مثل أسوقه إليك أيها القارئ حتى تدرك أن هناك قوى مُدركة كالقوى الكهربائية والميكانيكية، هذه القوى تتولَّد ونُحسُّ أثرها، وندرك تفاعلاتها منطقياً بعقل قد هُيئَ له مجال الثقيف فى الأبواب المختصة، فعرف كيف يولَّد القوى ويوظفها ويتفع بها. لكن هناك قُوى غير مُطَوَّعة، فالطبيب بطبِّه، والمهندس بفتِّه لا يعرفان إلا تفاصيل مهنتيهما، وهما بهذه المعرفة ينطلقان من منظومة مَعْرِفَةٍ جليلة، تلك المنظومة التى يملك أسرارها الخالق الأعظم، فإذا عرف الواحد منهما الكل من فنه، فهذا الكل جزء من الكل الأصلى الذى هو سرَّ الكون العظيم.

إذا فنحن بهذا الطرح نُسلمُ بأن العقل الجيَّار والمُشَقِّف العارف بكل شىء يفرض وجود مثل هذا الشخص الجاهل بجانب من أسرار الكون، فإذا كنا نجعل جانباً عظيماً من أسرار الكون ونعرف بعضاً من اهتماماتنا المِهْنِيَّة فكيف بنا نتصور كُنْه الحياة بأسرارها جمعاء، وإذا كان الله هو

الخالق الأعظم لهذا الكون المُسَخَّر المُهيأ، فكيف يتسنى لنا إدراك كُنْه قوة الله .

هذا الفاعل قادرٌ وعبقريته غير محدودة، وهى عبقرية خارجة عن مقاييس العبقرية عند البشر، إنها عبقرية علوية سامية أو قدرة عليا خلقت لنا عبقریات لا ندرى كيفية وجودها، كذلك لا مفرّ من أن ندرك أن هذه القوة لا بدّ ذات بأس شديد، وقُدرة غلابة، بحيث بلغ متنهاها هذا المبلغ السديد، الصعب الفهم، السهل التقدير، المُعْجِز الفعل، هذه القدرة تُسمّى الخالق القدير، أو الموجود من عَدَمِه، هذه القدرة اسمها الله تعالى جل جلاله . وقد يقول البعض : لمَ لا يكون ذلك من فعل شركاء وليس فعل إله واحد؟ وأسألك سؤالاً: بافتراض صحة هذا الفرض، فهل تعرف أو تفهم كُنْه أى عضو فى هذه الشركة؟

أو لنفترض معاً أنها إرادة لها تفرّعات فى اتجاهات مختلفة، هذه الإرادة بتفرّعاتها ترجع إلى أثر واحد هو قوة القدرة الإلهية، أو قدرة الله غير المحدودة .

وأسأل : مَنْ هو الله القادر الفاعل الواجد لكل شىء؟

الله كلمة مدلولها قوة، وأساسها يقين، وظاهر فعلها خارق، وباطنها مجهول، هى قوة مُنتِجَة، لكن إنتاجها أعلى وأسمى وأكثر من مجموع إنتاج مجموعة القوى الحسية الدنيوية المُرْكَبَة بفعل العقل واليد البشرية . الله كلمة تعنى فى تصرفاتها طلاقة القُدرة، أو القدرة المطلقة المُعْجِزة المُهيِمِنة القوية السيرة الفاعلة الحادثة المتعالية عن الشبيه والمائلة، إنها تعنى أيضاً احتواءها على مجموع تلك القوى التى يُبْدِعها أو يُتْجِها البشر

أجمع، هذه القوى نتائج أعمال القوى العليا، فما البشر إلا جزء من كثير
ظاهر، معروف وغير معروف من مخلوقات تلك القوة المتعالية.

ولكن كيف تكون تلك القوة، وما لها من سَطوة وحضور وجَولات
وأفعال ونتائج مجهولة المبنى؟ كيف تكون بعيدة عن اللمس والتجريب
والملاحظة الحسية المباشرة؟ كيف يكون فكر البشر هو جملة الوسائل
المتاحة للوقوف على جوهر هذه الأشياء فحسب؟

ونقول إذاً وسائل إدراكنا للأشياء نابعة من نتائج الإبداع الخلقى المكفول
فى بدئه إلى الله، فكيف إذاً أسأل عن كونه موجوداً وهو الذى أوجد
وسائل الإحساس بوجود الأشياء، بل هو الذى أوجد الأشياء، هل يُعقل
أن يحسَّ البصرُ أو السَّمْعُ أو الشَّمَّ إحساساً عادياً بخالقه، وهو محدود فى
قُدْرته بما أراد له هذا الخالق لا يتعداه؟ وهل له أن يتعدى قُدْرته المحدودة
المُخصَّصة له؟ إنه لو أراد ذلك لن يتعداها لأنه محكوم بقدرته المحددة،
لأنه لو أراد ذلك ما استطاع لأنه مُكبَّلٌ بحدود لا يتعداها.

وثمة مثال آخر قريب نقدّمه، فلو بين أيدينا آلة كهربائية تُسيِّرُها قوة
كهربائية لإنتاج عدد ضخم من مختلف السلع والبضائع، وهذه الآلة تسير
بِقُدْرَةٍ محسوبة لا تتعداها، وتنتجُ عدداً معلوماً، ولا تتحمَّلُ أكثر من ذلك،
فهل تقدر هذه الآلة أن تلاقى قوة كهربائية أقوى من القوة المحدودة
لِقُدْرَتِها؟ هل فى مقدور تلك الآلة أن تعرف كُنْه هذه القوة الكهربائية
المستولة عن تحليل قُدْرَتِها العظمى؟

لا شك أن الإجابة عن مثل هذا السؤال ستكون بالنفى. وكذلك البشر،
مُنْحَرُوا عقولاً، لكن هذه العقول محدودة المجالات والصَّولات فى حدود

معرفتها بمخلوقات الله ومُنشآتِه المختلفة، أى أن هذه العقول محدودة بالكون الفسيح المتسع، لكن هذا الكون الفسيح المُتَّسع وَضَعَتْهُ قُوَّةٌ عليا، قُوَّةٌ جاوزَتْ الحدَّ الأقصى لمعرفة جميع عقول المخلوقات البشرية، وحتى لو ادَّعَتِ العقول البشرية الإلمام بكل ما فى الكون من معارف، فإن هذه المعرفة لا تتعدى هذا الكون بحال بعد أن أصبح حدًّا لأقصى معرفة متجمَّعة. وعلى هذا الأساس فإن مجموع العقول البشرية حتى إذا اجتمعت فى صعيد واحد فلن تصل إلى معرفة أكثر مما وُضِعَ حدًّا لها، لأنها تستمد تلك المعرفة من صُورِ هذا الحدِّ المختلفة، أى أنها لا تقدر - حتى ولو اجتمعت - على معرفة حدود واضع هذا الحدِّ أو كيف وُضِعَ هذا الحدِّ، لأنها تقتصر على معرفة الحدِّ دون مُوجِّده، كالألة التى تقتصر على معرفة القدرة الكهربائية دون معرفة أساس موجدِها، أى أن القوة المُوجِّدة العليا لا سبيل إلى معرفتها - مهما تمثَّلَتْ نهاية قصوى للمعرفة البشرية - مُتجمَّعة مُتَّحدة، وسيظل مجهولاً كُنْهها وحدودها، لأنه لا حدَّ لواضع الحدود القصوى.

والواقع أنه يوجد الآن فى كل ميادين العلم من الظواهر ما يؤجِّج ويُعلِّى من قيمة العقل، حتى لنكاد نصف ذلك بالضلال، أى الضلال فى تعظيم شأن الفكر، ومع ذلك فإنك تجد علماء النفس هم الذين توصَّلوا إلى أن الاعتماد المطلق على الفكر فحسب كفى بأن يقوِّض أركان سعادة الإنسان، إن لم يقوِّض أركان نجاحه ككل.

إن الإيمان بقدرة العقل لهُوَ شىء ضرورى ومهم، لكن شريطة أن يقف هذا العقل عند حدود قدراته حتى ولو تباينت هذه القدرات من عقل لآخر، لكن معيار التحكُّم هو أن يقف هذا العقل عند مستوى عطائه الخلقى.

إن إماطة اللثام عن الكثير من الاكتشافات إنما مَرَّجعه إلى العقل البشرى الفاعل، وهذا أيضاً لم يتحقق إلا عن طريق تجارب العلماء مع الناس، واختباراتهم العلمية التى أجروها على الآلاف، تلك الاكتشافات التى تقود حياة الناس إلى سعادة وهناء. إننا لن نهتدى إلى حلِّ شافٍ لمشكلات الحياة العويصة إلا عن طريق تفعيل العقل وتقدّم المعلومات والمعرفة العلمية، لكن هذا الأمر ليس كافياً لكى ترفرف السعادة على حياة الناس. إن العلم المطلق قد يقودنا إلى يأس وحزن وإحباط، وارتقاء العلم معناه ازدياد الارتباط واطراد التخبُّط، وما لم يتم توحيد هذه العلوم وإخضاعها كافة تحت راية حقائقه اليومية الواضحة، فلن تؤدى هذه العلوم إلى تحرير العقول التى ابتدعتها وابتكرتها، بل ستقود حتماً إلى انهيار هذه العقول وتعنُّفها. كما أن هذا التوحيد لا بد أن يأتى عن طريق آخر غير طريق العلم، وأعنى بذلك طريق الإيمان، الإيمان ببعض قيم الحياة الجوهرية التى لا يستطيع المنطق إزاحتها أو زعزعتها.

وقد يبدو هذا الكلام معقداً من الوجهة النظرية، أما من الناحية العملية فهو جدُّ بسيط، فبعد عرض حالة الشاب السابق، الذى انشغل أكثر بالبحث عن السبب من وراء فعل الأشياء غدا لا يجد سبباً يبرّر قيامه بعمل حتى انتهى به الأمر إلى أن تحوّل إلى حالة مرضية لا تطيق الاستمرار فى حياتها.

وهذه الحالة التى قدّمتها هى أيضاً فى جوهرها أقوى من كل الحجج المنطقية التى أوردتها، فالأطفال مُرغمون على أداء أشياء كثيرة لا يجدون لها سبباً سوى أنها مشيئة آبائهم.

وأذكر بهذه المناسبة مقطعاً أخذاً لم يغادر ذهني حتى الآن استمعت إليه في إحدى مسرحيات سترندبرج في لحظة من لحظات الثورة العاطفية في الرواية، فقد صاح أحد الممثلين قائلاً: « لن أذعن حتى أمتدى إلى هدف ثابت خارج محيط نفسي أتطلع نحوه وياخذ بيدي ». فكان تعليقى السّآخر وقت ذاك أن تمتتُ قائلاً: « يا لها من عبارة صيبانية ! » ولا غرو، فقد كنت آنذاك أقوم بتدريس تاريخ الفلسفة، وتلك التُّرّهات المنسوبة للعقل الحرّ، فليس غير الضعيف في الحياة هو الذى يحتاج إلى هدف ثابت خارج نفسه يتوكأ عليه، ومنذ ذلك الوقت بدأت أسمع الصَّيْحَة نفسها من مئات الناس، وإن كانوا يردّدونها في صور مختلفة وأشكال متباينة. فهذا في حاجة إلى هدف يصبو إليه في الحياة، وذاك يطلب منصباً محدّداً في محيط مهنته، وهؤلاء ييغون التحرُّر من الصراع العقلى والعاطفى، وأولئك باتوا يروُن طعم الحياة شديد المرارة .

ويبدو لى، سواء من الوجهة النفسية أو من أية جهة أخرى يقبلها العقل، أن الإنسان جُبل منذ خُلِق على الإيمان بعقيدة ما، والتَّصرُّف حسبما يؤمن به، حتى لو كان هذا الإيمان إيماناً ببعض الخرافات، فهى أفضل من عدم الإيمان بشئ بالرغم من ازدياد الكثيرين لِمَن يؤمنون بالتنجيم، وعلم الكفّ، وعلم الفراسة، والقدرة الروحية، والتلبّاثى العقلى^(١) أو طريقة الدكتور كُويه وأصحاب مدرسة الفكر الحديث أو غيرها من النظريات التى لا تؤيدها الحقائق العلمية أو تلقى عليها ضوءاً من

(١) هى فى العربية ظاهرة « التَّخَاطُر »، أى انتقال الافكار من إنسان إلى آخر من غير اتصال جسدى بينهما.

الشك. وبالرغم من ذلك فلإني أؤكد أن الإلحاد مرض عقلى، وهذا الازدراء تصرف غير سليم، إذ إنه مهماً تبلغ هذه المعتقدات من السخافة، فهي أفضل من عدم الاعتقاد فى شىء على الإطلاق.

فإيماننا بما لعلم قراءة الكف من قُدرة يؤدى بنا لا محالة إلى بعض الممارسات البسيطة المهنية حتى لو كانت فى مصافحة أيدى الغير والربّت عليها، والتعلّق بعلم الفراسة يقودنا أيضاً إلى مُداومة النظر إلى وجوه الناس وفحصها، والثقة فى الإخباريات التى يقدمها لنا التنجيم يجعلنا نعرف تاريخ ميلاد أصدقائنا ومعارفنا، والإيمان بالقوة الروحية يدفعنا إلى الجلوس مع غيرنا ملتصقين فى دائرة واحدة، يلعب الانسجام والتفاهم بين أفرادها دوراً جوهرياً. كل هذه المعتقدات تقوم بدور كبير فى سبيل زحزحة الإنسان بعيداً عن عالم ذاته، وتدفعه دفعاً فى اتجاه عالم آخر يحتشد بغيره من البشر، عالم أشدّ خصوبة و أوفر متعة.

ومن الظواهر البارزة التى ينبغى تسجيلها هنا أن عدداً كبيراً من العقول العلمية العظيمة الشهيرة قد عجزت عن إشباع نفسها فى الميدان العلمى الذى نَبَهَتْ فيه، ومن ثم تحوّلت إلى دراسة العلوم الروحية لعلها تجد فى ذلك راحتها وسكّوها.

والواقع أن هذه المعتقدات تبدو واهية تافهة فى مقابل الإيمان بالعقيدة الدينية التى تتخلّل الحياة فى مختلف نواحيها، والتى لا يمكن لأى علم قائم أن يقيم الدليل على بُطلان مُشتملاتها الجوهرية. كما أن عبادة السبّية والاحتقار الفكرى قد جعللا الإنسان فريسة سهلة بين أيدى تلك النظريات الحديثة والمذاهب شبه العلمية التى لا تقوم ولا تلبث أن تندثر، والتى

حوكّت الإنسان أيضاً إلى لقمة سائغة بين برائن أدعياء الطب وحيّرت عقله وبلّكت فكره..

إننا أمام الاعتقاد بوجود الله نكون قد تبنّينا واقعاً يقينياً مقبولاً، بل هو أقرب إلى التصديق من الإيمان باعتقادات مضحكة مضلّلة يدين بها الناس الآن. إن الإيمان بالله وملائكته ورُسُله أقلُّ عُرضَةً لمهارات قد تحدث وتقع لمن يؤمنون بعقائد مخالفة تمارس على معتقديها سحراً مخدّراً يشتت الفكر ويضللّ العقل. إن إيمان المرء بشيء ما ليس أمراً طبيعياً فحسب، بل هو جدّ ضرورى له، كما أن ضياع الإيمان الصادر عن القلب المرعى لحدود الفطرة التى جُبِلَ عليها الإنسان يحوّل المرء إلى عبد ذليل لعقيدة مهترنة، تُمنّيه بالزيف و تُشهى له الباطل الزائف.

و لأهمية الجانب العقيدى عند الإنسان، دأب رجال علم النفس منذ سنين على القيام بدراسات علمية حول أهمية علم النفس العقائدى وعلاقة ذلك بالحياة، وقد قدّموا إلينا عدداً من الاختبارات المتنوعة لاستخدامها مع كل الأفراد والجماعات «كاختبار ألبُورْت للقيم» الذى يشمل المعتقدات الدينية والاجتماعية والاقتصادية والتقدير النفسانى للجمال، ومقاييس ثيرستون لقياس الميول والاتجاهات، منها سبعة عشر مقياساً للمعتقدات الدينية والاقتصادية والخاصة بالأجناس، إلى غير ذلك، وكذا «مقياس دُول للرشد» وغيره.

ولقد أُجريت دراسات موسّعة على معظم أفراد الشعب الأمريكى لمعرفة الاتجاهات المتغيرة فى عقائد الجمهور. وإحدى هذه الدراسات التى أُجريت فى هذا المضمار تلك الدراسة الخاصة بموضوع حل أزمة البطالة، فقد قام

جمعٌ مُشكَّلٌ من حوالى خمسين عالمًا من علماء النفس وتلامذتهم يعمل اختبارات متعدّدة على عامة أفراد الشعب فى خمسين مدينة من مدن الولايات المتحدة الأمريكية، وانحصر الاختيار فى طرح السؤال التالى : تُرى أيُّها يكون المسئول عن حل أزمة البطالة، هل هى بلدية مدينتك أو حكومة الولاية أو حكومة الولايات المتحدة بأسرها؟

وكانت النتيجة التى أوردها الدكتور پول آشيل فى تقريره الذى قدّمه إلى اتّحاد علم النفس الأمريكى بأن آربور فى سبتمبر ١٩٣٥ كالاتى :

فبراير ١٩٣٣ أبريل ١٩٣٥ مايو ١٩٣٥

٤٣,٤ % ٢٥,٤ % ١٧,٧ % يجبّذون فكرة قيام بلدية المدينة بهذا
الواجب.

٢٥,٩ % ٢٤,٩ % ٢١,٥ % يجبّذون فكرة قيام حكومة الولاية
بهذا الواجب.

٣٣,٤ % ٣٩,٨ % ٤٧,٩ % يجبّذون فكرة قيام حكومة الولايات
بهذا الواجب.

١٥,٥ % ١٨,٧ % ٢١,١ % لا يعرفون.

وتدل هذه النتائج على الميل الظاهر إلى عدم إلقاء هذه المهمة على عاتق بلدية المدينة أو السُلطات المحلية، وإلى الاعتقاد بأن هذا الواجب من مسئولية حكومة الولايات المتحدة.

إن الفرار من الالتزامات الشخصية وإلقاءها على عاتق الغير يُبرز بوضوح افتقار المجتمع إلى المعتقدات والمبادئ الدينية السليمة والتدين

الواعى . إننا قد نؤمن بمساعدة الغير لنا فى بعض الأحوال، لكن الإيمان المطلق بأن هذا الغير بيديه التغيير، وأنه يملك سلطة أن يغير أحوالنا ويصرف من أمورنا من أسوأ إلى طيب يدل على عدم تزعزع الروح الإيمانية فينا، وانصرافنا إلى تخطيطه غيرنا ما هو إلا رضاء لأنفسنا التى استسلمت للتراخى والتواكل الذى يرفضه أى مُعْتَقِد سليم هادف.

ومن النتائج السابقة أيضاً يتضح لنا أن المجتمع بفكره الجماعى يمضى نحو انطوائية مُقَرَّطَة، بل ربما يعزلون فى تصرفاتهم وأحوالهم، وهذا من مساوئ مدنيّتنا . إن الناس يفضلون الطريق السهل الواضح الذى جربّه غيرهم لا الذى جربّوه بأنفسهم، إنهم يفرّون من أمام حقائق الحياة، ويحاولون الابتعاد عن كل ما يزعجهم ويقض مضاجعهم، إنهم يتجنّبون الاحتكاك المباشر بالناس خوفاً من التجريب.

إن الناس بذلك أيضاً يرفضون منهجاً قد يُحقّق لهم الحياة الوفيرة والكفاية التى يحسّون بشمرة بحثهم واجتهادهم من احتكاكها ومنازلتها . وبرغم مما يبدو فيما يتبعه الناس من منطق سليم، إلا أن ذلك لا يعدو إلا أن يكون ذريعة عقلانية يتجنّبون بها الحل السليم المشمر . لقد اعتدنا أن نضع آلهة الفكر أو المنفعة السياسية فوق آلهة الواجب، فكلما زاد ذكاء المرء تشعّبت آراؤه، واتسعت هوة الخطر التى أوْشك أن يقع فيها من جرّاء انسياقه وراء آلهة المنفعة المؤقتة الفانية، بدلاً من آلهة المنفعة الخالدة الأبدية .

وسأحاول بصِفَتى طبيباً نفسانياً أولاً، وإنساناً ثانياً أن أقدم النصيحة خالصة، باذلاً كل ما يؤسّغى لمساعدة مَنْ هُمْ فى حاجة إلى عَوْنى رافضاً حازماً، أن أبدو فى صورة الناصح الأمين الذى لا يخطئ أو كأننى نصف

إله ، كما لَن أحرم أى فردٍ من حقه الشرعى فى الاستقلال بنفسه ، عندما يقع عليه عبء خَوْص تجربة الرؤية والتحليل لشمّار تفاعله مع غيره واحتكاكه بالناس . فإن الكدّ والمعاناة التى يخوضها الإنسان ما هى إلا نتائج إيجابية مثمرة تحقق سعادة غامرة من جراء السعى وراءها . ولعلنى أيضاً أذكرُ قارئى بحالة سيدة إسكتلندية ذات مظهر أرستقراطى .

كانت هذه السيدة تمرُّ بعذاب مُستعر وهى فى الخمسين من عمرها ؛ إذ كانت تعبرُ أخرج فترات عمرها ، وفاجأتها مشكلة أخرى لا تقل عن الأولى إزعاجاً ، فقد فقدت زوجها فجأة ، وكان قد وقّق إلى إنعاش موقفه المالى ، وبدأ يرى ثمار جهده ، حيث حقق مشروعات تجارية رابحة ، لكنه رحل ولم يترك لها شيئاً سوى طفلة فى الخامسة من عُمرها ، وكانت أسرتها فقيرة برغم أنها كانت مثقّفة ، ولهذا السبب هاجرت إلى أمريكا ، وأخذت تزاوّل الخدمة فى المنازل . وفى الوقت الذى جاءتنى فيه كان لها عشر سنوات تعمل فيها مدبرةً شئون منزل إحدى الأسر الثرية ، تُسوّسُ فيها حوالى الخمسة عشر خادماً . ومجمل القول إنها كانت امرأةً قديرة .

أما ابنتها فقد تزوّجت برغم إرادة أمها ، وحاولت الأم أن تتركها هى وزوجها يعيشان فى سلام ، ولكن متاعبهما التى لم تكن تقف عند حدّ جعلت هذا الأمر مستحيلأ ، إذ فقد الزوج وظيفته بعد أن انتهى من تأثيث بيته ، فشعرت الأم أنها مضطرة إلى بسّط يد المعونة لهما بما ادّخرته فى العشرين سنة الأخيرة ، وأخذت مطالبهما تزداد بالتدريج حتى نصب معينُ الأم .

وكان الزوجان لا يُكفّان عن الشجار منذ عقد قرانهما ، وزاد الطين بلةً غيرةُ الزوجة المتناهية ، وقد تأجّج هذا التنافر بعد أن وضعت طفلها منه ،

وكانت تفصيلات المشاهدات التي تدور بينهما والتي سردتها الأم على مسامعي جِدَ مؤلمة، حتى أن الزوجة قد حاولت الانتحار مرة، ثم أُنقذت في آخر لحظة. وبعد مُضي فترة تدلَّهت الزوجة في حب جاز لها كان والدًا لأربعة أطفال يبادلها الحب أيضًا، وإن لم يكن على استعداد لهجر أسرته. وفجأة وقعت الفتاة فريسة لمرض خطير، فنصَّحها الطبيب المعالج بقضاء بضعة شهور في راحة تامة، وأشار عليها بتغيير المناظر التي تُشاهدها. وكان هذا بالطبع يتطلَّب نفقات باهظة لا تستطيع الأم توفيرها، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل وجدت الأم نفسها مُرغمة على المطالبة بعطلة مؤقتة تقضيها بجوار ابنتها وحفيديها. وبعد أن انتهت الأم التَّعَسُّة من سرِّ قصتها التفتت نحوى وصاحت: «بالله قل لي ماذا صنعتُ حتى يلحق بي كل هذا العذاب؟ وبِمَ تنصحنى الآن؟ إنني لا أدري أية وَجْهَةٌ أتجه؟ ولا أعرف ما ينبغي عليَّ عمله؟ لقد كنت دائمًا متديِّنة إلى أَقْصَى الحدود، أَصَلَّى بين وقت وآخر وأسأل الله الإرشاد والتوجيه، ولكن السنوات الخمس الأخيرة قد زَعَزَعَتْ عقيدتي حتى بدأت أفقد إيماني بالله. وأنا أعترف لك أنني ارتكبتُ بعض الأخطاء، فقد كان أولى بي ألا أمدَّ إليهما يد المساعدة أول الأمر، وبذلك كانا سيُخْلَفَان هذا المنزل، ومن ثَمَّ تتجَبَّب الفتاة ذلك المأزق الغرامي مع شاب غريب. أرجو أن تُرشدني إلى ما ينبغي عليَّ عمله الآن أو بعد أن يتم شفاء ابنتي، فلقد أشار عليَّ أحد أصدقائي ممن ساعدتهم بالالتجاء إليك، ولا أَكْتُمُكَ أني لم أكن أوْمن بمثل هذه الحلول إلى أن أفتنعي، فهل لديك ما تُشير به عليَّ كي تُنقذني من هذه الورطة؟».

تُرى ماذا يمكن أن أقول لها؟ أو ماذا يمكن أن يقوله لها أى إنسان؟ فهي قد ذكرت بنفسها خطورة عواطفها النَّاجمة عن بلوغها تلك السَّنَّ،

واعترفت بارتباك عواطفها الناشئة عن وجودها بمفردها كامرأة بجوار ابنتها الوحيدة، كما قد ندمت على الخطأ الذى تردت فيه عندما كانت تقدم إليهما المساعدة المالية بسخاء، بل لم يعد فى إمكانها الآن تكرارها، فمن بوسعهِ التنبؤ بما ستؤول إليه هذه الحالة، وكيف يمكنه علاجها وهو واثق من نجاحه؟

كانت المرأة فى حكيها تنحو ناحية فقد الثقة فى العطاء الإيماني، وكان لسان حالها يقول ما دامت الحياة زاخرة بهذه المآسى والمحن فلم الحياة فى أصلها، أخلقنا الله كى نعانى ونكد، وقد كنت أسأل نفسى وهى تحكى كيف أشرع فى علاجها؟ وما نصائحى التى سوف أقدمها لها؟ إنها سيدة تذكرنى بفضيلتها وعطائها، كما تذكرنى بأن ما وقع لها إنما هو ناجم عن إيمانها بالقيم الخلقية الفاضلة، فهى لم تتردد فى أن تمد يد العون لابنتها، بل وأنفقت عليها بسخاء، وأعطتها جرعة زائدة من مساحة اهتمامها وحبها، بالرغم من خطورة عواطفها الناجمة عن بلوغها سن الخمسين، وحياتها بمفردها بعد فقدان زوجها، فماذا يمكن أن أقدم لهذه السيدة؟

ونحن فى مثل هذه الحالات نبتعدُ تمامًا عن توجيه النقد، كما أننى لم أجد ما أخذه على سلوكها وأدائها، فلقد تصرفت بمثالية رفيعة وعطاء وافر وطبقت تعاليم عقيدتها الدينية خير تطبيق.

لقد بدأت أربت على ظهر السيدة، وأشدُّ من أزرها وأحسى فيها ما أقدمت عليه من عطاء وأردفت قائلاً: «ثمة هفوة واحدة خطيرة أخشى أن تُقدمى عليها، وهى أن تفقدى إيمانك بالله وبعقيدتك التى لم تعدك بحياة مثالية فى هذه الحياة؟ إن عقيدتك لم تتراخ، ولسوف تُجنبك عناء الآلام

والعذاب فى هذه الدنيا، بل هى مَطْيَة حياة أُخْرَوِيَّة هَانِئَة، كما أن عقيدتك الدينية تضمن لك القوة والقُدرة على الصَّمود أمام هذه الآلام. ثم إن دينك لا يتوقَّع منك أن تكونى مثاليَّة لا تأثمين فى حياتك ولا تُخطئين فى الحُكم على الأمور، ولكنه يَعِدُكَ بالصَّفْح عن آثامك وغفران خطاياك.

إن إيماننا يدعونا دائماً للبذل والعطاء، وهو ينتظر منا المداومة على بَذْلِ الجهد من أجل إسعاد غيرنا والوقوف بجانبهم، ورفع يد الدهر الغليظة عنهم، كما أنه لا يضمن لنا أن نَمُتَّى الحياة وَفَقَ ما نريد وعلى هَذَى ما نرغب. وأذْكَرُكَ فى هذا المقام أيضاً بأن معنى إيماننا بالله هو أن نؤمن إيماناً راسخاً بأن ما يقضى به هو الخير، وأننا نُضْمِرُ ثقة مطلقة فى تيسيره وأفعاله، فالثقة فى الله وفى عطائه وفى أن كل الأمور بيده تدعمنا وتقوى فينا حبناً لما نعمل، فنحن فى أشدِّ الحاجة إلى الثقة بالله كى نهتدى إلى الحلول التى تخرجنا من مَآزِقنا وقِصَر رؤيتنا. صحيح أنني أستطيع أن أقدم لك مجموعة من النصائح، لكن لم يُخْلَقْ بعد آدمى الذى يمكنه أن يمنحك شيئاً يعادل فى قوته وفائدته ما يمنحك عقيدتك، بل إنى أعدُّكَ محظوظة إلى حدٍّ كبير لأن لك عقيدة يمكنك الاعتماد عليها».

وكم أسعدنى أن هذه السيدة بعد مجموعة النصائح التى بدأت بها حديثى لم تعد بحاجة إلىّ، بل لقد احتشد قلبها الإيمان، وحققتها الثقة التى ساعدتها فى أن تعبّر محتتها بسلام وقوة، وأنها بذلت ما فى وسعها من أجل غيرها إلى أن تجاوزت محتتها.

ولقد قيل : إن الدين ملجأ العقول الضعيفة، وأنا بدورى أقول، وهذا من الناحية النفسية أن الضعف يكمن فى عجز قلوبنا عن إدراك ضَعْفها وعن كُنْه هذا الدين، لأننا بعد لم نَعِشِ الدين وإِقْعاً حياتياً ملموساً، ولم

نَعْتَمِلُ بما يأمر، فالشعب الأمريكى مثلاً يتخبَّط بدرجة لم يتخبَّط بها شعب من قبل، وبالرغم من منظومتنا العلمية الدقيقة، ووسائل الاتصالات المبهرة والثورة التكنولوجية المتسارعة، فإننا نسمع بين حين وآخر عن نشأة التكتلات الاقتصادية الكبرى وحقوق الأفراد والمشروعات الاقتصادية المتعددة. لقد كنا قديمًا مشغولين بقضايا كبرى مثل إلغاء الرق والبحث عن الحقوق والحريات، أما اليوم فقد عَمَّت فوضى التكتلات وسيطرة رأس المال على كل شيء، وقد يكون لِعَصْرنا الفضل فى إخراج معظم هذه المشروعات إلى أجواء عصرنا الفكرى، بل يكاد قادة العصر وأباطرته يتصفون جميعهم بالعجرفة الفكرية التى تُزرى بقيم الطبيعة البشرية البسيطة الجوهرية، لكننا بقدر ما نُحصِّل من العلم والمعرفة، بِقَدْر ما نُلْمَسُ عجزنا وجهلنا بالقيم الأساسية للحياة والأخلاق، تلك القيم التى ترفع من قدرها التعاليم الدينية، بل هى فى أساسها قيم دينية^(١)، مأمورين باتباعها والسير على نهجها و وفق أوامرها، إنها قيم قد توافق العقل أحيانًا، وقد تكون بعيدة كل البعد عن إدراكه، فلماذا تسلَّح العقل بالإيمان الدينى صار عقلاً جباراً قوياً، عقلاً ليس نهباً للتيارات المختلفة التى تُعلَى معرفية العقل فى سبيل التحقير من قيم الدين وأوامره.

إننا إذا نصَّبنا من العقل إلهاً نعبده وندينُ به نكون قد انحرفنا عن طريق الله السَّوَّى، ولا عجب فقد بَتنا عبيداً للسَّبَّيَّة، تُخَدِّرُنَا الحقائق العلمية أحيانًا، وتسخر منا القيم الدينية دائماً، وصدق الدُّوس هُكْسلى حين يقول: « لا شك أنكم بالغون الحقيقة يوماً، لكن الحقيقة ستَجعل منكم يوماً مجانين. »

(١) قال تعالى: «وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً». (المترجم)

الفصل الخامس

الخير في الاندماج مع الناس

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١)
وقال: ﴿وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾
(المائدة: ٢)

«وفي اليوم الثالث كان عرسٌ في قانا الجليل ... قال لهم يسوع : املئوا الأجران ماء، فملئوا إلى فوق. ثم قال لهم : استقوا الآن ، وقدموا إلى رئيس المتكا فقدّموا. » (يوحنا ٢ : ١ ، ٧ ، ٨)

تصدق الآيات والشواهد السابقة بأهمية التعاون والتآلف بين الناس، وأن الخير في الاندماج والتآلف والتآخي مع بعضنا البعض، ولترسيخ هذه القاعدة سوف أقدم مثالا واقعيًا حدث مع المسيح عليه السلام، فقد حدث أن دُعِيَ عليه السلام إلى عرسٍ في مدينة قانا الجليل، ولَبَّى المسيح الدعوة، ولم يكتف بذلك بل زاد من مساحة التآلف والتآخي حينما طلبت إليه أمه بعدما فرغت الخمر أن يقدم المعونة إلى أهل العرس بأن يحيل الماء إلى خمر، وفعل المسيح عليه السلام ذلك. وربما تكشف لنا هذه القصة قسًا

اجتماعيًا أو درسًا اجتماعيًا فى كيفية كَسْب الأصدقاء، لكن الأُغرب والأعجب أن تجد قصة عيسى عليه السلام كلها قصة خالدة فى وسائل كَسْب الأصدقاء، على خلاف الطَّبَقات والثقافات والمناحى واختلاف الظروف.

وإذا نظرنا إلى الصداقة من الناحية النفسية، نجدها تُحْتَم على أهلها اتِّباع سلوك معين لا محيدَ عنه، و يعنى ذلك إخضاع مُيولنا ورغباتنا لميول ورغبات الغير، إذ سرعان ما يكتسب هذا الإنسان مهارة وموهبة صناعة الصداقة وكَسْب الأصدقاء، إن مثل هذا السلوك لم يَعدْ إجباريًا بل صار فيهم طبيعة ثانية.

إن الذين يحسنون صناعة الأصدقاء دائماً ما يعتادون الحديث والعمل الذى يُدخلُ السعادة فى نفوس الغير، وهم بذلك يُحسُّون أن ما يُدخلونه من سعادة لأنفسهم بصناعة الصداقات والتفاعل معهم إنما يُدخلون السعادة إلى غيرهم، وتلك حقيقة مُفادها أن إشعار الغير بالرضا والبهجة يغدو المبدأ الأول فى برنامج مُتعتهم وأسلوب حياتهم القائم على إنكار الذات ومراعاة الغير.

هل تلعب البريدج؟

سؤال أبداً به مراراً لحظة مواجعتى لمرضى لِسْبَر أغوار أزماتهم النفسية، فتأتى الإجابات متنوعة ومتباينة، فالبعض يجيب: « لا، فأنا أعتبرُهُ مَضِيعَةً للوقت»، فى حين يقول آخرون: « نعم نلعبه، ولكن لشدّ ما ندهش حين نرى زملاءنا يأخذونه على مَحْمَل الجدّ ». ومع ذلك فقد أشرتُ على المئات من مرضى بأن يتعلّموا لعبة البريدج، بل أوصيتهم بأن يمارسوه بمزيد من الجدّة، لا لسبب إلا لأنه أحد العناصر المهمة اللازمة لاكتساب عادات إنكار الذات وصفات الشخصية المحبوبة. وأرى أن من لا يُزاول لعبة البريدج جدياً هو مخلوق أنانى، لأنه بعدم المشاركة الإيجابية فى اللعب

يضرب صَفْحًا عن توفير اللذة التى قد يحسُّها الآخرون من وراء مشاركته
 طرقًا فى المباراة، فهو يرى أن مَمارِسَى هذه اللعبة لا يمارسون شيئًا ذا
 قيمة، وقد يوصف أحيانًا بتبَلُّد المشاعر حتى أنه فى بعض الأحيان يفتقر
 إلى الرغبة فى حَصْرِ انتباهه فى مراقبة حركات زملائه وملاحظاتهم وكأن
 لسان حاله يقول: «إن حصر انتباهكم فى مثل هذه اللعبة هراء، بل إن
 المُنْتَمِعَةَ التى تستشعرونها تافهة، فلمَ لا تنظرون إليها نظرة سطحية على
 نحو ما أفعل أنا؟».

وإذا كان هذا الشخص الذى يفتقر إلى الرغبة فى توفير قدرٍ من النشوة
 لأصحابه من خلال مشاركته الإيجابية فى لعبة بسيطة كهذه، مثل هذا
 الشخص يفتقر إلى الذوق السليم والحس الرقيق وروح الإنصاف، ولا
 جدالَ فى أنه يفتقر إليها فى نشاطه الاجتماعى اليومى.

وعلى النقيض تمامًا، إذا كان هذا الشخص يلعب البريدج أو غيره فإنه
 سيحاول على الأقل أن يكون مثل مَنْ يشاركونه اللعب فى الجِدَّة، وهنا قد
 تسألنى لِمَ كنت أنصح مرضى بلعب البريدج، وردِّى أن المشاركة فى لعبة
 البريدج تقتضى اكتسابك عددًا كبيرًا من العادات الانبساطية، أذكر أنى
 أَحْصَيْتُ منها ثلاثًا وخمسين عادة - وهناك غيرها بطبيعة الحال، مثل هذه
 العادات تجعلك تُرَكِّزُ انتباهك فيما يقوله ويعمله سواك.

ولعل أنجح علاج لأولئك الانطوائيين الذين يفتقرون إلى الجاذبية
 الاجتماعية وعدم تكييفهم الاجتماعى هو ممارسة لعبة البريدج، لأن ممارسة
 هذه اللعبة تُعَلِّمُ الفرد من أولئك المُنْطَوِينَ أن يلعبوا ولو دورًا واحدًا من
 البريدج بإتقان، ومن هنا يتعلم الفرد تركيز انتباهه فى أمور خارج ذاته، أى
 فى بَثِّ نشاطٍ يَشْعُ مُنْتَمِعَةً الألفة والانسجام فى مرافقة الغير.

إن لعبة مثل البريدج تُتيح للمرء الفرصة كي يقف بقدم ثابتة على أرضية راسخة ينطلق منها للتعامل مع الغير ومشاركته إيجابياً.

ومن هنا أرى أنه ينبغي تعليم الأطفال منذ نعومة أظفارهم هذه اللعبة التى تُنمى فيهم الجانب الاجتماعى والسلوكى . وقد يميل الإنسان فى بدء حياته إلى رفض مثل هذه الألعاب، وفى مثل هذه الحالة يجوز فى رأى إرغامه إرغاماً على تعلّمها حتى يصل إلى هذا الجانب المهم فى حياته، وأحياناً قد يطلب الأب والأم إلى طفليهما الجلوس معهما ليشاركهما اللعب، وإذا بهما يفاجئان بمثل هذا الرد: « كفى فنحن نؤثر الاستماع إلى الراديو»، فإذا أصرَّ الوالدان على إشراك طفليهما رأيت الطفلين يلعبان وهما ساخطان ناقمان دون أى انتباه ودون تعاون، وسرعان ما تنمو بداخلهما الرغبة فى الكفّ عن اللعب والتأقّف من المشاركة، فإذا الأب والأم يتدفعان فى تلك اللحظة بالإنذار والنصح قائلين: « إذا لم تحضّرا انتباهكما تماماً فى هذه المباراة فسنضطر أن نلعب دوراً آخر. » وفى هذا قمة التربية السلوكية وتعلّم غمط المشاركة الإيجابية . ولا تدهش إذا وجدت طفلك بعد مرور عام واحد من اتّباع هذه الطريقة يعود من عند أحد أصدقائه، وهو يصيح قائلاً: «لقد لعبتُ دوراً مع صاحبى وهزمت هزيمة نكراء.»

الرقص

إننا نؤمن أحياناً بأشياء لا نجد لها تبريراً مقنعاً و واضحاً، فانا مؤمن منذ نعومة أظفارى بتعاليم الكنيسة وآراء المسيح فى أن لعب الورق والرقص والتردّد على المسارح من الامور المحرّمة، ومع ذلك فقد حاولت عبثاً أن

أجد فى تعاليم المسيح أو فى الإنجيل ما يبرّر مثل هذه الاتجاهات التى كانت تُحرّمها الكنيسة. على أننى لم أهتم إلى شىء، فإن أى نشاط - مهما تبلغ مزاياه - قد يكون مصدر شرٍّ يلحق بنا أو شرك ينصبّه الشيطان لنا.

فالرقص مثلاً له فائدة عظيمة، وقد نصحتُ به المئات من زائرى، ومن الأمثلة الواقعية على هذا الأمر شاب قصة الذى أتى إلىّ وهو يفكر جدياً فى الانتحار، ومع أنه كان يشغل منصباً مرموقاً، إلا أنه بعد إجراء الاختبارات النفسية عليه اتضح لى بعض النقاط: أن هذا الرجل يبلغ السادسة والعشرين من عمره، ولا يفكر إلا فى نفسه، بل يبالغ فى هذا التفكير، وأنه محروم من الأصدقاء ومعدوم الصلّات الاجتماعية، ويقضى معظم أمسياته فى المطالعة، كما اعترف أنه لم يصادق فى حياته امرأة واحدة، ولم يدعُ أية امرأة أو فتاة إلى مرافقته فى أية نزهة، ويتجنّب قدر طاقته أن يظهر فى مكان مع إحدى النساء، وهذا بالطبع أحد مظاهر مشكلته وهو مظهر أساسى مهم.

وقد جرت العادة فى مثل هذه الظروف أن يُقال لمثل هذا الشاب: « أنت فى حاجة إلى امرأة. » والواقع أننى خلال رحلة حياتى العلاجية لغيرى لم أنصح المرضى الرجال منهم بأنهم فى حاجة إلى امرأة أو أنصح أية امرأة بأنها فى حاجة إلى رجل، إنما كنت أدلى فى المئات من الحالات التى عُرِضَتْ علىّ باقتراحات عملية، اقتراحات تقود الواحد منهم إلى اكتساب العادات وأوجه النشاط التى تؤهّله ليكون زميلاً مؤنساً لغيره من أفراد الجنس الآخر، وقد كنت فى هذه الأثناء أنصح المرضى بأحد أوجه النشاط النافعة مثل لعب البريدج، والرقص حيث كنت أعتبر الرقص أسرع بل

أقوى مستحدثات العلاج النفسى لرفع ذلك السَّيَّاح المصطنع الذى يقوم حائلاً بين أفراد الجنسين .

واليكم ملاحظاتي التى دَوَّنتُها بخصوص مشكلة ذلك الشاب وقتذاك :
إن البشر ينقسمون إلى قسمين : رجال ونساء ، وأنت إذا عجزت فى صِغَرِكَ عن إثناء عادات أساسية معينة ، مثل معرفتك بالجنس الآخر تكون قد استبعدت من حياتك كلية ذلك الجانب الأثنوى من الحياة . إن قدراً كبيراً من طاقة الفرد الطبيعية - باعتباره مخلوقاً بشرياً - لا يمكن إشباعه دون التعبير عنه من خلال ذلك الجانب من الحياة الذى يتأتى من هذا الجانب الانفعالى ، الذى يتم بين الفتيان والفتيات ، إن هذه الطاقة المخبوءة داخل طيات الجنس البشرى مع اختلافه لا بد لها من مُتَنَفِّس فى حوارات تدور بين الجنسين ، والمواظبة على التردد على الحفلات التى تضم الجنسين ، إلى غير ذلك من أوجه النشاط التى توفرها هذه الزمالة ، وأخيراً الزواج ، فالزواج والأبوة هما الذروة التى يبلغها التعبير عن طاقة المرء الطبيعية بالنسبة للجنس الآخر .

ومع ذلك ، فكثيراً ما يتملِّك الناس أثناء طور شبابهم خوف الملامسة البدنية للجنس الآخر ، فتراهم يقيمون «سياجاً بدنياً» بلغ جُموده وعُنفه حدّاً جعلهم ينفرون حتى من أكثر الملامسات البدنية شيوعاً ، فقد يستمتع الفتى بالقصص الغرامية والمواقف المثيرة فيها ، ولكنه ما يكاد يلج عالم الحقائق ، حتى يتصور مجرد مصافحته لإحدى الفتيات تجربة قاسية يؤثّر لو تجنَّبها وابتعد عنها .

إن كلَّ مَنْ يشعر بأن مثل هذا السَّيَّاح قائم إنما يُفْسِد على نفسه جمال المقابلة العَرَضِيَّة بينه وبين إحدى النساء ، حتى ليغدو الحديث معهن أشدَّ

صعوبة من الحديث مع الرجال، ومن ثم تصيرُ النساءُ جنسًا غريبًا عنا، لا لسبب إلا لكونهن إناثًا.

أما الفائدة التي يجنيها المرء من الرقص، والتي من أجلها كنت أنصح مرضاى بممارسته فهي اعتياد الرجل ممارسة الملازمة الجثمانية لا مع امرأة واحدة فحسب، بل مع عدد وفير منهم، إلى أن يقتنع في النهاية أن الأمر أبسط مما كان يتصور.

وليست هذه هي الفائدة الوحيدة فحسب، فإن شحذ الشخص لقدرته التركيفية في محاولة ضبط انتباهه بحيث يتوافق وقع خطواته مع خطوات زميلته التي يرقص معها ليس إلا نشاطًا يتطلب عنصر التعاون، حيث يكافح الاثنان في سبيل بلوغ الكمال في الرقص، وفي هذه الحالة يُخضع كلاهما قدميه لخطوة بعينها تتطلب إيقاعًا خاصًا، ومن ثم يجد نفسه مضطرًا إلى ضبط خطواته مع زميلات عديدات مختلفات، كما يجد نفسه مرغماً على التحدث إلى كل منهم في موضوعات شتى، ومسوقًا إلى تحريك قدميه تبعًا لخطوات مختلفة وفق ما تُمليه الأتغام الراقصة.

خلاصة القول إذاً في مسألة الرقص هذه أن الفتى بمزاولته الرقص لا يكتشف أنثى واحدة فحسب، بل يكتشف جنس النساء كلهن، فإذا هو يكتسب مرونة العلاقة والتوافق، وينمو داخله أن هذا الجنس الذي يخشاه ما هو إلا بشر مثله، وأن النساء لسن عنصراً مخيفاً معقداً على نحو ما كان يتخيل، وهكذا يكون الفتى قد خطا خطوة واسعة في سبيل القدرة على التعبير عن طاقته من خلال ذلك الجانب الآخر من الحياة. ولا عجب، فإن جزءاً كبيراً من هذه الطاقة قد هيأتها الطبيعة لهذا الغرض.

وقد يتساءل المرء ما أهمية هذا الموضوع فى العلاج النفسى أو الضبط السلوكى . ومن الناحية العلمية فإنه حرىّ بالفرد أن يتكلم قليلاً ويعمل كثيراً، ومن ثم فإن هذا الميدان من النشاط قد نال أهمية كبيرة فى السنوات الأخيرة، حتى أنه تحول فى بعض الأحيان إلى صيغ جدلية نات بصيغة النشاط العملى المأخوذ من الرقص جانباً. والواقع أن الرقص كغيره نشاط اجتماعى يتطلب حيازة قدر كبير من العادات البعيدة عن الأثرة، ومن هنا كنت أنصح كثيراً ممن يترددون على بالتماس السعادة باستخدام أقدامهم حتى تتوافق إيقاعات حركاتهم مع إيقاعات حركة أقدام الآخرين، إن استخدام الأقدام فى بعض الأحيان ينشر جواً من السعادة والهناء والصفاء قد نصل إليه بعيداً عن استخدام الفكر.

حول قراءة الكتب المفيدة

قدّمت لى إحدى السيدات قائمة تضمّ حوالى مائة وخمسين كتاباً، دونت على رأسها هذه الملاحظة: «أنا لا أغير الكتب التافهة التفتاً، ولا أطلع سوى الكتب التى ترقى بعقلى وتُنمى معلوماتى الأدبية، وها هى ذى قائمة الكتب التى طالعتها على مدى السنتين الأخيرتين.»

والواقع أن الكتب الواردة بتلك القائمة كانت من أفضل السير الشخصية والقصص والمقالات، وقد أثبتت على حسن اختيارها ولكنى سألتها: «إلى كمّ من الناس قد تعرّفت وأصبحت على صلة وثيقة بهم فى السنوات القليلة الأخيرة؟» والواقع أن هذا السؤال قد أحرّجها، لأنها تكاد لا تذكر أسماء خمسة أشخاص تعرّفت عليهم حديثاً، ويمكنها أن تقول إنها على صلة بهم غير صلة التّحية العادية.

وقد تبين لى أنها أُنصَت سنة كاملة بإحدى الكليات تدرس «الشخصية»، وعرضت على «كراسة محاضراتها» التى تضمُّ عددًا كبيرًا من الرسوم والبيانات التى توضح المحاولات التى بذلتها هى وبقيّة أفراد فصلها فى سبيل قياس صفات الشخصية المختلفة.

فسألتها: «وكم عدد أفراد فصلك هذا؟» فأجابت قائلة: «سبعة وثلاثون يبلغ عدد الذكور فيهم أكثر من النصف.»

فسألتها: «وهلا كنت تتناقشين مع أحد طلبة الفصل فى أى موضوع من هذه الموضوعات سواء قبل الدرس أو بعده؟»

فقلت إنها كانت تصل دائماً فى الوقت الذى يبدأ فيه الدرس، وتبارح الفصل عقب انتهائه مباشرة، ولذلك لم تكن لديها الفرصة كى تفعل ذلك.

فأريت أن أقتحم عالم شخصيتها الملتزمة الدقيقة الذى لا يضيع فيه وقتها سُدًى بعد أن استعدت قولها إنها تعلّمت دروساً كثيرة منها أن تبسم أكثر الأحيان، ولا عجب فالبسمة العذبة هى أحد العناصر القوية فى الشخصية الجذّابة، أو فى الشخصية التى تتوى أن تغدو إيجابية جذّابة. ورُحّت أنأمل شكل ابتسامتها وهى تُبادلنى الحديث، فوجدتها ابتسامة واسعة يفتح فيها ثغرها عن أسنان مستوية مصفوفة، لكنها ابتسامة تغدو مرسومة بحنكة ودراية لا حياة فيها ولا روح، فهى ابتسامة آلية لا تنطوى على قدر من السعادة أو الصدق، ولم أكن فى مثل هذه الظروف لأناقش العناصر الأساسية المفروضة فى الابتسامة الطبيعية، وانتقلت عَجلاً إلى تفسير المصاعب التى تصادف الإنسان فى سبيل تكوين شخصية سليمة إذا

أصرّ هذا الإنسان على العيش وَحْدَهُ فى فراغ بلا حدود، وقد أشرتُ عليها بالالتحاق إلى بإحدى الجمعيات والاندماج فى نشاطها الاجتماعى، وأن تتخذَ دورًا إيجابيًا فيما تؤدِّيه نحو المجتمع وأن تتعلَّم الرقص، واقترحت عليها أن تتوقَّف لمدة عام عن قراءة الكتب أو مطالعتها أيا كان نوع الكتاب، على أن تقتصرَ فى هذه المطالعة على مجلتى «نيويوركِر» و «ريدرز دايجست»، وأن تقرأ كل يوم فصلاً كاملاً من الكتاب المقدس، وتتصفحَ آية صحيفة يومية تختارها، وأن تُنفقَ المال الذى تبتاع به كُتُبها وفى استشارة الأطباء النفسيين فيما يختص بشخصيتها مثلاً فى اقتناء ثياب جذابة، والاعتناء بزيتها الخاصة بالإضافة إلى إنفاق مثل هذه الأموال فى الأنشطة الإنسانية الأخرى التى تتعلَّق بمن تُخالطهم من أفراد المجتمع.

كانت هذه المرأة واحدة من المئات بل الآلاف اللاتى يتصورن أن فى وسعهن تحسين شخصياتهن بتركيز أفكارهن فى أنفسهن.

إن انشغالنا فى الاستغراق بذواتنا قد يُبدد فرحة الجمال التى ترسمُ على وجوهنا، فإن انشغال النساء بأنفسهن يشبه تمامًا المرأة التى تفكر بعقلها فى جمالها، فإذا هى جلست أمام المرأة وَحَدَّت النظر و أحدثه فى جمال بشرتها وهيئتها، ثم إذا صادفت أن تجد «تجعيدة» بسيطة قد أثرت فى مساحة وجهها، فإذا بها تحاول أن تستكشف ما هو أكثر من ذلك حتى تطيل النظر وتمعن فى التحديق، وتقرب بوجهها من المرأة حتى تكاد تلامسها، ثم تشرع فى فحص «تجاعيدها» بعناية فائقة فستنال مرآة اليد، وتسرح نحو الضوء الأكثر حتى تتبيّن ما هو أكثر. وكلما أُمعنت النظر وزاد اقتراب وجهها من المرأة تضاعفت بشاعة التجاعيد، فإذا هى تبدو آخر الأمر عجوزًا شمطاء قد ولّى بريق وجهها وصفاءه، ولو أنها قَضَت هذا الوقت

الذى أسرفتْ فى تمضيته أمام المرأة فى اكتساب جملة من المعارف، أغلب الظن أن الجمال سيطفو على وجهها بغزارة، وستتبدد أغلب تجاعيد وجهها، وأن أثر التجاعيد يرسم صفحة وجه جديد جميل، إن التجاعيد التى أزعتها دهرًا لن تزعج واحدًا من عشرة من الحاضرين الذين تُخالطهم.

حول الأخلاق والشخصية

ويتفق علماء النفس والاجتماع على أن الغرض من التربية المنضبطة هو بناء شخصية سوية تسمو فيها الأخلاق وتتألق فيها القيم الرفيعة، ومع ذلك فإنك لن تجد إجماعًا واحدًا بين الإخصائيين أو التربويين على تعريف للأخلاق أو الشخصية. وهذه النقيصة هى الضعف الأساسى لوسائل التربية الحديثة، هذا الضعف يؤدى إلى الفوضى والارتباك فى نظم التعليم؛ إذ كيف تبلغ التربية أهدافها إذا لم تُحدد هذه الأهداف؟!

فإذا قال الناس عن شخص ما إنه حميد الأخلاق فهم إنما يعنون أنه أمين لا يسرق، وصادق لا يكذب، متزن فى سلوكياته، ومع ذلك قد يكون تافهًا غيبًا لا دورَ له فى الحياة، ولا ينفع أحدًا، ومع كل الأوصاف الطيبة الصادقة التى ربما نلصقها بإحدى الشخصيات، إلا أننا فى النهاية نقول إن هذه الشخصية تفتقر إلى شىء ما وهو أنها شخصية غير فذة، والسؤال ما المانع فى ذلك؟

إن علماء النفس يُجمعون على أن التعريف الصحيح للشخصية هو أنها مدى استعداد المرء لتحويل قدراته وطاقاته إلى مآثر وعادات تُكسبه محبة الناس.

فالفتاة التى إذا داعبت أناملها البيانو وطرب لهذا العزف آخرون هى بلا شك ذات شخصية أفضل من الفتاة العاجزة عن مثل هذا النشاط .

والصبى البليد غير الجذاب الذى يُتقن لعب التنس يغدو أشد جاذبية خلال لعبه، وتوفّر له مهارته فى اللعب حاجته من الأصدقاء الذين لم يكن فى إمكانه التعرف عليهم لو لم يكن يجيد لعب التنس، والرجل والمرأة اللذان قد اكتسبا عادات تسلية الغير، ومدّ يد المساعدة إلى الناس لا حاجة بهما أن يقلقا إذا كان الأول أقل من أدونيس^(١) جمالاً وإذا كانت الثانية دون فينوس^(٢) فتنة .

الواقع أن المهارة المكتسبة فى كل من ميدانى الألعاب والعمل هى التى تُشكّل الشخصية وتمنح المرء الجاذبية والقدرة على التأثير . وكثيراً ما كان يصارحنى بعض مرضاى قائلاً:

«إذا كان الناس لا يحبّونى لشخصى، بل لِمَا يُمكننى أن أفعله وأؤديه لهم، فإنى أفضل ألا يحبّونى على الإطلاق» .

إن مثل هذا الاتجاه قد يُلْقَى بعض الظلال على كيفية الحكم على طبيعة الشخصية، فربّ فرد جذاب الصّورة، لكن الصورة ليست هى الشخصية، إلا إذا قامت هذه الصّورة بأداء عمل ما أن نقيّم الشخصية ونفهم طبيعتها، ولهذه الأسباب اهتمّ علماء النفس بصفات الشخصية لا الشخصية نفسها، فإن الشخصية ما هى إلا مجموعة من الصفات والتصرفات التى يمكن

(١) أدونيس صياد فى أساطير الإغريق جاء فى وصفه أنه كان جميلاً كالكأس المتّعة، وله وجه أبيض كالحبّ، تتدفّق الخمر فى دمه وتكمن فى عينيه وتشتال على لسانه . (المترجم)

(٢) فينوس ربة الجمال والحب فى أساطير الإغريق . (المترجم)

الحُكْمُ عليها، ومن ثم فقد توصلُوا إلى تحديد مجموعة من صفات الشخصيات مثل الشخصية الانبساطية بدرجاتها، ودرجة النجاح الاجتماعي، ودرجة الاكتفاء الذاتي، ودرجة الاتزان العاطفي وكل يواكب هذه العادات أو الصفات، ومهما يكن نوع التعريف أو الاختبار المستخدم في معرفة الشخصية، فإن وحدات القياس تكون دائماً إما عادات مكتسبة من البيئة أو الأشخاص، أو مجموعة الاتجاهات والميول التي تُسمَّى بالعادات.

إن للشخصية صفات من الصعب قياسها، فالأمانة على سبيل المثال صفةٌ من الصفات التي يصعب قياسها، لكنها تُعتبر في عُرْف علم النفس إحدى العادات الانبساطية التي تعنى مراعاة حقوق الغير، والكفاح هو الآخر من الصفات التي يصعب قياسها، لكن صفة قد تنمي وتزداد ومن السهولة قياسها في هذا الوقت. فإذا كان المرء قد اعتاد أن يبذل جهده وطاقته من خلال عادات متعددة، فهو يكون أكثر نشاطاً وكدّاً من ذلك الذي يكتنز جهوده ويدخرها.

وليس هناك غضاضة في أن يقال برغم ذلك إن التاريخ زاخرٌ بعدد وفير من الشخصيات الفذة، وذوى الأخلاق الفريدة ممن لم يكن للدين تأثير عليهم، ويقودنا هذا الطرح إلى سؤال مهم آخر: « ما المبادئ أو القيم الأساسية التي تساعد أكثر من غيرها في بلوغ المرء الشخصية المتميزة؟ »

ولا أظن - في النهاية - أن يُنكر أحدٌ أن أعظم الشخصيات المُلحدة في التاريخ، إنما قادتها السُّمُلُ العُلَيَّا بعيداً عن ذاته حتى جعلته بالكاد يقترب من العقيدة الدينية البالغة السُّمو، تلك المعتقدات البالغة السُّمو.

الفصل السادس

إنما نحن من يصنع الأطفال!

«ولكن كل تأديب فى الحاضر لا يرى أنه للفرح بل للحزن. وأما أخيراً فيُعطى الذين يتدربون به ثمرٌ بَرٌّ لِلسَّلام؛ لذلك قَوْمُوا الأيادى المسترخية والركب المخلَّعة، واصنعوا لارجلكم مسالكَ مستقيمة، لكى لا يعتسف الأعرج، بل بالحرى يُشفى»
(الرسالة إلى العبرانيين ١٢: ١١-١٣)

فى إحدى الأمسيات الشهيرة فى شهر سبتمبر الحار، تطرَّق بنا الحديث إلى مستقبل ولدينا اللذين بلغ أحدهما الرابعة والآخر الثانية، وإن كان يجدر بنا أن نصطحبهما بانتظام إلى الدروس الدينية أم لا. لكن الهاجس الذى كان يسيطر علينا ونحن نناقش هذه الفكرة أنا وزوجتى هو أننا كنا نُساقُ قسراً إلى هذه الدروس، بل إلى الكنيسة بالمثل. وما أكثر ما كنا نثورُ ونعترض على مثل هذا التَّعَسُّف فى إرسالنا إلى ما لا نحب أو نرغب، لكننا فى النهاية استسلمنا وذهبنا مرغمين على الذهاب، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل كانا يلزِمَانَا بِمُرافَقتهما كلما تَوَجَّهَّا فى إحدى المناسبات إلى الكنيسة أو الجمعيات الدينية.

وقد اعتدنا في بيوتنا أن ندعو الله قبل كل وجبة، ونُصلي صلاة قصيرة، كما كنا نُشارك في جميع الصلوات مشاركة إيجابية يقرأ كلُّ منا فيها جزءاً من الكتاب المقدس، ثم ننحنى راكعين في خشوع وراء رب الأسرة الذي كان يؤمُّنا في الصلاة.

على أننا بعد هذه التربية الدينية الواضحة ما كدنا ندخل الجامعة حتى طرَحنا تلك القيود الدينية جانباً، ولم نتحرَّر منها فحسب، بل إن الثقافة التي كنا نتلقاها وتنزودُّ بها قد حرَّرتنا منها، فأدركنا في ضوء العلم الحديث، مدى تفاهة الكثير مما ورد بالإنجيل، وغدت الشُّكوك التي كانت تُراودنا على استحياء ونحن في طور نشأتنا تحتلُّ مساحة عريضة من أذهاننا، وتقتحم علينا تفكيرنا دون حياء أو خجل، الأمر الذي دَفَعنا إلى أن نضع معظم تجاربنا تحت مجهر الأبحاث العلمية والتاريخية، ومن ثم سكنت هذه الأفكار بهدوء في سراديب عقولنا التي لا نفتحها أبداً . . . وربما لا نحتاج إليها ألَّبتة.

لقد غدت عناصر الدين المحسوسة والمتتمثلة في الممارسات الدينية المتعددة من هيئات وأشكال للعبادة ومروراً بآماكن العبادة مثل الكنيسة وأقسامها المتعددة، وما يتبعها من المذاهب والعقائد، وتقسيم الناس إلى فرق دينية مختلفة، كل هذه العناصر تحوَّكت في عقولنا إلى أخطاء وليدة الخرافات، استنبطتها من وجهة نظرنا عقولٌ قاصرةٌ تحاول من خلالها تفسير الجوهر الروحي للدين.

أما العناصر المعنوية للعقيدة الدينية التي كنا نُعنى بها فهي الجانب الروحي غير المحسوس، فهو ما استقر في أذهاننا، ذلك أن الإله قد تجرَّد

عن أى مظهر أو أى ارتباط مادى ملموس، هذا فى واقع معرفتنا وسلوكنا
اليومى أو النظم التى نَسْكُنُ عليها. وهذا الجانب أيضًا يُسمَّى بالإيمان
الروحى بالله.

والواقع أن هذا الجانب الروحى من الوجهة العلمية حقيقة معنوية
ومجرد فكرة عقلانية نؤمن بها ولا ندرك ماهيتها أو الإحساس بجانبها
المادى الملموس. إن هذا الأمر يشبه تمامًا النتائج التى قد يصل إليها عالم
الطبيعة عند تحليله للمادة، فى حين يبدأ أبحاثه من أساس واضح ملموس،
وأعنى به حقائق المادة، فإذا به يصل فى نهاية الأمر عن طريق العناصر
والذرات والجزيئات وحُبيبات الأثير إلى تعريفٍ مُجردٍ غير ملموس، وهو
أن المادة تتألف من ذرات عديدة فى حركة دائبة. إن البحث الذى قام به
علماء الطبيعة ليصلوا إلى شىء ملموس أوصلهم إلى لا شىء، أو بالنسبة
إلى إدراكنا المادى أوصلهم إلى أثَقَه مما بدءوا به.

وهكذا بدأنا نحن وغيرنا بثراتٍ جوهرى - وإن لم يكن مصدرَ راحةٍ لنا
- والمعنى أننا بدأنا بثراتٍ جوهرى من العادات والتقاليد الدينية، التى
ساعدتنا على تصور الله فى صورة معنوية مجردة، ربما كانت الذرات
العديدة ذات الحركة الدائبة ... من يدرى لعله هى؟

هذا التصور الذى أنقله لم يكن توضيحًا لحالتى أنا فقط، فإن كثيرًا من
الطُّلبة قد تجاوزت حدود تخيلاتهم العقلية خطوطًا حمراء إلى حدِّ حدا
بعض الطلاب أن يتصوروا الله فى صورة إنسان، أو تحويل كل ما هو
مادى ملموس فى الدين إلى جانب معنوى أو إلى مستوى الفكر المجرد،
إلى حدِّ أوصلهم إلى عدم الإيمان بأى مُعتقد، حتى أصبحوا مثل العديد

من الأساتذة الذين أوصلهم مثل هذا الفكر إلى الإلحاد والتشكك، لكننى أقرر أيضاً أن بعض الطلاب فى المعهد كانوا من الغباء بحيث كانوا يصدون أمام المعانى والتفسيرات التى كانوا يتلقونها بالمعهد أو قل من المناعة بكان، بحيث كانوا يصدون أمام كل المعانى والتفسيرات التى كانوا يتلقونها بالمعهد، وظلوا على إيمانهم بتلك المبادئ والأنظمة الفجة التى اكتسبوها منذ طفولتهم المبكرة، ويعنى ذلك أن تحرر الطلبة من العقائد الدينية كان يتناسب طردياً مع رقم ذكائهم القياسى، فكلما ارتفعت نسبة الذكاء أدركوا تفاهة الدين وسخافته.

وبعد أن نلتُ وزوجتى درجة «ألفا بيتا كاپا» كنا قد تشبعنا إلى الحد الذى أصبحنا به من غلاة الملحدين، وحتى لو تبقى فى نفسنا بعض بقية من إيمان، ولم يكن هذا الإيمان المتبقى على تفاهته ونذرتة يمتُّ بصلة للكنيسة أو لعظاتها التى أصبحت لفرط سخافتها تعافها أنفسنا. ولا عرو فقد كنا نعتبر نفسنا فوق هذه الترهات^(١)، أى كنا أعلى من تعاليم ودروس الكنيسة نفسها.

وقد خلصنا من خلال المناقشات التى تبادلناها أنا وزوجتى فى القطار إلى أننا لن نرتكب هذا الخطأ الجسيم الذى وقع فيه الآباء، وقد قررنا بعد ذلك أننا لن نحاول أن نشجع ولدنا على التردد على الدروس الدينية، كما أننا فى الوقت نفسه لن نرغمهما على الامتناع عن الحضور، بل ندعهما يفعلان ما يريانه بأنفسهما صائباً، إذ لا داعى لتكرار تلك العقوبات

(١) ينطلق المؤلف فى ذلك من وجهة نظر خاصة كان يؤمن بها فترة من حياته حتى تبين له سوء اعتقاده وفساد ظنه. (المترجم)

الصارمة التي كان آباؤنا يوقعونها علينا، ومن ثم اتفقنا على أن ندع أطفالنا يفعلون ما تشير به عليهم عقولهم، فإن شاءوا الاستماع إلى هذه الدروس فليذهبوا، وإن أبوا فليفعلوا ما بدا لهم. والواقع أن كلينا كان جدّ مغتبطاً بهذا القرار الذي يُسَيرُ أسلوب عصرنا الحديث، والذي يسمّونه في علم النفس «التعبير عن الذات».

كنت أنا وزوجتي أحد أولئك الأزواج العديدين الذين وصلوا إلى مثل هذا القرار، وهو عدم إيفاد الأبناء إلى دروس الكنيسة أو إلى دور العبادة، وذلك حتى يصلوا إلى السن التي تُمكنهم من قياس فعالية الخطأ والصواب، ومن ثم قدرة الاختيار بين هذين التقيضين، غير أن الذي كان يشغل بالنا ويشغل بال هؤلاء الأزواج أيضاً هو حَدْبهم على الأطفال في الإجابة على سؤال مُهم، وهو هل يكتسب هؤلاء الأولاد ذلك الشعور الجارف الذي يُتيح لهم القدرة على التمييز بين الخطأ والصواب؟ هل يؤمنون بتلك المثل الخلقية الواضحة التي آمنّا بها منذ طفولتنا؟

إن هؤلاء الأزواج الذين فقدوا الثقة في تعاليم الكنيسة، ومن ثم منع الأطفال أو ترك الأطفال لاختيارهم في الذهاب إلى الدروس من عدمه قد يكونون معذورين فيما ذهبوا إليه، لكن الأكثر من ذلك قلقهم على أولادهم في مسألة الاختيار بين الصواب والخطأ، ولتوضيح ذلك أقول إننا كنا نُسلّم فيما مضى بأن بعض الأعمال خطأ والبعض الآخر صواب، لأن الله تعالى حدّد ذلك بوضوح، أو لأن كتابه قد أورد ذلك بمعنى آخر. وقد تكون هذه الطريقة فطرية بدائية، غير أنه مما لا شك فيه أن تأثيرها كان طيباً، فقد عرفنا على الأقل الكثير عن طيّب الأفعال وخبيثها. أما الآن فإننا لا نقول لأولادنا هذا التصرّف خطأ أو هذا صواب، لا لأن التعاليم

الدينية قد أمرتنا أو نهتتنا عن ذلك، بل لأن المجتمع قد اتفق على ذلك. فهل مثل هذا القول يملك برهاناً وتأثيراً مثلما يملكها إحالة الصواب والخطأ إلى التعاليم الدينية؟

ثم هل يكتسب أطفالنا القيم الخلقية الأساسية للحياة دون الحاجة إلى ضغوط العقائد الدينية، تلك القيم التي نتقبلها ونسلم بها حتى بعد أن أصبحنا لا نسلم بمصدرها الإلهي؟

الواقع أني بئس لا أستطيع أن أتذكر عدد المرات التي كان يُطرحُ فيها مثل هذا السؤال السابق، وحتى وإن بدا بعض الآباء يروجون لوسائل ثقافية حديثة، غير أنني كنت أحس دائماً بالمسئولية الراضحة على عاتقنا، وإن لم تكن على استعداد للإجابة عن مثل هذا السؤال. ومهما يكن نوع الإجابات التي صدرت عنا فقد كنتُ موقناً أنها كلها خاطئة، بل خاطئة من جميع النواحي النفسية والفلسفية والعقلية.

إن تربية الأطفال لمن أشقّ الواجبات وأخطرها وأدقّها، إنها شديدة العُسْر والتعقيد، وهى بعد ذلك ذات أوجهٍ متناقضة يكون معها الآباء فى مَسِيس الحاجة إلى أى عونٍ خارجى مهما بلغتْ درجة تواضعه وبساطته.

وقد كان من الطبيعى أن يتحوّل الآباء الذين تبنّوا وجهة النظر السابقة - والتي يمكن أن نطلق عليهم الآباء المستنيرين - عن المعتقدات الدينية، ويضربون بها عرض الحائط إلى مصدر جديد من مصادر العون، ولم يجد هؤلاء أمامهم سوى علم النفس الخاص بالأطفال، غير أن الثقة بهذا العلم كانت غير مطلقة، وبخاصة وأنه كان فى طور النشأة ولم تكن الثقة قد اكتملتْ فى نظرياته حتى ذلك الوقت، وكان البرهان العلمى حينذاك فى مَهْدِه ضئيلاً برغم تعدّد نظرياته.

غير أن هؤلاء الآباء لم يجدوا مصرفاً عن اعتناق هذه النظريات، والتي كان من أبرزها أن العقوبة البدنية ضارة من الوجهة النفسية، وأنه من الأفضل إقناع الأطفال بعمل شيء ما لا إرغامهم بالقوة والعنف عليه، وأنه لا يجوز كبت مشاعر الأطفال، بل على العكس ينبغي منحهم فرصة التعبير عن ذواتهم، وأن استخدام الطفل ليدته اليسرى على الدوام ليس إلا حركة وراثية، وأن الطفل يولدُ ومعه مقياس ذكائه^(١) الذي لا يمكن تغييره بأى حال من الأحوال، وأنه ينبغي أيضاً منح الأطفال مصروفًا منتظمًا حتى يمكنهم إدراك قيمة المال، وأن بعض الأطفال يولدون بطبيعتهم عصبيين أو ذوى حساسية مُرهفة، ومن ثَمَّ لا يجوز إرغامهم على أن يفعلوا ويعملوا ما يفعله ويعمله غيرهم.

لكن هذه النظريات السابقة والنماذج التي قدمناها سابقاً لم يظهر لها حتى الآن أى برهان علمى أو نفسى يؤيدها، بل على العكس ثبت أن كل هذه النظريات خاطئة، وأن استخدام اليد اليسرى ليس حركة موروثه بل مكتسبة من الأفعال التي يقوم بها الطفل فى مراحل تدريجه المبكر، وأما مسألة العقوبة البدنية فقد أجمع معظم المشتغلين بعلم نفس الأطفال على أنه ليس مسموحاً بها فحسب، بل إنها أنجع الوسائل أثراً فى بعض الأحيان، وأنها أقل ضرراً من المناقشات الطويلة والإقناع المتواصل، كما أن لجوء الوالدين للأوامر الجبرية القاطعة، واستخدام السلطة التي لا تُردّ عنصرٌ لا غنى عنه فى مجال تربية الأطفال، كما أنه ليس صحيحاً أن مقياس

(١) تؤكد بعض أبحاث علم النفس والتربية الآن أنه في الإمكان أن نرفع درجة ذكاء الطفل من خلال اعتماد وسائل تربوية معينة، وتقبل بعض المذاهب الأخرى إلى القول بأن كل الأطفال يولدون بدرجة ذكاء واحدة وتؤدي البيئة والتربية الأثر الكامل في إحداث جانب من التفاوت بين طفل وآخر. (المترجم)

الذكاء هو الدليل المؤكّد على قدرة الطفل العقلية، وإنما هو مقياس تقريبي لما يمكن أن يؤدّيه الطفل في المحيط التعليمي السائد. ومعنى ذلك أن كثيراً ما يؤثر تدريب الطفل وبيئته - سواء أكانا صالحين أم فاسدين - في مقياس الذكاء، ويُغيّرانه عمّا كان عليه وقت قياسه؛ ففي أحد القياسات بلغ مقياس ذكاء بعض الأطفال ذوى الآباء المرتفعى الذكاء ١,٥٠ ثم هبط بعد خمسة أو عشرة أعوام إلى ١,٢٥ أو ١,٠٠ .

أما منح أطفالنا جزءاً مادياً على ما قد يُحقّقونه من إنجازات فهو وسيلة ناجعة لتزويدهم بفكرة عن قيمة المال وهو أمر مهم، غير أنه من الجائز أيضاً أن تُتمّى فيهم عادة الكسب دون عناء، كما أن المبالغة في تأكيد أهمية التعبير عن الذات - تلك المبالغة التى تُغذّيها الرغبة فى التعليم التّقدمى - تؤدى إلى الفوضى العقلانيّة والخُلقيّة.

والتعبير عن الذات فى الحقيقة أمر ضرورى مرغوب فيه، وإنما تُختار لذلك الفرص المناسبة، وما تلك الفرص إلا النظام والعادات المصطلح عليها بين الناس ليعيشوا معاً يسودهم التآلف والانسجام.

ولتأكيد وجهة النظر السابقة انشغلتُ فى إجراء تجارب خلال السنوات الثلاث الماضية لاستنباط اختبار للأطفال بين العاشرة والثامنة عشرة لقياس صفات معيّنة فى شخصيّاتهم أو عاداتهم، على نمط اختبارات مشابهة اكتشفها بعض علماء النفس لتطبيقها على الكبار^(١)، أما تلك التى يقيسها هذا الاختبار فهى:

(١) بعد أن فرغ المؤلف من هذا الاختبار سُمّي «اختبار لِنك لقياس للشخصية» Link Personality Quotient Test. وقد طُبّق في مئات المدارس بالولايات المتحدة باعتباره مُتممًا لاختبار الذكاء، وقد أوسّع المؤلف تفضيلاً في كتابه الذى صدر عام ١٩٣٨ بعنوان *The Rediscovery of Man* وتكرّر طبعه بعد ذلك. (المترجم)

الانبساطية: أو عادة الانتباه إلى الغير والالتفات إلى مُيولهم، وعادة إنماء المهارة والمنافسة في أوجهٍ مُعينة من النشاط.

القدرة الاجتماعية: أو عادة التَّسابق إلى الاختلاط بالناس والتعامل معهم.

التحكُّم في الذات: أو عادة إخضاع المرء ميوله الدافعة لهدف أسمى.

التحكُّم الاقتصادي في الذات: أو عادة الكدَّ والعمل في سبيل اكتساب المال أو أى هدف آخر له قيمة ماديّة.

المعاملة الصحيحة بالنسبة للجنس الآخر: أو عادة تقبُّل أعضاء الجنس الآخر والتعامل معهم.

وقد طُبِّقَ هذا الاختبار على ألفى طفل، وأُجرى عليه تحليل إحصائي دقيق، واختُبر مراراً، وتمخَّضت نتائج هذا الاختبار عن أن العادات التالية ينبغي أن تكون على رأس قائمة العادات المهمة الملزمة للشخصية :

١- التردّد على حلقات الدروس الدينية، وملازمة الوالدين في الذهاب إلى دور العبادة، وقد أسفَرَ الاختبار عن أن الأطفال الذين يتصفون بهذه الصفّات كانوا أكثر انبساطاً وأرقى اجتماعياً من زملائهم الذين يفتقرون إلى هذه الصفّات، فإن الارتباط بدور العبادة يعدُّ عاملاً مهماً في إنماء صفات الشخصية، تلك الصفات التي نتمنّى دائماً وأبداً أن تتوافر في أبنائنا، كما أن مداومة الأطفال على الاستماع إلى الدروس الدينية هو أحد العوامل المهمة.

٢- كذلك يعتبر الأطفال المنضمون تحت لواء جمعية ما، مدرسيّة كانت أو غير ذلك، والمُتمتمين إلى أحد النوادي والمُشاركين في جوقة موسيقية

أو فرقة مسرحية إلى غير ذلك، والمواظبين على حضور أوجه النشاط المدرسى كالمسابقات الرياضية والرحلات والتمثيليات والمُنَاطرات أكثر انبساطاً وأرقى اجتماعياً من أولئك الذين ليس لهم مثل هذا النشاط.

٣- إن الأطفال الذين يؤدّون ما لا يحبّون، لا لسبب إلا أنه مفروض عليهم أن ينجزوه، والأطفال الذين يحاولون ممارسة كافة الأنشطة حتى لو عجزوا عن التّفوّق في أدائها، والأطفال الذين يكافحون لتحقيق ما هو عسير التحقيق، والأطفال الذين يقضون على رغبات النفس في إنجاز ما هو أيسر وأسهل ويبدعون بما تعافه أنفسهم، وأولئك الذين يفعلون كل ما يكرهون؛ لأن ذلك يساعدهم على تحقيق آمانياتهم وطموحاتهم، كل هؤلاء الذين يتّصفون بهذه الصفات والميول يكونون أشد انبساطاً وأشدّ تحكّماً في أنفسهم ممّن يفتقرون إلى هذه الصفات، أما أولئك الذين لا يكفّون عن قولهم: أنا عاجز عن فعل هذا الأمر، أو أنا لا أجيدُه، و الذين يفتقدون صبرهم ومن ثم يرفضون المحاولة المرة الثانية والثالثة فأولئك تسيطر عليهم بلادتهم، وأولئك الأطفال الذين يرفضون المشاركة في أية لعبة رياضية لأنهم لا يُجيدونها، كل أولئك تجدّهم أشدّ انطواءً من الناحية الاجتماعية عن زملائهم.

وثمة مجموعة من العادات المردّولة التي قد تؤدي بالفرد إلى الانطواء والخضوع الاجتماعي والاعتماد على الغير، فإن فقدان المرء لأعصابه بين وقت وآخر، وتجهّمه وعُبوسه، والمبالغة في تفسير الأحداث العادية وكثرة اللّغظ حولها، ومقابلة الهزيمة بالحزن والاكتئاب، والانشغال بالتفكير فيما يرتكب من أخطاء. كل هذه الصفات لو تمكّنت من الطفل حرّمتَه القدرة على اكتساب صفات الشخصية المحبوبة والعادات المرغوبة، بل قد تكون

سبباً أيضاً فى تولّد الشعور بالنقص وفقدان الاتزان العاطفى، فى حين أن الصفّات التى أوردناها من قبل هى المصدر الذى يُولّد الشعور بالتّسامى والاتزان العاطفى.

إن عادات مثل انتقاد الغير، وتَعَقُّب أخطائهم، وقطع سياق حديثهم، والتلفُّظ بكل ما يخطر على البال دون رَوِيّة أو انتقاء، كل هذه العادات من العوامل الرئيسية التى تؤدى إلى خلق شخصيات خاضعة اجتماعياً، مفرطة فى الحساسية كلما انتقدها الغير.

أما الطفل الذى اعتاد أن يبادر بالمديح والإطراء، وأن يختار من الألفاظ ما يُدخل السعادة والسُرور على الغير، ويحاول أن تكون صلته وُدّيّة مع الناس جميعاً سواء أ كان يميل إليهم أو يَنفِر، والطفل الذى اعتاد ضبط شعوره والتحكّم فى تصرفاته حتى أنه لا يكشف للناس ما يتأجّج فى صدره من غليان، إن مثل هذا الطفل يتحلّى بصفات شخصية فى منتهى الرّفعة، ولا يُضيرُهُ انتقاد الناس له أو يؤثّر عليه على الإطلاق.

وما من شكّ فى أن الطفل الذى يستسلمُ للنعاس بمجرد أن يتوسّد فراشه هو بالضرورة أفضل من الطفل الذى يأخذ فى التأمل والتفكير بمجرد الاستلقاء على سريره. والأطفال الذين يشاركون فى العديد من الألعاب الرياضية والمباريات، وبخاصة الأطفال الملتزمون بالاستمرارية فى ممارسة الألعاب الرياضية مثل الجمباز، هم بالضرورة أفضل مما لا يفعلون ذلك، كما أن الأطفال الميالىّن للرياضيات والعلوم بما فى ذلك علم الميكانيكا وفن الإدارة هم أفضل ممّن يؤثرون دراسة اللغات والتاريخ.

وإن منح الآباء والأمّهات مصروفًا دورياً لأطفالهم كى يعتادوا الادّخار ليس له أى أثر على شخصية الطفل، فى حين أن الأطفال الذين يسعون

إلى الكسب من بيع الصحف وتذاكر الحفلات فى أوقات الفراغ، بل يفضلون ممارسة هواياتهم، وينضمون إلى جوقات التمثيل والغناء، أولئك الأطفال يكون الأمل فى اكتسابهم صفات شخصية طيبة مرغوبة أعلى من أولئك الأطفال الذين لا يفعلون.

وفى النهاية أودّ أن أؤكد على أنه لا علاقة بين مستوى الطفل بالنسبة لصفات الشخصية التى يقيسها هذا الاختبار ومستواه فى دراسته، أو ذلك الذى يُطلقون عليه «اختبار الذكاء العام»، فلقد اكتشف بعض علماء النفس أنه لا علاقة بين الشخصية القوية المتوازنة وبين التفوق الدراسى أو النجاح المدرسى.

مثل هذه الاختبارات المتقدمة، ومثل هذا التحليل للعادات المرادفة للشخصية القوية هى فى الواقع المحاولة التى أولّاها علماء النفس اهتمامهم، فى حين أهملها علماء التربية والتعليم. والمقصود أن علماء النفس نجحوا فى حصر وترتيب العادات والعناصر التى تدخل ضمن تركيب الشخصية الناجحة، على حين لم يحاول علماء التربية والتعليم إلا ترتيب وجمع علوم الهندسة والحساب والهجاء والقراءة، كما أثبتوا أن تضافر العاملين فى أى مشروع يؤدى إلى تهيئة الشخصية المنضبطة وتشكيل العقل المكتمل.

ولقد صدرت المئات من الدراسات والألوف من الكتب التعليمية، والعديد من الدراسات التى تكشف عن الأساس والنظام الذى يقوم عليه التعليم العقلانى، وهو بلا شك أساس ضخّم راسخ من ناحية كمّ التفصيلات ودرجات الفهم والاستيعاب، فى حين أن ميدان دراسة

الشخصية وأنماطها وكيفية الوصول بها إلى درجات الرُقَى والانضباط والاستواء يكاد يخلو من مثل هذه الجهود التى بُدِلَتْ فى ميدان التربية.

فالعقول لا تُولَدُ بل تُكْتَسَبُ بالمران، وكذلك الشخصية يُصْقَلُها التدريب ويُهَذَّبُها. وبالرغم من أننا فى حاجة ماسّة إلى مكتبة علمية تبحث فى ميدان الشخصية، إلا أن الكتب السّماوية هى أعظم وأصدق المراجع التى تبحث فى هذا الموضوع. وقد أكّدت مكتشفات علماء النفس هذه الحقيقة بدلاً من مناقضتها. ويختلف علم النفس عن كل العلوم الأخرى فى هذه النقطة المهمة، فبينما تقول بقية العلوم إن أفكارنا القديمة ومعتقداتنا عن الطبيعة خاطئة، إذا بعلم النفس يكشف لنا أن الكثير من السنن والنواميس القديمة لتكوين الشخصية الناجحة والخلق القويم هى الصّواب بعينه. وإجمالاً نستطيع القول إن محاولة تكوين شخصية ناجحة الذى أتى ضمن هذا الاختبار هو: أن الطفل يستطيع تكوين شخصية ناجحة إذا ما اعتاد ممارسة كل ما لم يعتدّ أدائه، وذلك بإقبال الذات على إنجاز ما تستهجن، وفعل ما لا تحبُّ أو تميل إليه، فاستخدام الشّوكة والسكين قد يصبح أمراً عادياً وطبيعياً شرط أن يبذل الوالدان جهداً متواصلاً لتلقينه أصول استعمالهما الصحيح من أربع إلى ثماني سنوات. وبديهي أن الأطفال يختلفون، سواء من حيث طبيعتهم أو بحسب ما توارثوه، ولكن مهما تكن هذه الطبيعة أو الوراثة جيدة، فإنه لا يمكن غرس العادات الأساسية بدون «النظام». وكلما استاء الطفل من النظام وكان اتّجاهه عكسياً، حاولت إغناء العادات الطيبة فيه. هذا أمر لا مفرّ من أدائه، مع استخدام كل وسيلة ذات تأثير أو ذات طبيعة إجبارية تساعد على سرعة اكتساب العادات المفيدة. والواقع أن معظم الآباء يكونون فى أشدّ الحاجة

إلى الاستعانة بنصائح غيرهم أثناء عملية غرس العادات المرغوبة في أطفالهم. وإذا تأملنا فى الأمر من الناحيتين العقلية والنفسية، وجدنا أن معظم العَوْن فى هذا الصدد مُستمد من العقيدة الدينية، فالإيمان بوجود الله ورُسْله وكتبه يهئ للآبوين ملجأً أميناً موثقاً به يلجئون إليه، ويوفر بين أيديهم سُلطة كبرى على أطفالهم لو اتبعوا التعاليم الإلهية التى تُوفّر لهم نهجاً يفتقرون إليه لو لم يؤمنوا بالدين. إن هؤلاء الآباء الذين كانوا يتساءلون كيف يُشكّلون عادات أولادهم الخلقية وينمونها فى حين يفتقرون هم أنفسهم تلك التأثيرات الدينية التى كانت قد شكّلت أخلاقهم من قبل، كانوا فى الحقيقة يُجابهون مشكلة لا حلّ لها، فلم يوجد بعد ذلك البديل الكامل الذى يحلّ محلّ تلك القوة الهائلة التى يخلقها الإيمان بالخالق وبناموسه الخلقى الإلهى فى قلوب الناس.

أما الآباء الذين تحرّروا من الإيمان بعقيدة دينية، واستغنوا بالثقافة وإعمال الفكر عن العقيدة الدينية نراهم حيارى، يعيشون فى تساؤل وقلق دائم. وإذا كانوا كذلك فكيف يتسنّى لهم أن يكونوا أنفسهم ملجأً أميناً لأولادهم؟

ففى حالة عدم وجود هذا الملجأ الدينى الموثوق به، لا يسع أى أب إلا أن يفكر ويؤمن التفكير، ويبحث ويُطيل البحث قبل أن يستطيع أن يُفسّر لطفله ماهية الخطأ والصواب والخير والشر، ففى كل حالة من الحالات العديدة التى تصادفه يومياً، وفى كل عادة من العادات المختلفة التى يؤدّ غرسها فى طفله، وكلّما اشتدّ عود الطفل ونمّا، وازداد مع تقدّم العمر تأثير سلطات المجتمع عليه، بكل ما تنطوى عليه من تضارب المقاصد والميول والاتجاهات فى المدرسة وبين الجيران والزملاء والمدينة التى يقيم فيها ازداد

الأمر صعوبة وأصبح أشدَّ تعقيداً، فالتربية واجب شاق، وتلك حقيقة نلاحظها من هذا الارتباك الذى يراود عقول معظم الآباء هذه الأيام.

فالدين هو القوة الوحيدة التى يمكنها أن تكفل للإنسان القدرة على حل تلك المشكلات الخلقية والعقلانية التى لا مفرَّ منها، والتى لا تفتأ تقضُّ مضاجع الآباء والأمهات والأبناء والمجتمع بأسره. ولن تجد فى هذا العالم المضطرب الذى لا تمضى فيه فترة إلا ويشور الناس على السُّلطة القائمة محاولين تغييرها، باستثناء الله وحده هو الحى الباقى الذى لا يتغير ولا يتبدل.

فالطفل الذى اعتنق منذ طفولته المُبَكِّرة عقيدة وجود الله بصفته المُشْرِع الأعلى للخير والشرِّ، يكون قد اكتسب حافزاً أعلى يدفعه بقوة نحو فعل الخيرات والتَّحَلَّى بالعادات الطيبة، وبدلاً من أن يقوم صرَّحه العلمى والتربوى على فعل ما يُحِبُّ وتَرْك ما يكره، يكون بوازعه الدينى مُهيَّاً للقيام بما هو صواب والبُعد عمَّا هو خاطئ، فهو قد لا يطيع أمه فى أمر ما، ولكنه يعلم أنه قد أخطأ التَّصرف، وقد لا يُعيد إليها ما تَبَقَّى معه من نقود بعد أن يبتاع لها شيئاً ما، ولكنه يعلم أيضاً خطأ هذا التَّصرف، وقد لا يروقه جَرِيًّا على ذلك ألا يتنازل عن أنانيَّته مع زملائه أثناء اللعب، ولكنه ما يلبثُ بعد وقت أن يُرغم نفسه على هذا، فقد بات يُميِّز بين الخطأ والصواب، وطبيعى أن مثل هذه الطريقة ليست من السهولة بمكان ولكنها سرعان ما تُنمى فى الأطفال عادة التَّمييز بين الدوافع الأنانية والشخصية، وبين العادات الطيبة، وبين اللذة وبين الشعور بالواجب.

وبما لا شكَّ فيه أن تَغَلُّب المرء على كسله وبُلاذته، ومحاولة قَهْره للدوافع الطبيعية الكامنة فيه، هى الطريقة المُثلى التى يكتسب بها الطفل

العادات اللازمة للشخصية الناجحة، ويقدر ما يفرضه الدين على الطفل من عادات وأخلاق سوية وطيبة يلتزم باتباعها وتعلمها، يمضى الطفل طوعاً إلى اكتساب صفات الشخصية الفاضلة.

وما أكثر ما أدلى لى الآباء والأمهات بما يعترى أطفالهم من كسل طبيعي، لكن هذا الأمر قد يكون عند البعض راجعاً لأسباب بدنية، فالحيوية والنشاط عادات مكتسبة لا علاقة لها ببنية الإنسان، فبقدر ما يُحصّله الطفل من مهارات وبراعات، بقدر ما تتحوّل حيويته وطاقته البدنية إلى أفعال وأنشطة، ومن ثمّ يتغلّب على كسله.

كذلك يشكو بعض الآباء مما يعترى أبناءهم من عصبيّة وأنهم غالباً ما يفتقدون التحكم في أعصابهم. وبالرجوع إلى علماء النفس اتضح أن هذه الميول الطبيعية قد تتطور نحو اتجاهات أفضل وأشدّ نفعاً، حتى أنه قد يصل الأمر بالطفل إلى الإجابة التامة لكل ما يؤدّيه، أو يتميز في أداء رياضة ما وممارستها. إن التعاليم الدينية تُحدّد الخير والشر، ومثلما تُحدّد قدرة المرء على التغلّب على نوازع نفسه وقهرها، وضرورة أن يبعث الإنسان نفسه من جديد. مثل هذه الأمور ربما تبلغ ذروتها في الأهمية خلال سنى الطفولة التي يسهل فيها الخلق والتشكيل.

إننا قد نلمس جانباً من القصور في بعض دور العبادة بل وفي بعض العظات الدينية، لكن هذه الأماكن ومثل هذه العظات تساعدنا لا محالة في غرس الأسس السليمة لمعرفة الخطأ والأسس السليمة لمعرفة الصواب، وكذلك معرفة السلوك الأناني وغير الأناني في نفوس الأطفال، كما أنها تساعد في غرس الإيمان بالله، والاعتقاد المطلق فيه كمصدر إلهي لأسس

خَلْقِيَّة رَفِيعَةً، وَلِذَلِكَ فَهِيَ ذَاتُ فَائِدَةٍ عَظْمَى لِلآبَاءِ وَالْأُمَهَاتِ وَالْمَجْتَمَعِ،
كَيْ يُوقِرُوا الْأُسُسَ الضَّرُورِيَّةَ لِتَشْكِيلِ الْخُلُقِ الْقَوِيمِ وَالشَّخْصِيَّةِ النَّاجِحَةِ.

وَبِنَاءً عَلَى ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ الْمُسْتَغْرَبِ أَنْ تَكْشِفَ تَجَارِبُ الْاِخْتِبَارَاتِ
النَّفْسِيَّةِ أَنَّ الطِّفْلَ الَّذِي دَرَجَ عَلَى الْاِسْتِمَاعِ إِلَى الدَّرُوسِ الدِّينِيَّةِ يَتَمَتَّعُ
بِصِفَاتٍ شَخْصِيَّةٍ أَفْضَلَ مِنْ لَا يَحْضُرُهَا، وَأَنَّ الطِّفْلَ الَّذِي يَتَرَدَّدُ أَبَوَاهُ إِلَى
دَارِ الْعِبَادَةِ بِشَخْصِيَّةٍ أَفْضَلَ مِنَ الطِّفْلِ الَّذِي لَا يَتَرَدَّدُ وَالِدَاهُ إِلَيْهِ. وَقَدْ تَبَيَّنَ
لِي بَعْدَ دَرَسَةٍ كَامِلَةٍ لِعَشْرَةِ آلَافِ شَخْصٍ، أَنَّ الَّذِينَ يُوَاطَّبُونَ عَلَى التَّرَدُّدِ
عَلَى دُورِ الْعِبَادَةِ، يَتَمَتَّعُونَ بِخِصَالٍ شَخْصِيَّةٍ أَفْضَلَ مِنْ لَا يَتَرَدَّدُونَ
عَلَيْهَا، وَلَعَلَّنَا لَا نَقْصِدُ بِقَوْلِنَا تَهْذِيبَ الشَّخْصِيَّةِ أَنْ يَقْمَعَ الْمَرْءُ ذَاتَهُ، بَلْ هُوَ
فِي الْحَقِيقَةِ التَّعْبِيرُ عَنِ الذَّاتِ، وَالْإِفْصَاحُ عَمَّا فِي ذَاتِ الصَّدُورِ. إِنْ مَجْرَدُ
قَمْعِ الْمَرْءِ ذِي الْأَعْصَابِ الْمُتَفَجِّرَةِ لِدَوَافِعِهِ الطَّبِيعِيَّةِ، لَا يُعَدُّ مِنَ الْوَجْهَةِ
النَّفْسِيَّةِ إِجْرَاءً سَدِيداً، كَذَلِكَ الْمُبَالَغَةُ فِي نَقْدِ الطِّفْلِ بِالْقَوْلِ: «لَا تَفْعَلْ هَذَا،
أَوْ ذَاكَ» هُوَ بَلَا شَكٍّ أَمْرٌ ضَارٌّ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَيْسَ هُنَاكَ مَا يَمْنَعُ أَنْ يَتَضَمَّنَ
أُسْلُوبُ تَرْبِيَةِ الطِّفْلِ بَعْضَ النِّقْدِ الْمُبَاشِرِ الَّذِي لَا خَطَرَهُ فِيهِ. وَمَعَ هَذَا،
فَإِنَّ الْجَانِبَ الْإِيجَابِيَّ مِنَ الشَّخْصِيَّةِ يَشْمَلُ تَعْبِيرَ الْمَرْءِ عَنْ ذَاتِهِ، وَإِتْقَانَهُ لَعَدَدٍ
كَبِيرٍ مِنَ الْكِفَاءَاتِ الْمَرْغُوبَةِ، أَمَّا التَّعْبِيرُ عَنِ الذَّاتِ فَمَعْنَاهُ فِي رَأْيِي اسْتِبْدَالُ
الْأَعْمَالِ وَالْعَادَاتِ الْمَرْغُوبَةِ بَيْنَ النَّاسِ بِأُخْرَى غَيْرِ مَرْغُوبَةٍ بَيْنَهُمْ.

وَلَقَدْ وَقَعَتْ حَرَكَةُ التَّرْبِيَةِ التَّقْدِيمِيَّةِ فِي خَطَأٍ جَسِيمٍ، حَيْثُ إِنَّهَا لَمْ تَحَاوِلْ
أَنْ تُحَدِّدَ أَيَّ أَنْوَاعِ التَّعْبِيرِ عَنِ الذَّاتِ هِيَ الْمَرْغُوبَةُ وَأَيُّهَا غَيْرُ الْمَرْغُوبَةِ، فَقَدْ
افْتَرَضَ أَصْحَابُ هَذِهِ الْحَرَكَةِ دُونَ تَسَاوُلِ كَبِيرٍ أَنَّ كُلَّ مَا يَرْغِبُ الطِّفْلُ فِي
التَّعْبِيرِ عَنْهُ يَسْتَحِقُّ مِمَّا التَّشْجِيعَ، وَبِذَلِكَ رَفَعُوا مَبْدَأَ التَّعْبِيرِ عَنِ الذَّاتِ إِلَى
مَرْتَبَةِ التَّقْدِيسِ عَلَى حَسَابِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يُعَبِّرُ بِهَا الطِّفْلُ عَنْ ذَاتِهِ، فَكَانَتْ

النتيجة الحتمية لذلك أنهم خلطوا ما بين التعبير عن الذات والغلوّ فى الاهتمام بال رغبات الذاتية، وكذلك ما بين إضاعة الوقت سُدى واعتقاد الكبار فى أهمية تعبير الأطفال عن أنفسهم فى حدود أمور معينة، كالقنون والتمثيل ومشاهدة الحفلات المسرحية والاستعراضات إلى غير ذلك، فى حين أنهم عجزوا عن إدراك أن التعبير الذاتى الناضج والقُدرة على الإنشاء والابتكار يتوقّفان على معرفة الأصول الجوهرية لكيفية التعبير عن الذات، تماماً على نحو ما تتوقّف المهارة فى عزف قطعة موسيقية على إلمام من يودها إلماماً شاملاً بالسلم الموسيقى.

فالطفل الذى يُدفع إلى التمرين على البيانو، وأداء بعض التمرينات رغم إرادته ما يلبث أن يكتسب ألف باء التعبير الموسيقى، أما الطفل الذى يُسمح له بالتمرين على هواه وكيفما شاء، ويرسم الصور التى يرغب فيها، والانسياق طوعية وراء ما تشتهيه نفسه، يضرب فى كل نشاط مساعد، متعدداً فى أوجه نشاطه، هو فى الواقع يُضيع الوقت الذى كان يُتيح له حِذْق عدد محدود من الكفايات الجوهرية، ولا عَجَب، فإن التدريب الإجبارى على عادات التعبير الذاتى المرغوبة، كتلك العادات التى سبق اقتراحها فى الاختبار السابق الذّكر، يُوسّع مدى التعبير الذاتى المفيد فى المستقبل.

وأسوق للقارئ الآن بعض المختارات التى يمكن أن يكتبها والد إلى ابنه فى سن السادسة عشرة من نُصح وتوجيه:

ولدى العزيز: لو سُئلت: أىّ الدوافع هى المسيطرة عليك أكثر من غيرها؟؛ لأجبت على الفور بأن رغبتك فى اللهو وقضاء أوقاتك فى

ارتشاف المُتعة. والحق، يا بنى، أن وسائل اللهو كثيرة ومتعددة، منها ألعاب تنافسية مثل المسابقات الرياضية والسباحة وغيرها، وألعاب أخرى نحب أن نلهو بممارستها مثل المطالعة والمسرح والسينما وهى بلا شك للهو ذو فائدة، لكننى لو سألتك سؤالاً آخر وهو: ما اللهو بالنسبة إليك؟ ستكون إجابتك بالتأكيد: أن تفعل ما يحلّو لك.

والواقع أن هذه الإجابة تنطوى على شىء من المُخاطرة وعدم الدقة، ومُجمل القول إن مفهومك عن اللهو هو أن تفعل ما تريد وقتما تريد، وبمعنى آخر أن اللهو بالنسبة لك مجرد حافز وإقبال رهن اللحظة بدون تخطيط أو هدف أو وعى.

وللهو أو قضاء الوقت فى ممارسة الشىء المحبب إلى النفس لدى الطفل جانبان مهمّان فى تكوين جوانب الشخصية، لكن ذلك مشروط ببضعة اعتبارات مهمة ومحددة؛ فاللهو القائم على الحافز مثلاً، أو اللهو المؤسّس على عمل ما يروق وقت ما يحلو لك، إنما هو لهو هدام مُدمر لا يؤدى إلى نجاح الشخصية، فضلاً عن أنه يقضى على أوجه النشاط التى يمكن أن يستمتع المرء بها الواحد تلو الآخر حتى يأتى الوقت الذى يجد المرء فيه أنه كلما طعن فى السنّ تضاعف نصيبه من اللهو.

ولنضرب مثلاً على ذلك رياضة التنس التى كانت إلى وقت قريب لا تُعدّ رياضة شائعة بسبب ما يُبذل فيها من جهد عسير، اللهم إن كان بوسعك مزاولة اللعبة دون مشقة. إنك فى ممارستك لهذه اللعبة قد تمرّ بمراحل مختلفة، منها على سبيل المثال أنك كلما رأيت الفرصة سانحة لتلعب مع مَنْ لا يُجيد اللعب، أو مَنْ لا يجد غضاضة فى أن تهزّمه حتى

ولو كان أمهر منك انتهزتها، وكلما أتقنت اللعب ازداد عدد الأفراد الذين تستمتع بمشاركتهم اللعب ويستمتعون باللعب معك، إلى أن يأتى الوقت الذى يصبح فيه التنس بالنسبة إليك وعلى مر السنين مصدر متعة متزايدة، ومنبع صداقة وطيدة بالفتيان والفتيات. أما إن كنت ترغب فى تحسين أدائك حتى تستطيع الحصول على قسط أكبر من اللهو والمتعة، فمن الأهمية بمكان أن تمارسه فى مناسبات متعددة، وبصفة خاصة عندما لا تُحسّ الرغبة فى أدائه، أو عندما تدفعك الرغبة كى تمضى مع صديق لك تمارسان هواية أخرى؛ إذ ينبغي عليك أن تهتم كثيراً بهذا اللعب، فتحدث عنه وترسم له الخطط، وتؤديه مع أولئك الذين تؤثر مشاركتهم اللعب، أو مع الذين لا يرغبون فى مشاركتك اللعب. مُجمل القول إنك ينبغي أن تتحمل الكثير من الضغوط حتى تصل إلى مُرادك، ولكى تشعر بما فى لعبة التنس من لهُو لا يتحتم عليك أن تكون بطلاً من أبطاله، بل يكفى أن تكتسب تفوقاً نسبياً بمرور الزمن حتى يزداد ترحيب الناس بك لمشاركتهم فى اللعب.

إن الإذاعة والسينما لَمِنْ الهوايات المُحبَّبة وكلاهما يستحق التقدير، ولكن ألا تعلم أنك كلما أمضيت وقتك فى الاستماع إلى الراديو أو مشاهدة أفلام السينما قلّ الوقت الذى يُمكنك فيه المran على أمورٍ كان الأولى أن تكون قد تعلّمتها؟ فإن مجرد مشاهدة غيرك من الناس يعمل لا يجعل منك عاملاً مثله. فإذا حرّمت على نفسك تلك الهوايات السليمة، ووطّدت نفسك على المran المنتظم على التنس أو الهوكى أو أحد الفنون أو الموسيقى، وكل تلك المهارات التى تحاول الآن أن تتعلّمها بطريقة سطحية غدا مجال اللهُو عندك فى السنة التالية أرْحَب ثم يزداد

اتساعاً على مَرِّ الزمن. وإن تجاربك نفسها لتحوى الكثير من الأمثلة على صِدْق هذا النُصح، فلقد كنت تجد مُتعة كبرى فى العزف على آلاتك الموسيقية، ولكن مُتعتك كانت فى العزف عليها بالطريقة التى تحلُوك بدلاً من المِراس المنهجى المتواصل، وتلك هى الصعوبة والجهد اللذان يصادفهما كلُّ مَنْ يتطلَّع إلى عزف الموسيقى. والنتيجة الحتمية لذلك أن المُتعة التى تجدها فى مثل هذا النوع من اللهُو ستتناقص بمرور الزمن، وكلما صادفك أحد أولئك الذين ضَحَوْا ببعض مُتعتهم فى سبيل المِراس الشاقّ - مع أن موهبتهم فى هذا المضمار بالذات قد تكون متواضعة بالنسبة إلى موهبتك - فهذا بالضبط هو ما سَيَطْرَأ على مَوْهَبَتِكَ وَقُدْرَتِكَ على الاستمتاع بالفنون، اللهم إلا إذا بدأت تنظر إلى هذا الموضوع نظرة جَدِيَّة. وبمعنى آخر أنك إذا أَصْرَرْتَ على ألا تمارس المِراس الجاد أو الإمساك بالفرشاة إلا كلما أَحْسَسْتَ فى نفسك الرغبة أو كلما لمست فى ذلك مُتعة، فلا تتوقَّع أى تفوُّق، ولا تنتظر أن تحتفظ بالمُتعة نفسها طويلاً.

وأراك الآن تبذل جهداً جباراً استعداداً لاجتياز امتحاناتك، كما تتحكم فى كثير من دوافع لهوِكَ بطريقة جَدِيَّة ابتغاء الوصول إلى هدفك. فلتتذكَّر أنك الآن إنما تدفع ثمن ذلك اللهُو الذى استمتعت به مبكراً، أو تظن أنك كنت تستمتع به خلال تلك المناسبات العديدة التى كان الأجدرُ بك أن تقضيها فى الاستذكار.

وحتى الآن، أراك تبذل الكثير من وقتك فى اللهُو ومجرد التسكُّع دون هدف. إن فكرتك عن اللهُو التى أَفْصَحْتَ لى عنها اليوم، وهى تحقيق كل ما تشعر برغبة فيه لن تؤدى بك إلى شىء، ولسوف تقلَّص مُتعتك فى العام القادم وتراجع فى الأعوام التالية.

ولطالما شكَّوتَ لى عدم رضائى عن رغبتك فى اللهو، لكنك مخطئ يا بُنى، فانا لا أعرّض على أن تقضى وقتاً ممتعاً، ولكنى فى الحقيقة أعتقد أنك لا تحصل من هذه الحياة الآن على القدر الكافى من اللهو. وما كان السبب الذى يدعونى إلى الإصرار على أن تؤدى عملاً ما هو أن أصرفك عن لَهْوِكَ لأَحُولَ بينك وبين إضاعة وقتك مستغرقاً فى ذاتك والانسحاق نحو تحقيق كل ما يطرأ على ذهنك مما قد تتصوره لَهْوَاً. فلو أنك بذلت جهدك نحو التَّفَوُّقِ فى دراساتك أو أى فن من الفنون أو بعض ألعاب المنافسة أو فى صِلاتك الاجتماعية أو فى مشاركتك المباريات الرياضية، لما وجدت منى ذلك الإصرار على إرغامك بالقيام بتلك الواجبات المنزلية التى أُكَلِّفُكَ بها.

وإنى موقنٌ أنك من الذكاء بحيث تدرك ما فى هذا الحديث من منطق سليم، ولتعلم أن ذلك الذى كنت تدعوه لَهْوَاً إنما هو رذيلة الانغماس فى الذات والانسحاق وراءها، ولقد لمستُ منك لفتات عديدة تدل على امتلاكك قوة التَّحَكُّمِ فى دوافعك، والقدرة على أن تعيد تشكيل عاداتك من جديد. وإن مَيْلَكَ الأخير إلى الإكثار من لعب التنس لهو خير دليل، ومن ثَمَّ أرجو أن تكون خُطُوتك التالية - وأظن أنها ستكون أهم خطوة تخطوها فى حياتك كلها - هى أن تُغَيِّرَ نظرتك إلى اللهو، من أنه نشاط تحرّكه نوازِع طارئة، إلى لَهْوٍَ يستند إلى خُطّة مرسومة.

ومن غريب المصادفات أن قَدَرَ اللهو الذى تستمتع به لا يُقاس بمدى المهارة التى تكتسبها بعد طول المران فحسب، بل بقدر المتعة والرضا الذى تُسبغه على الغير، فبقدر ما تبذل خلال مبارياتك وصِلاتك الاجتماعية - مهما يكن نوعها - لكى تهَيِّئَ للغير فرصة يستمتع بها بوقت ممتع، وتُشعره

بَشَوَةِ الْبَهْجَةِ وَالرَّضَاءِ يَزْدَادُ عِدَدُ أَصْدِقَائِكَ وَتَتَكَاثَرُ الدَّعَوَاتُ الْمَوْجَّهَةُ إِلَيْكَ، وَتَتَعَدَّدُ فُرُصُ الْمُتَمَتُّعَةِ وَاللَّهْوِ أَمَامَكَ. فَيُمْكِنُكَ - عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ - أَنْ تُضْفِىَ عَلَى كُلِّ شَرْطٍ مِنْ أَشْوَاطِ مِبَارَاةِ التَّنَسُّقِ بِالنِّسْبَةِ لِحَصْمِكَ نَكْهَةً مُتَمَتِّعَةً، وَذَلِكَ بِأَنْ تَتَحَكَّمْ فِي نَوْبَاتِ غَضَبِكَ وَتَكْفُفَ عَنِ انتِقَادِهِ وَبِأَنْ تُثْنِىَ عَلَى كُلِّ أَدَاءٍ بَاهِرٍ يَصْدُرُّ عَنْ خَصْمِكَ.

وَقَلِيلٌ هُمْ مَنْ سَيَفْطَنُونَ إِلَى مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ هَذِهِ الرِّسَالَةُ مِنْ فَائِدَةٍ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الرِّسَالَةَ بِالذَّاتِ هِيَ فِي حَقِيقَتِهَا مَأْسَاءٌ، لِأَنَّهَا مُحَاوَلَةٌ حَمْلُ الْإِبْنِ عَلَى أَدَاءٍ مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُوَدِّيَهُ مِنْذُ ثَمَانِي سِنَوَاتٍ عَلَى الْأَقْلَى عَنْ طَرِيقِ التَّرْبِيَةِ الدِّينِيَّةِ وَفَرْضِ النِّظَامِ غَيْرِ الْمُسَبَّبِ، دُونَ حَاجَةِ الْآبِ أَوْ الْإِمِّ إِلَى صِيَاغَةِ هَذِهِ النَّصِيحَةِ عَنْ طَرِيقِ الْمَنْطِقِ وَالْفِكْرِ.

إِنْ الْوَقْتُ الْأَمثلُ لِتَعْلِيمِ الطِّفْلِ كَيْفَ يُخَضِّعُ دَوَافِعَهُ لِقِيَمٍ عُلْيَا، هُوَ السَّنُّ الَّتِي يَسْتَطِيعُ فِيهَا أَنْ يَقْبَلَ مَا يُقَالُ لَهُ دُونَ أَنْ يَدْرِكَ مَا وَرَاءَهُ.

فَإِذَا اسْتَقَرَّ رَأْيُ الْآبَاءِ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ عَنْ إِرْسَالِ أَوْلَادِهِمْ إِلَى الدَّرُوسِ الدِّينِيَّةِ حَتَّى يَبْلُغُوا السَّنَّ الَّتِي يَدْرِكُونَ عِنْدَهَا فَحَوَى مَا يَسْتَمْعُونَ إِلَيْهِ، فَهَمُّ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ يَتَّبِعُونَ مَبْدَأَ هَدَامًا، لِأَنَّ الْوَقْتَ يَكُونُ قَدْ فَاتَ لِإِصْلَاحِ مَا فَسَدَ إِذَا بَلَغَ الطِّفْلُ السَّنَّ الَّتِي يَسْتَوْعِبُ فِيهَا كُلَّ مَا يَدُورُ حَوْلَهُ وَلِأَنَّهُ حَيْثُئِذٍ يَكُونُ قَدْ أَضَاعَ مِنْ عَمْرِهِ سَنِينَ ثَمِينَةً.

الفصل السابع

الحب والزواج

قال تعالى قال تعالى : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة،

(٢٢٨)

«ليوف الرجل المرأة حقها الواجب، وكذلك المرأة أيضاً الرجل» (رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورونثوس ٧: ٣)

اتضح لى بعد مُضى أكثر من عشرين عاماً قضيتهُا فى دراسة السلوك البشرى أن نصائح الكاتبة المعروفة دوروثى ديكسى، والتي قدّمتها للناس كعلاج ناجع فيما يتعلّق بالسعادة الزوجية، هى الأعلى قدرًا والأعمق أثرًا من كل ما ورد بالمؤلّفات والأبحاث التى قام بها العلماء والمختصّون فى هذا العلم.

وبينما كان المجتمع مشغولاً بوصف المرأة، وكان شُغلهم الشاغل وصف المرأة ذات البرود الجنسية، كانت الكاتبة دوروثى ديكسى تغوصُ فى وصف ربة الدار المُستهترّة، وإذا كان أغلب الناس مشغولين بالحديث عن الرجل المفرط فى إشباع غريزته الجنسية، كانت هى تتعقّب الزوج الخُمُول الكسُول، وعندما انشغلُوا هم فى إزاحة الستار عمّا وراء الأحلام والرغبات

والطاقة الجنسية المكبوتة، استغرقت هى فى نُصح الزوجات أن يَكُنَّ مدبرّات لبيوتهن، والأزواج أن يمنحوا نساءهم مصروفات عادلة وتناشد الزوجين أن يتصرّفا معاً تصرفاً العقلأ.

ولا بدّ لى أن أسجل هنا اعترافاً مهماً يتعلق برؤيتى الشخصية فى وقت مضى، وهى أننى كنت متأثراً إلى حدّ بعيد خلال السنوات الأولى من اتصالى بالناس بحُكم مهنتى بالرأى القائل إن للناحية الجنسية تأثيراً على هناء الزوجية، وبمرور الزمن أدركت أن عدم التوافق الجنسى قد يكون أحد الأسباب التى لا تؤدى إلى السعادة الزوجية، ولو أنها أقلها حدوثاً. وربما يكون سبب اعتقادى السابق هو مجموعة النظريات شبه العلمية، التى كانت تنادى بها مدرسة فرويد، والتى أسبغت على الغريزة الجنسية هذا التأكيد الزائف. إن عدم التوافق الجنسى قد يكون مؤثراً كما سبق أن ألمحت، لكن هذا الأمر لا يؤدى فى النهاية إلى كشف النقاب عن حالات عدم التوافق الزوجى، والذى قد يجعل من الغريزة الجنسية مادة نتلمس فيها مبرراً للشقاء فى الحياة الزوجية، وقد أثبتت دراساتى وأبحاثى فيما بعد على أن التآلف والتناغم فيما يتصل بالغريزة الجنسية غالباً ما يكون أغرب مثلاً من التآلف فى أنواع السلوك البشرى المتعددة، وهى التى قد تقيم صرح السعادة الزوجية أو تهدمها.

وقد دلّت دراساتى وأبحاثى فيما بعد على أن التآلف فيما يتصل بالغريزة الجنسية غالباً ما يكون أقرب مثلاً من التآلف فى أنواع السلوك البشرى المتعددة، وهى التى قد تقيم صرح السعادة الزوجية أو تهدمها.

ويعنى آخر: إنه من الخير أن نشغل أنفسنا دوماً بالحديث عن الأخلاق الفاضلة والشخصية المنضبطة غير الانانية، وأن يدور حديثنا دوماً عن

العادات النبيلة، التى تكون دائماً من مستلزمات الشخصية الناضجة، وألا نخوض فى تفاصيل الغرائز وبواعث إشباعها وحركاتها ورغباتها. إن القيم الخلقية تتطلب مراناً طويلاً فضلاً عن معرفة عميقة قبل إمكان التحكم فيها، ولقد أيدت تجارب العلماء الباحثين بالفعل هذه النظرية السابقة، وأعنى بالباحثين أولئك الذين لا يستندون إلى مبدأ أهمية الغريزة الجنسية.

ولقد أدلى الدكتور برنارد ساش أحد الباحثين الثقات فى هذا الميدان والعميد السابق لأكاديمية نيويورك الطبية وأبرز إخصائى الأمراض العصبية فى أمريكا بتصريح قال فيه : «من الغريب أن يستمر ذلك الاهتمام المُفرط بالمشكلة الجنسية فى أمور الزواج حتى اليوم، على حين تُهملُ عواملُ أخرى أشدَّ منها أهمية. ولقد سمعنا الكثير عن مدى طغيان عامل الجنس على عصرنا هذا، بينما الواقع أن كثرة الحديث عن هذا الموضوع هى الطغيان بعينه. وبدلاً من أن تبدّل الهيئات المختلفة جهودها ووقتها فى استنباط أفضل الوسائل لتنمية الأمانة والصدق واحترام السلطات والوطنية ومحبة الغير فى نفوس الأطفال والناشئة تراها تُضيع ذلك الوقت سدى لتثقف الناس ثقافة جنسية!».

إن مثل هذا التعلّق والاهتمام بالغريزة الجنسية، وما توصّلت إليه من حلول «كزواج التجربة» رجاء مراعاة أن مثل هذه الأمور قد تخالف بعض العقائد الدينية - ومحاولة البحث عن زوجة ماثلة فى الطباع والعادات فضلاً عن حق الإشباع الجنسي فى الزواج^(١)، فكلّ هذه الأمور تصرف

(١) اعتقاد الزوج أو الزوجة أن عقد الزواج يخول لأحدهما أو لكليهما الحق فى الإغراق فى إشباع غريزته الجنسية.

الانتباه عن المغزى الأساسى الكامن وراء فكرة أو مشروع الزواج. إن الزواج ما هو إلا خطوة يخطوها فردان، يكمل كل منهما الآخر، وذلك ليُوحدا جهودهما فى النضال من أجل تحقيق السعادة والكمال. إنهما يقيمان معاً صرح وحدتهما الاجتماعية الصغيرة المتواضعة ليتمكنا بذلك من مساهمة المجتمع والمضى فى موكب الحياة. والزواج بهذه الطريقة درجة من درجات النمو الإنسانى السيكولوجية والبيولوجية، ويكاد يكون فرصة إيجابية لنيل السعادة، إمّا أن ينجح المرء فى اقتطافها، وإمّا أن ييؤء بالإخفاق.

إن الزواج حياة ملؤها السعادة، ولا بد أن نسعى لتحقيق هذا الهدف مثلما نسعى لتحقيق أهداف أخرى، ولقد فرضت الشريعة الزواج وجعلته وسيلة إلى حياة أهنا و أوفر، لا ليكون تجربة يكتشف فيها المرء ما إذا كان شريكه ملائماً له أو متناقضاً معه.

ولكى يتضح الفرق بين الفكرتين، سأسرد قصة جاءت على لسان أحد زملائى فى المهنة، فلقد كان يجد نفسه مضطراً إزاء استشارات المترددين عليه لطلب النصيحة أن ينصحهم بعدم الزواج، وهى قصة لشابة صغيرة ظل أحد الشبان يلاحقها ثمانى سنوات بلا انقطاع علّه يظفر بها كزوجة، ولم يكن بالشاب ما يعيبه على الإطلاق. وقد أطالت الفتاة الفكر طويلاً قبل أن تسمح له بمواصلة السعى وراء الفوز بها، بل لقد حددت له مراراً موعداً لعقد زواجهما، ثم إذا هى تتعمد التئصل من وعدها، إما بالتزامها الفراش أو بادعاء مرض أحد أفراد العائلة أو بانتحال أعذار تبرر تخلفها عن الوفاء بعهدتها، وإذا الشاب يخشى أن تكون قد أصيبت باضطراب عصبى، فصمم على عرضها على طبيب نفسانى، ولما ذهب بها إلى زميلى السابق

الذكر، سألته أن يُصدّقها النصّح فيما إذا كان الأفضل لها أن تُقدّم على الزواج أو صرف النّظر عنه . وبعد مناقشات طويلة تبين له أنها شديدة التعلّق بأبيها، ولا تفتأ تُقارن كل الرجال به، وأخيراً ثبت له أن تعلّقها بأبيها وملازمتها إياه هو السرّ في عُزوفها عن الزواج وتردّدها فى قبوله، فنصحها بعدم الزواج من هذا الشاب أو من غيره، لأنها ستظل دائماً تُعاني ذلك الاعتقاد الكامن فى اللاشعور بأنها قد تزوّجت أباهما مهما تكن شخصية الرجل الذى تزوّجته .

وثمة حالة أخرى تكاد تكون عكس الحالة السابقة، وهى قصة رجل وقدّ على ذات يوم وسألنى لاهئاً عما إذا كان يجدرّ به أن يتمّ عقد زواجه الذى حدّد الأسبوع التالى موعداً له أم لا، ولا سيما أنّ بطاقات الدعوة قد وُزّعت وتم إعداد ترتيبات الحفل ! ثم استطرد قائلاً: إنه لا يحب أن يُخيّب ظن الفتاة وأسرتها، ولكنه يخشى ألا يوفّق فى هذه الزيجة، ولذا فهو متردّد بين الإقدام والإحجام، فجاء يطلب النصيحة، وأظن أن كلمة واحدة مثبتة منى كانت كفيلة بتشجيع الفتى على المُضى فى إحجامه وتردّده . غير أنى أثرت التمهّل وسألته عما إذا كان قد عرّض نفسه للفحص الطبى ليتأكد من لياقته للزواج، فأجاب أنه قد فعل واطمأن على لياقته، فاستطردت أناقشه عن الفتاة التى كان يُزمعُ العقد عليها وعن ظروف أسرتها وكل ما يُحيط بهذه الزيجة . واتّضح لى أن الأمور كلها تسير على ما يُرام، وأنه ليس هناك ما يحول دون عقد هذا الزواج، وإذ لم يكن هذا الفتى شخصية جذابة فقد بدا لى أنه لو نجح فى الزواج من هذه الفتاة لكان كسبه ضحكاً، فلقد كان متقاعساً منظوياً وطفلاً مدلّلاً يخاف الحياة ويخشأها، وخلاصة القول إن هذا الشاب بالذات لم يكن النموذج الذى تشدّه أية

زوجة عادية. وتراءى لى أن الزواج وما يتبعه من مسئوليات والتزامات قد يكون سبباً فى خَلْفِهِ خَلْفًا جديداً، لذا حَثَّته بكل ما فى وسعى على أن يُقدِّمَ من فوره على الزواج بعد أن أَقْنَعْتُهُ بأنها فرصة ملائكية قد هبطت عليه من السماء، لِيَتَلَقَّهَا فيبدأ بها حياة جديدة تحتشدُ بالسعادة والهناء. ولا بُدَّ لى أن أتساءل هنا : أى حق يُخَوِّلُ لى أن أفرض نظرياتى على مثل هذا الشاب أو غيره فأحكمَ عليه بالسعادة أو بالشقاء؟ وما شأنى حتى أتدخل بين زوجين عقداً عزمهما على مجابهة الحياة معاً؟ وأى حق لى فى أن أُثْبِطَ عزم هذا الرَّجُل عن المُضَى فى إحدى التجارب الانبساطية الكبرى فى الحياة ولا سيما أنه نفسه يقدمُ رجلاً ويؤخرُ أخرى؟ ومع أن شخصية ذلك الشاب كانت بلا شك تدنو المتوسط، والفرصة أمامه للنهل من السعادة ضعيفة، فإننى مع ذلك أتساءل عن أية سلطة تخوِّلُ لى أو لغيرى أن أحرمه حتى من هذه السعادة، أو أن أنصح عروسه أن تنتظر حتى تلتقى بمن هو أفضل منه؟

فى مثل هذه الحالات والتى قد يؤثر فيها الرأى فى الشخص فى انطباعه عن الحياة أو السعادة الزوجية، أو عدم الاطمئنان إلى المستقبل، وما سيُجابههُ من عقبات فى مسيرة الزواج، ولا سيما عندما يكون الشخص لائقاً من الناحيتين الطبية والجسمانية، كنت أنصح مَرْضَاى والمترددِين على بالإقدام على الزواج بأن يَغْقِدُوا قرانهم، ومن ثم اقتحام حَلَبَات النضال ومصارعة صروف الدهر وتقلبات الزَمَنِ داخل هذه الحياة البسيطة والشاقَّة فى آن معاً. كنت أوتر السعى والكد لتحقيق السعادة الزوجية على ما فيها من مغامرة ومجازفة عن النصيح بالزواج المشروط بضمان النجاح المؤكد،

فالزواج خطوة مهمة من خطوات تكوين الشخصية، بل أذهب إلى أبعد من ذلك فأقرر أن المحاولة ثم الإخفاق خير من الإحجام كلياً.

ولقد لاحظتُ بهذه المناسبة، أنه قد حدث تغيُّر ملحوظ خلال السنوات الأخيرة بين فتيات الجامعة في نظرتهم نحو الزواج كمستقبل، وعندما بلغت الحركة النسائية أشدّها منذ بضع سنين كانت هناك نسبة كبيرة من نساء الجامعات يَنشُدْنَ الوظيفة أو العمل كهدف أسمى يؤمِّن به مستقبلهن. ولقد وَجَّهْتُ عدداً من الأسئلة في السنوات الثلاث الأخيرة، إلى جانب دراسة مستفيضة، على طلبة الجامعات في جميع أنحاء البلاد، وقد تلخّصت أسئلتي فيما يلي:

١- ما أهم شيء يمكن أن تربطى به مستقبلك في الحياة؟

٢- وهل تعتبرين الزواج ومشاركة الزوج في تشكيل مستقبل لكما في الحياة أكثر أهمية أم أقل أم على قَدَم المساواة مع صناعة مستقبل فردى خاص بك؟

وقد أسفرت نتيجة الاستفتاء عن أن خمسة وتسعين بالمائة من فتيات الجامعات يَعتبرنَ مستقبلهن كزوجات وأمّهات هو الهدف الأول، وأن مساعدة الزوج على شقّ طريقه في الحياة أهمّ من المُضى في الحياة مستقلة دون ارتباط. ويعنى هذا الاعتقاد وتلك النتيجة أن هناك اعتقاداً آخذاً في النمو، وهو العودة إلى التقاليد السالفة، ومع ذلك أسجل هنا أنه لمن دواعي أسفى أن أعترف بأن نسبة من وقَّفن في زواجهن من خريجات الجامعات وصلت إلى أقل من ٩٠٪ بقليل.

إن نشدان الحياة الزوجية السعيدة، والسعى إلى اختيار زوجة مناسبة أو زوج مناسب يبدأ من زمن مبكّر، ربما من سن الطفولة، ليس هذا فحسب،

بل إن مجموعة العناصر التي تحقق شخصية سوية من الاتزان العاطفى إلى التكيف والنشاط الاجتماعيين، والشجاعة والمرونة فى مقابلة صُروف الحياة والعادات المنبسطة التى سبق و وقَّفنا عندها، كل هذه الأمور لها أكبر الأثر فى الاهتمام إلى الشريك الآخر بل فى الوصول بالحياة الزوجية إلى برِّ السعادة والهناء والأمان.

فالفتاة التى تمارس لعبة التنس على سبيل المثال تعثرُ على الزوج المنشود بسهولة، أكثر من لا تمارسها، والفتى الذى يشارك فى تمثيل المسرحيات المدرسية يهتدى إلى شريكة حياته بسهولة أكثر ممَّن ألف الانعزال وانشغل بالإصغاء إلى الراديو أو مطالعة القصص الغرامية الخيالية.

إن الأطفال الذين يعزفون على الآلات الموسيقية، ويشاركون فى فرق المدرسة الموسيقية، أو الذين يتمتعون بالقدرة على تسلية أصدقائهم، تكونُ الفرص السَّانحة لهم لاختيار أصدقائهم أكثر من أولئك الذى يستمعون إليهم فقط، والأطفال الذين مارسوا الرقص والبريدج والبنج بُنْج غالباً ما يهتدون عندما يشبُّون إلى الزوج أو الزوجة المناسبة سواء رغبوا أو لم يرغبوا بسهولة أكثر من الأطفال الذين تبدو عليهم الرِّزَّانة، ويعتبرون هذه الألعاب تافهة سقيمة، وأولئك الذين يبذلون نشاطهم فى جمعيات الكشف أو ينضمُّون إلى جماعات الرِّحلات أو ينضُّون تحت لواء الجمعيات حتى ولو كانوا لا يستطيعون كل من معهم، أكثر عُرضة للزواج من أولئك القابعين فى عُقر دارهم. فكثيراً ما أشرتُ على المئات من المتردِّدين علىَّ بأن الطريقة المثلى للعثور على أصدقاء فضلاء هى الاندماج مع أولئك الذين لم نكن نبالى بهم أو نكثرث لهم.

وليس عرضنا السابق بشأن أهمية أنشطة التنس أو التمثيل أو غير ذلك من أوجه النشاط بالشرط الأساسى اللازم للعشور على الزوجة المناسبة، إنما القصد أن المشكلة كلها تكمن فى تنمية عدد كافٍ من المهارات والعادات التى تُكوِّن فى مجموعها شخصية غير أنانية، شخصية تُنفق طاقاتها بسلاسة ويُسرِّ فى أوجه النشاط الاجتماعى التى تجلب السعادة أو التسلية لغيرها. وهكذا يكون الأساس فى الزواج هو أن تكون الشخصية انبساطية مُنْفَتحة، اجتماعية، لا تستأثر بالمتع لنفسها، وإنما تبذل من نفسها ما يحقق نفع الغير ومُتَعته.

وكم كانت فرحتى عارمة حقاً عندما تَبَّنت مدرسة ابتنى فكرة تنمية الروح الرياضية فى نفوس الأطفال، حيث أخذت فى الاهتمام بالألعاب ونشاط الجماعات، وكانت وسائلها فى ذلك تلقين الأطفال مزايا الروح الرياضية، وتعليمهم ألعاب المنافسة التى تضمُّ الجَنَسِينَ ولا تقتصر على البنات وحَدَمَن أو البنين وحَدَمَهم، ولم تكف شهادة ابتنى على نوع سلوكها، أعنى مدى هدوئها وطاعتها فى قاعة الدراسة فحسب، بل مدى تقدّمها الخُلُقَى فى مباريات المنافسة.

فالشَّبَّان والشَّبَّابات الذين تعلّموا ممارسة رياضات العصر، أيّا كان نوع هذه الرياضة تافهة أو جادة، قد لُقِّنُوا حال الممارسة لألعابهم كيف يستفيدون من حرارة المنافسة، وكيف يتفاعلون مع حرارة اللقاء والمنافسة وجوَّ النَّزَال. إنهم بلا شك سيكونون أقلَّ عُرضَةً للوقوع فى الخطأ عند اختيار صديقه أو صديقتة، والزوجة أو الزوج، فضلاً عن أن جو السعادة سِيرْفَرِفُ فوق باحة الأسرة. إن مثل هذه الشخصيات تكون قادرة على اكتساب معارف وأصْحَاب بأعداد وافرة، مع اختلاف المستويات التى تسمح

له بأن يختار ما يناسب ميوله ورغباته، إنها استراتيجية الاختيار والقرار الصائب المستفاد من ممارسة الألعاب الرياضية منذ البداية.

وقد يأسرنا الالتفات نحو الجمال الجسدى، كما ينشغل البعض بالشعر المُجعد أو الجمال الأسر أو القوام المشوق أو الملامح الجذابة، وتلك شروط مرغوبة ومطلوبة إلا أن أهميتها لا تُقاس بالنسبة لتلك المهارات التى يستمدّها الفرد من مثل هذه القيم، فإن من يُحسنون الاختيار هم من يتنمون إلى المجموعة المنبسطة ذات العواطف ويخوضون الانفعالات المتمتزة، إنهم نادراً ما يُخطئون فى التمييز بين الحب المادى والحب الروحى الراسخ.

إن الشخص المنطوى، ولا شك، تدور حياته حول نفسه، ومدى معارفه ضيق محدود، وانشغاله بنفسه يجعله يُقدّس الحب المادى أكثر من الشخص المُنبسط الاجتماعى، وربما تتبّع هذه النظرة من أن الشخص المنطوى يتميز بإصراره على اعتبار كل عواطفه وأهوائه مثلاً علياً تستند إلى مبادئ سليمة. إننا قد نُحبّ الجانب المادى فى الأثنى، ولا شك، كما يفعل الشخص المنبسط بل وكما يفعل الشخص المنطوى، لكن الفارق هو أن عواطفنا عمياء إلا بقدر ما نُضئ لها الطريق بتنوع تجاربنا، وبقدر ما نُرشدها بتلك المثل العليا. فإن العاطفة المُكتملة هى العاطفة التى تُحددها حُرمة المثل العليا، كما أن هذه المثل العليا أهمّ من العاطفة ذاتها.

أما العقيدة الدينية التى أعدّها مُطلقاً أخلاقياً مهماً بل أكثر من ذلك، فهى لا تزودنا بمثل عليا موضوعية للحياة عموماً فحسب، بل إن الفقهاء قد

أزاحوا الستار عما ينبغي أن تنطوى عليه مثل هذه العلاقة الشديدة الخصوصية. إنهم يربطون بين المثل العليا والزواج، أما مجموعة الطقوس والشروط الواجب توافرها في عقود الارتباط، فما هي إلا إحالات دالة عند الفقهاء على أن الزواج ومُحتواه ليس علاقة شخصية فحسب، بل هو عقد عام مُسجَّل أمام محكمة عليا سامية تملك إدراكاً يَفُوق إدراك المحاكم الدنيوية. إنها وثيقة ارتباط ديني يُحاسبُ المرء فيها على الاختيار والفعل والالتزام والأمانة حتى على مستوى المشاركة الوجدانية التي لا مناص أن تكون متوفرة بين الطرفين. وما من شك في أن هذه العقود لا تُعدّد مباحج الزواج ومزاياه فحسب، بل تفرض التزاماته وقيوده فرضاً، أما الحفلات التي تعقّب هذا العقد فتُمثّل قاعدة «انبساطية» تنبئ عليها تجربة انبساطية جليلة.

وكما أن صفات الشخصية المنبسطة لها أعظم الأهمية عند بدء الزواج، فهكذا ينبغي أن يكون الحال في مراحل الزواج الأخرى، وبخاصة حال التآلف والمعيشة والسكن والتراحم بينهما أو داخل البيت الأسرى، ولا أعنى أن يكون كلا الزوجين ممن يعشقون لعبة كرة التنس أو يُمارسان السباحة أو يهويان الموسيقى أو الشعر، فليس المطلوب أن يتفقا تمام الاتفاق في سائر الهوايات والميول، لكن الشرط الأساسى أن يتحقق نوعٌ من الاحترام والتقديس للعقيدة الدينية والإيمان بتعاليمها، بالإضافة إلى المبادئ العامة لأسلوب معيشتها وأسلوب تربية أطفالهما، فضلاً عن إلى بعض أوجه النشاط والرياضات التي تزودهما بالقدرة على بثّ البهجة في قلوب الأصدقاء أو تحقيق لَوْثنا من التسلية مع الأصدقاء.

أما عن الميول التى قد تتحقق بين زوجين حديثين، فهى كثيرة جداً لا يمكن حصرها، غير أن ليس من مكتشفات علم النفس الآن ما يُجيز لإخصائييه أن يتقدموا بقائمة هذه الميول والرغبات التى يمكن أن تتحقق بين زوجين ليعيشا فى سعادة وهناء.

يقول الدكتور «آرثر فرانك بين» فى مقال له : «إن معظم مآسى الأسرات الآن ناتجة عن زواج فتاة سمراء بشاب يُؤثر الشقراء (لا بد من ملاحظة أن هذا الرأى كان فى القرن السابق قبل حركات المساواة ومطالبة الملونين بحقوقهم)، وإن أحد المكتشفات القليلة لعلم النفس الحديث التى تمخضت عنها الأبحاث بعد أن خضعت لتجارب مستفيضة هى أن لكل فرد فى الحياة «نموذجه الخاص». ومن حُسن حظ الإنسانية أن علماء النفس لم يكتشفوا بعد هذه «النماذج»، وأرى بدورى أنهم لن يتمكنوا من اكتشاف هذه النماذج المُثلى التى يمكنهم بها ضمان السعادة الزوجية لأى من الناس، لكننا نستطيع القول إن ما توصلوا إليه بالفعل هو مجموعة خصائص الأفراد التى يمكن أن تساعد على توفير أو خَلْق جو من السعادة الزوجية، فالرجل المنبسط أو غير الأنانى يمكنه أن يُحقق سعادة عارمة للمرأة الشقراء أو السوداء على السواء، أما المنطوى فإنه يحيل حياتهن إلى بؤس وشقاء، وقد يجعل حياة أجمل الزوجات أو أكثرهن تديباً شاقّة تعسة. وبرغم ما سبق قد تحدث بعض الحروق السلوكية التى لا تخضع إلى مقياس كشواذ القواعد؛ حيث قد يتزوج رجل ممن يدور تفكيرهم حول أنفسهم بسيدة غير أنانية أو بالعكس ثم يكون كل منهما سعيداً، وبالمثل قد يكون الزوج أو الزوجة مُنطويين، ولكنهما يَهْجُرَان أنانيتهما تحت تأثير مسؤوليات الزواج وتربية الأطفال والكفاح لوضع أُسرتهما فى مرتبتها السليمة من المجتمع، وكذلك ليبلُغا قمة السعادة والهناء.

فالزواج من الناحية السيكولوجية ما هو إلا ارتباط بين فردين غير كاملين يُوحِدان جهودهما للكفاح معاً لبلوغ الكمال. وتكون العبرة فيه بمدى التقدم والتحسّن الذي يُحرزانه، لا بالحالة التي كانا عليها وقت الزواج.

وقد أعلن بعض رجال علم النفس أخيراً نتائج دراساتهم الواسعة النطاق للعوامل المؤثرة على نجاح الحياة الزوجية، وبعد أن أجروا اختبارات قياس الشخصية ومعرفة الميول على ١١٦ زوجاً من المُطلّقين والمُطلّقات و٣٤٦ زوجاً من المتزوجين. وكانت أغرب النتائج التي توصّلوا إليها في هذا الصدد هي أن أولئك المُطلّقين والمُطلّقات الذين أخفقوا في حياتهم الزوجية كانوا أقل اتزاناً من الناحية العاطفية، وأشدّ انطواءً، وأقل اعتماداً على أنفسهم من السُّعداء في حياتهم الزوجية. وكانت نسبة المُطلّقات، وبصفة خاصة، بالنسبة لغيرهن من المجموعات التي أُجريت عليها الاختبارات مرتفعة «... فهن لا يمنحن الخدمة الاجتماعية أو الميول والمبادئ الراقية قسطاً من نشاطهن». وقد دلّت «الاختبارات» على أنهن لا يملن كثيراً إلى الرّحلات والمؤتمرات والسيّاحات وأجمع التبرّعات الخيرية وغير ذلك من أوجه النشاط الدال على محبة الناس والميل إليهم والتعاطف مع الغير. وإذا قارنّا أولئك الأزواج والزوجات السعيدات بالمطلّقين والمُخفّقين في زيجاتهم نرى الأولين أكثر انبساطاً واتزاناً من الوجهة العاطفية، أو أشدّ إقداماً وأكثر اعتماداً على أنفسهم من الوجهة الاجتماعية، وأنهم يميلون إلى أوجه النشاط الراقى وإلى أداء أعمالهم بالاشتراك مع غيرهم. وبصفة عامة فإن كل الصفات والعادات اللازمة للشخصية المثلى كانت هي الصفات التامة الواضحة بين السُّعداء في حياتهم

الزوجية وأقل ظهوراً بين أولئك المُخَفِّقِينَ فى زيجاتهم أو المطلَّقين والمطلَّقات».

موجز القول إن السُّعْداء فى حياتهم الزوجية كانوا أشدَّ إنكاراً لذواتهم، فى حين أن أولئك التُّعَسَّاء فى حياتهم الزوجية والمطلَّقين والمطلَّقات فكانوا أكثر أنانية.

وبالنظر إلى هذه النتائج، وإلى أوجه النشاط التى اتَّبعَتْها كل مجموعة من الجماعات السَّابِقَ تحديدها، يتضح أن تطبيق القيم الدينية الأساسية التى تدعو إلى البرِّ والإحسان، وتَحُضُّ على الإيثار وحب الإنسان لأخيه واجبٌ لا مَنَاصَ منه إن كنا ننشدُ السَّعادة الزوجية هدفاً.

ولعل إحدى النتائج اللافتة فى هذا البحث هى «أن المطلَّقين والمطلَّقات يميلون أكثر من المتزوَّجين إلى الموضوعات الفكرية». ويدخلُ ضمن هذه الموضوعات الفكرية، الفلسفة وعلم النفس والشَّطرنج، ويميلون أكثر إلى الآراء السياسية المُتطرِّفة التى يتبنَّاها المتطرفون السياسيون، أضفْ إلى ذلك أنهم لا يهتمون بأى أنشطة جماعية مثل الجمعيات الدينية والفرق الرياضية والدعوات الدينية».

غير أن النتيجة التى نستطيع أن نقدِّمها فى هذا البحث هى أن كافَّة الدراسات الحديثة تؤيِّد مكتشفات علم النفس الحديث التى تقول بالضرر البالغ النَّاجم عن الاهتمام الشديد بالمظاهر الفكرية للحياة، دون الأخذ بفضائل المعيشة الإنسانية. ففى الزواج، كما هو الحال فى كل شىء غيره، قد يُصْبِحُ الناس عبيداً للسَّلبية، أعنى الأسباب والمُسبِّبات، لكن هناك مُسبِّباً أعلى يجرى المقادير بين يديه، ومن الأفضل أن نتطلَّع بضراعة إلى من بيده الأمر والنهى. ويدعو ويَحُضُّ ألا وهو الله سبحانه وتعالى.

الفصل الثامن

التخطيط الاجتماعى

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف، ٥٨)

« لأن كل شجرة تُعرف من ثمرها، فإنهم لا يجتنون من الشوك تيناً، ولا يقطفون من العَلِيقِ عنباً. الإنسان الصالح من كنز قلبه الصالح يخرج الصلاح، والإنسان الشرير من كنز قلبه الشرير يخرج الشر ... » (لوقا ٦: ٤٤، ٤٥)

ولكى نصل إلى تخطيط اجتماعى مُنضبط رصين سأعرض على قارئى العزيز هذه المشكلة التى صادفتنى ذات مرة، وهى مشكلة أراها من أعقد المواقف التى واجهتنى كطبيب نفسى؛ فقد عرضت لى مشكلة أبطالها سيدة وأمها كانتا فى شجار متواصل مع بقية أفراد الأسرة، وقد كان ذلك بشأن ملكية منزلهم وبعض المُشكلات المالية الأخرى، وبمرور الوقت اشتد الخلاف حدة حتى أوشك البيت العائلى على الانهيار، وما لبث إلى أن وقع ما كنت أتوقعه، فقد اعتزمت السيدة وأمها هجر الزوج والأطفال الثلاثة ورفع الدعوى القانونية لحيازة البيت. وعندما بدأتُ أستفسرُ عن ماضى أفراد هذه الأسرة العجيبة اتضح لى أن السيدة الشابة كانت إحدى

الناشطات فى جمعيات السّلم العالمى، وأن نشاطها الاجتماعى فى إجماله كان يتمحور حول هذا الهدف أقصد منع الحروب، وأنها كثيراً ما انخرطت فى منازعات تدعو إلى مناهضة الحروب، وأمام هذا التناقض الغريب بين السلوك الاجتماعى الذى يعتمد المرء وبين السلوك الشخصى البسيط فى محيط الأسرة، وجدتنى أوجه إليها هذا السؤال: «كيف تتوقعين أن تحولى دون نشوب الحروب بين الشعوب فى حين أنك عاجزة عن منعها بين أفراد أسرتك؟»

وحقيقة لم يكن لسؤالى أى تأثير عليها حتى اضطرت إلى الانسحاب من هذه القضية، ربما لأن مساحة الفجوة وعنّف الضغينة والعادات المزدولة قد سيطرت على كل من له ضلع فى هذه القضية، فلقد كانت الضغائن عميقة بعيدة الغور، ومن ثم اعتذرت عن مواصلة القضية حيث وجدت نفسى عاجزاً عن تقديم أى عون.

إن الطبيب النفسى يستطيع أن ينفذ إلى دخائل النفس البشرية، فيعرف لماذا تأصلت بذور الشقاق والفقر وعدم القناعة بين الناس، كذلك يلمس جوانب الشعور بالنقص والأثرة والاضطراب العاطفى حين يرى الابن فى حرب مُستعرة مع أبيه، ذلك الأب الذى أدى كرمه الخاطئ وسخاؤه المُفرط إلى حرمان هذا الابن مِيزة الاستقلال والاعتماد على النفس.

والفتاة أيضاً التى تشكُّ فى كل صاحباتها وزميلاتها لأنها عجزت عن إنماء العادات الاجتماعية التى بها تُكتسب الصداقات، والفتى المُفرط أيضاً فى نقده للأنظمة الاجتماعية لأن أنانيته بلغت حدّاً جعله عاجزاً عن بذل التضحية اللازمة الكفيلة بجعله يستمتع بمزايا مثل هذه الأنظمة، والشخص

المُتَوَرِّطُ فى صراع عقلى وعاطفى دائم؛ لأنه عاجز عن إخضاع قِيَمِهِ الشخصية للقيم السَّامِيَةِ التى تبدو له بعيدة كل البُعد عن المنطق والعقل، كل هؤلاء وأولئك بات علم النفس قادراً على تحديد عُقَدَهُم وتحليلها مبيِّناً أسبابها ومُسَبِّباتها.

وإن أحد الأعراض الشائعة لعُقْدَةِ الشعور بالنقص أو الإخفاق الشخصى هو الرَغْبَةُ فى إحداث تغيير فى النظام الاجتماعى البيئى أو فى العالم أجمع، إننا كثيراً ما نلهث وراء تغيير عائلاتنا لا أنفسنا عندما نحسّ بالفشل فى شىء ما، كذلك الطالب الذى يتعثّر فى حياته الدراسية يودّ لو يتغيّر الأساتذة أو النظام التعلّيمى، والموظف الذى يعانى ضُمُور العائد المادى الذى يتناوله يتمنّى لو أن رئيسه يتغيّر، فهو يرمى تبعات تغييره على غيره، وحتى مَنْ يقفون فى عداد المُتَبَطِّلِينَ ولا يجدون عملاً يرتزقون منه يودُّون لو تغيّر النظام بأسره.

إن ما يدعو للغرابة والدهشة حقّاً، والذى اتضح لى من خلال تجاربى العديدة، أن أولئك الأفراد العاجزين عن الوصول إلى الصّدارة الاجتماعية فى محيطهم همّ أول السّاعين الذين يتحوّلون إلى مصلحين اجتماعيين لإصلاح غيرهم. والأمر المثير للدهشة أيضاً هو أنك تجد أن معظم المستغلين بمهنة الإصلاح الاجتماعى التى نشأت عنها معظم حركات الإصلاح الاجتماعى يُشترط فيهم أن يكونوا من خريجي الجامعات، فضلاً عن دراسة عليا لمدة ستين أو ثلاث، ولم يُشترط فيهم توافر صفات الشخصية الفاضلة ذات الاتزان العاطفى الذى لا مناصّ منه للنجاح فى معترك الحياة.

على أننى إزاء ما كان يُواجهنى من مثل هذه النماذج الغاية فى الغرابة والدهشة، كنت لا أتردد عن تشييط همم مئات الأفراد الذين يطمحون فى ولوج باب الإصلاح الاجتماعى؛ لأنهم كانوا أوضح مثال على فرار المرء من واجب إصلاح نفسه.

وهذه الأعراض السابقة التى تنحى باللائمة على الغير فى جميع تصوراتنا، والتى تتكرر يوماً بعد يوم حتى غدت عُدّة نقص تتلبس المجتمع، حيث نعزو بؤسنا إلى رجال المال أحياناً، وتارة إلى هذا الحزب أو ذاك، وتارة إلى النظام الرأسمالى أو طبقة الموسرين أو التقدّم فى الصناعة الآلية أو الإنتاج المُتزايد، كل هذه الأمور فى أساسها خاطئ، إننا نلوم كل شخص إلا أنفسنا وأخطاءنا السابقة وأنانيتنا المطلقة التى طَعَت بين العَنَى والفقير على السواء.

والأمر الغريب أن السنوات الأخيرة تمخّضت عن انضواء عدد وفير من الناس تحت لواء بعض مشروعات الإصلاح، إذ إن كل هذه المشروعات قائمة على أساس هذا الضّعف النفسى الكامن فى جمهرة كبيرة من الشعب.

إنها مشروعات يدعون أنها تقى الفرد مغبة الإخفاق والانفعالات والعادات السيئة، كما تقى البشرية شرّ تقلبات الحياة عموماً، وتلك مزية كبرى، فإن ملايين المواطنين عاجزين عن تدبير ميزانياتهم الشخصية أو العائلية هم من يشاركون فى مثل هذه المشروعات، وهم فى الأصل عاجزون عن الوفاء فى حياتهم، فكيف بهم يشاركون فى مشروع اقتصادى ضخم عامّ.

وبقدر ما تُصنَّح أمثال هذه الإصلاحات الاجتماعية رُكنًا أساسيًا من أركان البناء الاجتماعى، تكون هى نفسها العامل الأول الذى يهدم أولئك الأفراد المقصود إنقاذهم وتحسين حالهم. وأقصد بالهَدم هنا حرمان أولئك الأفراد أنفسهم من تحمُّل المسؤولية، وتلك نتيجة فى أساسها مأخوذة من الحرمان الذى نشهده بين الأسر، حيث يبقى الأب متحملاً مسئولية ابنه حتى بعد أن يبلغ السنَّ التى ينبغى أن يعتمد فيها على نفسه. إنَّ ما يحدث لهذا الابن لهو بالضبط ما يحدث للمواطنين كافة، وقد أطلقوا على بعض هذه الإصلاحات أنها محاولات لخدمة الإنسان «المنسى»، على حين أن الإنسان المنسى الوحيد فى عُرْف علم النفس هو ذلك الذى ينسى نفسه ويحيل مسئولية هنائه وسعادته إلى غيره.

وكنْتُ أوثرُ قبل البدء فى معالجة الشبان والكبار أن أوضح لهم مدى ما يستطيع أن يقدمه الطبيب النفسى، ومدى ما يعجز عن تقديمه. لقد كان الكثير فيهم يقصدوننى وهم يأملون فى حل مشكلاتهم، ظانين بهذا القصد أننى سأقدم لهم علاجًا سريعًا ناجعًا لا يشوبه ألمُ البتَّة، وهذه الأمنية لا بد أن تتحقق فى كل المرضى، ولا سيما المرضى النفسيين الذين أعطاهم هذا الأمل بصورة أكبر نظريات التحليل النفسى، والتى تشجّع الفرد على طَرَح عُقْدَه على المُحلِّل النفسى، كأن تشكو فتاة من عقدة أوديب على سبيل المثال، فإذا وقعت فى حب المحلِّل النفسى أمكنه بعد ذلك أن يوجِّه شحنتها العاطفية أو الجنسية اتجاهًا سليمًا منضبطًا.

لقد كنت دائم القول أقول لمن يقصدنى: إذا فُرض أنك أُصِبتَ بأى مرض عضوى آخر، فإن الطبيب فى العادة سيحدّد لك علاجًا ما، كان تشرب مِلْعَقَةً من الدواء كل ساعتين أو تبتلع أنواعًا مُختلفة من الأقراص

كل ثلاث ساعات. وقد يكون الأمر أكثر من ذلك عندما يطلب إليك الطبيب إجراء عملية جراحية لاستئصال الزائدة الدودية، أو إصلاح اعوجاج عمودك الفقري وغيرها. كل هذه الأمراض والظروف التى وقعت تحتها تجعلك تحس أن أى علاج بالنسبة إليك سهل ومستساغ، لكن رجل علم النفس أو الطبيب النفسانى لا يستطيع أن يقدم لك مثل هذه الحلول السريعة، فهو لا يستطيع - عند تشخيصه لمرض - أن يصف لك مثل هذا النوع من العلاج ولا يستطيع إزالة العادات الخبيثة باستئصالها من كيانك، ولا حتى يستطيع أن يغرس فى ذاتك مجموعة من العادات المرغوبة، لكنه قد ينجح فى تشخيص المشكلة، ويُقدِّم بعض النصائح المفيدة فى صورة سلوكيات لا مفرّ من أن تؤدّيها، وأنت وحدك الذى يمكنه أن يمارس هذه النصائح العلمية، وغالبًا ما تتألف هذه النصائح من تلك الأعمال التى تأبى الآن أن تؤدّيها أو التى تجدها عملة غير مُسلّية.

وبعد أن أفرغَ من تشخيص حالتك، وتوافقنى على النتيجة التى وصلتُ إليها، سأطلب منك أن تؤدّى أمرًا أو أمرين، مُراعياً فى ذلك ألا يشقّ الأمر عليك، فإن كانت نتيجتك إيجابية وأفلحت فى تنفيذ ما أشرتُ عليك به، تكون قد خطوت الخطوة الأولى فى طريق التحسن والشفاء، وعندما تعود إلى نشرع فى رسم برنامج آخر. أما إذا لم يمكنك تنفيذ تلك الاقتراحات الأولى، فالأفضل ألا تعودَ إلىّ؛ لأننى كرجل سيكولوجى لا أستطيع أن أفيدك بشيء، فواجبى تقديم النصّح و واجبك تنفيذ العلاج.

وكنتيجة لهذه المقدّمة كنت أرى بعض المتردّدين علىّ مرة واحدة فقط، والبعض الآخر أراه فى فترات غير منتظمة على مدى سنين طويلة. وبينما

كنت أكتب هذا الفصل إذا برجل كنت قد فحصته منذ سنوات مضت، أوقفه طبيبه الخاص إلى، وذلك بعد أن أخفق في فحصه الطبى المتكرر في الوقوف على أسباب نوبات الإنهاك الحادة التى كانت تصيبه بين وقت وآخر.

وقد أظهر الفحص أن هذا الشخص لا يفتقر إلى العادات السليمة فحسب، بل يفتقر إلى الكثير من عادات الحياة البسيطة، حتى كانت نوبات الإنهاك التى تعترضه تجعله غير قادر على القيام بأعباء أى عمل متواصل، أو هكذا كان يظن فى نفسه. أما رأى الخاص فهو أنه كان يُعانى شحنة زائدة جداً من الطاقة لا يستطيع أن يُعبّر عنها التعبير الكافى، أو يستخدمها الاستخدام الأمثل، وكان حُكمى فى هذه الحالة جائراً جداً لدرجة أننى قلت له : إذا لم توفّق فى عمل تقوم به لمدة عام، فليس لك عندى ما أقوم به.

ومرّ وقت قبل أن يجيئنى الرجل، وقد حضر لى خصيصاً ليخبرنى أنه حصل على وظيفة، وأنه لا يزال يعمل بها منذ سنة على الرغم من نوبات الإنهاك التى تصيبه بين وقت وآخر، حتى تُلزمه بالاعتكاف فى المنزل بضعة أيام فى كل مرة، وأنه يريد أن يعرف ماذا يمكنه أن يفعل، لأن الفحص الطبى الأخير وجدّه فى صحّة ممتازة يُحسّد عليها، ومن ثمّ شرع يسطّ لى برنامج نشاطه الذى خصّصه لقضاء أوقات فراغه، فوجدته قد خصّص ليلة من كل أسبوع يقضيها بالجمعية التى يتّمتى إليها، وزيارة أسبوعية إمّا لأهله أو لأهل زوجته، وأمسية يصحب فيها زوجته إلى السينما أو إلى أحد المطاعم، وليلة يقضيها فى اللعب مع معارفه وأصدقائه، ولم يفتّه أن يُدرج فى حسابه ليلة للإنهاك الذى يصيبه بين وقت وآخر.

واكتشفتُ أنه لم يعد يُخصَّص من وقته جانباً لهوايته الأساسية وهي المطالعة، ولا عَجَبَ فقد درس الكتب كثيراً، وخبرَ الناس قليلاً. ومنذ ذلك الوقت ونجاحه في تنفيذ ذلك البرنامج يطرَد، حتى أنى أيقنت أنه سيكتسب من عادات التعبير عن طاقته عددًا كافيًا يجعل نوبات الإنهاك عنده نادرة الوقوع، ولقد انتقدني بعض زملائي لكوني قد بلغت حدَّ التطرف في إصراري على استقلال المرء واعتماده على نفسه، لا سيما أولئك الذين يشجعون مَرْضاهم على كثرة التردد عليهم. وجوابي عن ذلك أنى أؤثر أن أدع المريض يرتكب الخطأ بنفسه على أن أرْتب له أمر أخطائه، وما أكثر ما قلت لمئات المتردِّدين على إن ارتكابهم سبعة أخطاء خيرٌ من ارتكابهم خطأ واحدًا. وليس هناك شكٌ في أن الاتجاه السيكلولوجي الحديث ينحو إلى جعل الأفراد مسئولين عن أنفسهم وعن تصرفاتهم وسعادتهم.

ولا أنكر أن أى شخص عادى قد يحتاج إلى معونة مؤقتة، سواء أكانت معونة نفسية أم طبية، روحية أم مادية، فقد دفعت الأزمة العالمية كثيراً من المواطنين، الذين يعتمدون على أنفسهم إلى حالة يُرثى لها، ورزأتهم بمصائب لا حدَّ لها، حتى إذا حاولنا إزالة هذه المصاعب التى يَرزح تحتها هؤلاء الناس عن طريق اعتمادهم على غيرهم لإزالتها، سواء أكان هذا الغير هو الطبيب النفسى أم الدولة، فنحن إنما نخطئ في حق أولئك الأفراد وفي حق أولئك الذين ينبغي أن نتصدى لهم بالمساعدة. ومثْلُ ذلك كمثْل مَنْ يشجّع شخصاً على بيع أثمن ما لديه لقاء قَدَح من الحساء، لأن هذا الإجراء يحرم المجتمع من تلك الفئة من الناس التى تجعل مبدأ الكفاية الذاتية أمراً ممكناً في هذه الحياة.

وإنَّ من يدرس تعاليم المسيح الدينية يدرك للوهلة الأولى أنها تدور حول حالة الفرد لا حول إقامة نظام اجتماعي جديد، ثم إن المكتشفات الحديثة لتدلَّ على أن السيد المسيح كان أسلم تفكيراً ولا يزال من زعماء عصرنا البارزين، فهو ليس مُصلحاً اجتماعياً بقدر ما هو مُصلحٌ للبشر أجمعين. لقد رفض المسيح بعزم راسخ وحذر مُتناهٍ أن يربط نفسه بأى مشروع اجتماعي، وعندما سُئل عن دفع الجزية لقيصر هل هذا حلال أم حرام؟ كانت إجابته: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، وكان يتَّهم الفريسيين من الناحية الدينية لفساد معتقداتهم الدينية التافهة، كما كان ينتقد الأنبياء لأنهم وضعوا الثروة فوق كل شيء. ولم يكفَّ عن قوله لتلاميذه: «اطلبوا أولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزداد لكم»، وطردَ صيارفة اليهود من المعبد^(١)، دون أن يصادر أموالهم، وكان يأكل مع الغنى والفقير على حدٍّ سواء، كما كان يحثُّ على الحدب على الفقير، لكنه لم يكن يشجّع الفقير على أن يحسد الغنى. ولَمَّا جىء به لمحاكمته أمام بيلاطس البنطي^(٢) لم يجد الأخير أى دليل يُدينُ به المسيح، وأنه كان ينادى بنظام اجتماعي جديد، أو بأى نوع من التأمين الاجتماعي لا ينبع من صميم أخلاق الفرد نفسه. وفى الوقت الذى كان فيه المسيح لا يُهمل شأن المطالب المادية للحياة، نَجِدُهُ يُوَجِّه أكبر قسط من اهتمامه نحو استقلالية الفرد وتساميه عن ماديات الحياة، مخلصاً لسنن الاستقامة والكمال.

(١) لما وجد المسيح اليهود يبيعون البقر والغنم بالهيكل، والصيافة جلوساً فيه صنع سوطاً وطرد الجميع من الهيكل وكتب دراهم الصيافة وقلب مواثيقهم مستنكراً أن يجعلوا من بيت الله بيت تجارة.

(٢) الحاكم الرومانى.

ولقد انكفأ نفرٌ من رجال الدين يُفرِّقون بين النظر إلى الحياة نظرةً مادية، والنظر إليها نظرةً روحية، فيقول أحدهم: «إن شهوة اكتناز المال وعبادة الرِّخاء هما صَمَمَا القرن العشرين الزائفان»، ومع ذلك تجد بعض الزعماء الدينيين يناodon بمبادئٍ أخرى مختلفة كلِّ الاختلاف، والأكثر أن بعضهم قد وصلت شهرته حدًّا بعيداً وشأواً واسعاً وخصوصاً بعد الأحاديث الفَيَاضة، التي كان يدعو إليها والتي كانت تنادى بإعادة توزيع الثروة، وإنشاء البنك المركزي، حتى بلغ عدد مُريديه عشرة ملايين نفس، وتعديل نظام المِلْكِيَّة وموازنة الإنتاج بالنسبة لحاجيات الاستهلاك.

ولا شكَّ أن مثل هذه المبادئ، المقصود بها الإصلاح الاجتماعي، وغيرها من المبادئ التي تدعو إليها بعض الهيئات الدينية مخالِفٌ لتعاليم السيد المسيح عليه السلام، ولو كان السيد المسيح حيًّا بيننا الآن لآوى أولئك المُشردِّين الذين لا مأوى لهم في بيوت الله، ولأَوْحَى إلى كل من حَظَى بعمل يرتزق منه أن يمدَّ يد المساعدة إلى أخيه المُتَعَطِّل، ولأَفْضَى إلى السعيد أن يشرب قليلاً من كأس البؤس الذي يتعاطاه غيره ممن هم أقل منه حظًّا، ولأَقْنَع الغنى والمُقْتَدِر أن يبذُلًا ثروتيهما وخدماتيهما في سبيل إيجاد عمل مناسب للمتعطلين، ولأَمْكِنه أن يُحِيلَ كل هذه الآلام والمتاعب إلى قُوى رُوحية وشعور نقى جارف يتولَّد عند كل شخص من خلال الاعتماد على نفسه. ولو كان يعيش بيننا اليوم لبذَل العون المادى لكل من يطلبه على نحو ما كان يفعل، ولم يكن ليعدَّ الناس بالطُمَأْنِينَة في هذا العالم المادى فقط، بل كان سيسوق إلى الغنى والفقير على السواء القيم الخالدة للحياة الآخرة على أنها مفتاح الحياة الوفيرة في عالمنا الفانى المندثر. فتراه بدل أن يُخضع الضعيف لنُظْم آليَّة لا معنى لها، يحاول أن يجعل

القوى إنساناً عطوفاً يمدّ يد المعونة إلى أخيه الضعيف من تلقاء نفسه وبوحي من شعوره. ولقد استقيتُ مثل هذه التأملات السالفة من وحي عقيدتي الدينية وإيماني المطلق الذى طالما دعوتُ إليه. أما من الناحية النفسية فما أكثر ما كان يصادفنى أناس لا يكفون عن التماس ما يُبرّر ضعفهم وفشلهم. وإنى لأسجّل أن مثل تلك الاقتراحات السابقة التى قدمتها ليست إلا دليل فشل وشعوراً بالنقص وقع فيه البعض، إذ ترى أصحابها وكأنهم يعترفون بصراحة قائلين:

«نحن رجال الدين قد أخفّقنا فى حمل رسالة نبينا، وعجزنا عن بث روح الإيمان بالله فى نفوس رعايانا، وإذ أخفّقنا فى غرس العادات الدينية الأساسية فى قلوب الناس، فلا شك أن النظام الاقتصادى القائم فاسد، ولهذه الأسباب مجتمعة استقر رأينا على تغيير هذا النظام». أمّا كيف يُحقّقون هذا التغيير دون انتقاص المبادئ الأساسية للدين ومخالفتها صراحة، فيظلُّ سؤال بلا جواب.

وعلى أى حال ليست هذه هى الوسيلة التى تؤدى إلى حياة وفيرة وسعيدة كما يراها علماء النفس. فلو إننى لو قلت لأولئك الشبان الذين يقصدوننى لحل مشكلاتهم التى تصادفهم أثناء تعليمهم: إن نظام التعليم فاسد وينبغى إلغاؤه فوراً لما ساعدتهم بشيء؛ إذ لا يصحُّ أن نحل مشكلاتنا بأن نجد مبرراً لخطأ الغير وتقصيره فى فعل أثر علينا، ولا أستطيع أن أصرّح لأولئك العاجزين عن كسب الأصدقاء بأن القيم الاجتماعية القائمة خاطئة، كذلك لا أستطيع أن أصرّح بالقول لأولئك الذين يعانون البطالة والعطالة، بأن نظام العمل السارى يعتوره نقصان وفى حاجة ماسة إلى التعديل والتنقية والإصلاح، كما كنت مخلصاً فى تقديم المعونة إلى كل أولئك الناس.

ولا أستطيع أيضاً أن أنكر أن نظام مؤسساتنا الاجتماعية والاقتصادية
نظام ناقص، ولكن بلوغ هذا النظام حدّ الكمال ممكن التحقيق إذا تولاه
أفراد بلغوا حدّ الكمال والإنصاف.

الفصل التاسع

آفة التعليم

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ (يونس: ٣٩)
« لا يخدعن أحد نفسه. إن كان أحد يظن أنه حكيم بينكم فى هذا
الدَّهر فلْيَصِرْ جاهلاً لكى يصير حكيماً. لأن حكمة هذا العالم هى جهالة
عند الله . . . » (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس ٣: ١٨-١٩)

برغم أن خبرتى المهنية كانت مقصورة على العاديين من الناس، أى
أولئك الذين لم يبلغ شذوذهم حد المرض، إلا أننى صادفت فى حياتى
المهنية بعض المُصابين بالعادات الجسدية السيئة، فضلاً عن الرذائل النفسية
والاجتماعية المُتداوَكة، فقد كانت المبالغة فى التعليم على حساب الواجب
المهنى والنَّهْل من الثقافة فى مقابل إضاعة قيمة العمل من أكثر العادات
تفشيًا وانتشارًا.

فى إحدى الإحصائيات الرسمية المُتعلِّقة بالتعليم الرِّسمى والتى تُعدّ
إحدى الظواهر البارزة فى التاريخ الأمريكى، بلغ عدد طلبة الجامعات عام
١٨٨٩ فى الولايات المتحدة الأمريكية ٥٥٦٨٧ طالبًا، على حين قفز هذا
الرقم عام ١٩٣٨ إلى ١,٣٤٦,٨٥٦ طالبًا، أو بمعنى آخر بلغ أربعة

وعشرين ضِعْفًا. وفى عام ١٩٣٠ كان ثلث أطفال الولايات المتحدة يتلقون التعليم الثانوى كله أو قسطًا منه، ثم ارتفعت هذه النسبة إلى الثلثين عام ١٩٣٨، وكان الاتجاه السائد حتى نشوب الحرب العالمية الأخيرة يتجه نحو الإسراع فى زيادة عدد طلبة المدارس الثانوية والكليات.

وبغض النظر عن كون هذا الاتجاه مطلوبًا أم غير ذلك، أو كان هذا الاتجاه طبيعيًا أم لا، فإن حركات الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى كلها لا تهدف إلا إلى الغرض السابق، وهو أهمية التعليم الرسمى، حتى أصبح الأمل فى تعليم كل طفل بالجامعة أو ما يوازيها هو الهدف الذى يداعب قلوب الآباء والأمهات، ولا شك أن هذا الاتجاه أيضًا يهدف إلى نشر التعليم بصورة راقية، وإعداد الأفراد لمواجهة الحياة. غير أن التجارب التى أجراها أساتذة علم النفس فى السنوات الخمس السابقة^(١) أثبتت أن التعليم بعد المدارس الابتدائية لا يُفيد قليلًا أو كثيرًا فى تحسين الشخصية، بل على العكس من ذلك اتضح أن الأفراد الذين لم يُمارسوا أى قدرٍ من التعليم لا يقلّون فى شخصياتهم أو فيما يتحلّون به من صفات عن خريجى الجامعات، وأن الطلبة الكسالى بالمدارس الثانوية أو الكليات الجامعية لا يفترون فى صفات الشخصية عن أكثر زملائهم اجتهدًا.

وبناءً على اختبارات قياس الكفاية المدرسية وغيرها من الاختبارات، مثل اختبار روث للشخصية المُبسطة والمنطوية، واختبارى لقياس الشخصية، اتضح أن الطلبة البارزين فى ذكائهم المدرسى ذوو شخصيات ضعيفة، وأن أولئك الرّاسبين أو المتعثّرين فى اختبارات الذكاء نجدهم ذوى

(١) أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين.

شخصيات مُتَوَقَّعة. وقد أثبتت الملاحظات أيضاً أنه فى حين تتحسن شخصيات بعض الطلبة خلال فترة التعليم الجامعى أو الدراسة الثانوية، نجد شخصيات البعض الآخر تنحط وتدهور. وبمعنى آخر؛ أن الكفَّتين متعادلتان، وأن التعليم لا يُقدِّم ولا يؤخِّر فى محيط تحسين الشخصية.

ومن خلال الدراسات التى أُجْرِيتْ فى محيط علم النفس، فليس هناك دليل واحد يثبت تحسن الخلق أو ازدهار الشخصية نتيجة للتعليم العالى الحالى، بل إن الدليل الثابت من خلال هذه التجارب أيضاً أن مثل هذا التعليم لا يفيد «الشخصية» كثيراً، وهناك ما يثبت عكس هذه النظرية، فى إن مواصلة التعليم الرسمى السائد، وإطالة مدته يؤديان إلى تدهور الشخصية، والواقع أن هذه التجارب تبدو للرائى فى أول وهلة شديدة التطرف، إلا أن أصحاب الأعمال والآباء وحتى بعض رجال التربية يؤكدون صِحَّتَها وصدِّقَها نتيجة لتجارِبهم الشخصية، حيث لم يعد أصحاب الشركات والأعمال يتلهفون كسابق عهدهم على استخدام خريجي الجامعات، بل أصبحوا يتأثرون عند اختيارهم بنشاط الفرد خارج منهجه الدراسى، ومدى مهارته فى التعامل مع زملائه، أكثر من اهتمامهم بنجاحه وتَفَوُّقه لدى أساتذته.

وبهذه المناسبة يُروى عن الأستاذ «كانون» حين سأله أحد الطلبة الذين لم يستكملوا تعليمهم بعد عن رأيه فى التعليم الجامعى، قال: «لا أظن أن التعليم الجامعى يضُرُّ الطالب المتوسط الذكاء كثيراً»، وبرغم أن جمهرة كبيرة من المفكرين والباحثين يميلون إلى مثل هذا الرأى، الذى يبدو متطرفاً بعض الشيء، إلا أن ذبوع مثل هذه الآراء لا يزال محصوراً فى نطاق ضيق، قد يكون سبب قلة الذبوع هو أن التجارب والاختبارات العلمية أو

شبه العلمية ستجدهم ينظرون إليها بعين الجدِّ والاعتبار. وعندما يروجُ انتشار مثل هذه النظريات بدرجة كافية بين الناس سنلُمس في نُظمتنا التعليمية التى تُعتبر حديثة نسبياً حاجتنا إلى انقلاب شامل فيها، طال انتظارنا له وفات وانقضى عَهْدُهُ من زمن بعيد.

وبطبيعة الحال، فإن تجاربى مع الأشخاص الذين أُصيبوا بآفة التعليم ليست شيئاً أتميّز به، ولكنها أعراض حالة مُتَفَشِّية قائمة بالفعل، كما أن الطُّرق التى تجعل التعليم مُعطَلاً لنمو الشخصية أو يدفعها إلى الانحلال تتضح من المثالين التالين لحالتين إحداهما شاذة والأخرى عادية.

أما الحالة الشاذة فهي حالة شابٍ فى التاسعة والعشرين من عمره، جاء يطلب معونتى؛ لأنه لم يعد راضياً عن مهنته كمهندس كيميائى ويحاول الاتجاه إلى مهنة أخرى، وكان قد تخرَّج فى أرقى المعاهد الهندسية، وحصل على لقب زميل المهنة نظراً لتفوقه بعيد المدى، كما حصل على درجة الماجستير بعد سنتين، ثم نال درجة الدكتوراه بعد ثلاث سنوات قضاهما فى إحدى الجامعات الألمانية الشهيرة لأبحاثه فى أحد فروع الكيمياء المتقدِّمة، وعند عودته إلى وطنه ظفّر بوظيفة بمعامل أبحاث أحد مصانع الصُّلب الشهيرة. وفى نهاية العام طُلب منه أن يتخلّى عن منصبه لعدم كفايته فى إعداد الأجهزة الفنية لتجاربه وتركيبها.

وقد صارحنى هذا الشابٌ بصحة هذا الأمر، وأنه كان يشعر بأن عدم كفايته هذه عقبة كاداً لا يمكنه التغلّب عليها برغم محاولاته المتكررة أثناء عمله، حتى عندما كان يقوم بتدريس مادة الكيمياء. وكان يرجو أن أكتشف فيه أى استعداد آخر فى نفسه قد يساعده على امتحان مهنة أخرى، واقترح على ميادين عمل أخرى ومن ضمنها علم النفس.

لقد كانت حالته محزنة فعلاً بسبب الإخفاق واليأس التام الناجمين عن التَّسْوِيف الطويل لمُواجهة الواقع . ولقد أظهرت الاختبارات أن للرجل قُدرة متوسطة على العمل الآلى، ولو أنه حاول أن يُنمى هذه القُدرة مبكراً لنجح برغم عدم ميّله إلى الأعمال اليدوية، لكنه بدلاً من ذلك سلك الطريق الأسهل، وأعنى بذلك الدراسة النظرية التى يُولعُ بها، متجنباً فى الوقت نفسه العمل، الذى لا يميلُ إليه وهو تطبيق هذه النظريات عملياً، فلما بدأ تعليمه يؤتى ثماره وجدَّ نفسه عاجزاً . وبالرغم من أنه كان حسن الهيئة، وتبدو عليه مظاهر الشخصية المَرَضِيَّة ظاهرياً، إلا أنه كان يحتاج إلى الثقة بنفسه؛ إذ ظلَّ متردداً حتى تولدت لديه عادات انطوائية، على حين تدهورت شخصيته وقدراته خلال سِنى دراسته، تلك الدراسة التى توخى فيها الإشباع الزائف لرغبته فى الحصول على الدرجات العلمية.

أما الحالة الأخرى فهى حالة شاب أوفى حظاً من زميله، إلا أنه كان يتَّجه إلى نفس المصير، إذ تخرَّج حديثاً فى الجامعة وكان على وشك اختيار مهنته، فحاول دخول قسم الصَّحافة بإحدى الجامعات، ثمَّ حاول الالتحاق بقسم التمثيل فى جامعة أخرى، ثم قسم اللغة الإنجليزية فى جامعة ثالثة، وكانت أسرته على استعداد تامٍّ للسَّماح له بالدراسة فى أية جامعة لمدة ستين أو ثلاث سنوات .

أما أبوه فيبدو أنه من رجال الأعمال ذوى العقول الجادة، وكان يتوقُّ إلى أن يلتحق ولده بأى عمل . وكانت أمه من المثقَّفات، وترغب فى أن يدرس ولدها إحدى المِهَن النظرية، ولقد تأثر الفتى بآراء والدته وبالتعليم الجامعى تأثراً شديداً حتى غدا كارهاً للعالم المادى المحيط به، واعترف لى قائلاً: « كم أتوق إلى معرفة قيم الحياة الثقافية العليا والاستمتاع بها،

وليست بى أدنى رغبة فى التَّكالب على الثروة، ولا أن أكون من رجال المال الناجحين. وإنى لمغرم باللغة الإنجليزية، ولقد كتبتُ شيئاً ولكنه ليس للنشر، كما أنى أحب التمثيليات، وأفكرُ فى الاشتغال بالتدريس أو دراسة الصحافة أو أعكف على تأليف المسرحيات، فإنى لا أحتمل فكرة التضحية بسرائى الثقافى فى سبيل الأعمال المالية الجافة الطّاحنة.

ولقد أظهرت الاختبارات النفسية أن استعداداه العلمى متوسط، وإن كان قد أبدى موهبة فى اللغة الإنجليزية واستعداداً طيباً للصحافة. ولعل أوضح ما كان يبدو عليه هو شخصيته المترددة، ومع أنه شاب وسيم جذاب الهيئة طيب السلوك، إلا أنه لم يكن لامعاً أو متحمساً أو صلباً. أما أفكاره فكانت غامضة وحديثه يفتقد الجاذبية.

ولم أحاول أن أثنيه عن رغبته فى النَّهل من الثقافة، بل شجّعت بادئ ذى بدء على اتخاذ الصحافة مهنة له، وحفزته بقدر طاقتى عن طريق المنطق بالحصول أولاً على العمل فى صحيفة أو مجلة أو دار للنشر... أى عملٍ مهما يكن نوعه، كما أوضحتُ له مدى ما وصلتُ إليه شخصيته التى يعرفها هو جيداً من قدرة على الامتصاص حتى غدتُ شخصية «إسفنجية»، وأنه إذا واصل النَّهل من التعليم فإنه سيطل شخصية ماصة. وبيّنت له أنه يحتاج إلى تنمية قدرته على العمل المشترك مع غيره أو عادة تحويل طاقته إلى عمل مفيد تحت ضغط المنافسة فى الحياة الاجتماعية، وأقنعتُ بأنه عندما يكتسب بعض هذه العادات فسوف يستطيع دراسة الصحافة بنجاح، وبطبيعة الحال سوف يتوصّل إلى اختيار الموضوعات التى يستطيع أن يتناولها.

وجاءنى بعد ستة أشهر ليُخبرنى عن العمل الذى يقوم به فى إحدى المجالات فقال: «لم أكن سعيداً فى حياتى مثلما أنا الآن.»، ثم أردف متعجباً: «حقيقة إن العمل الذى أؤديه ليس بعمل بالمعنى الحقيقى، غير أنى تعلّمت الكثير عن الناس وكيفية التعامل معهم، وذلك ما لم أكن أعرفه من قبل. وإن عملى لهو قصُّ المقالات ولصقها، ولكنى عندما أشعر بأن العمل أصبح رتيباً مُملًا أتذكّر نصيحتك: «أى عمل حتى لو كان نقل الأحجار أو ساعياً أو لفّ الطُروء، لأن ذلك سيفيدك وسيمدّك بكفاءات أنت فى حاجة إليها.» «وإن وظيفتى الآن لأفضل بكثير من تلك الأعمال، ولقد كان لها الفضل بكل تأكيد فى أن أنظر إلى الحياة بطريقة أخرى تشدو بالصفاً والبهجة، ولسوف ألتحق بالدراسة المسائية للصحافة هذا الشتاء.»

وبعد هذه التجربة أستطيع أن أقرر أن التغير الذى طرأ على سلوك هذا الشاب ومظهره كان مثيراً، حيث أصبح متحمساً للحديث بطلاقة وثقة فى النفس، كما أصبح قادراً على تحقيق هدفه جيداً، والواضح أن طاقته الكامنة قد أخذت فى الانطلاق.

وقد أمكنتى أيضاً بفضل الاختبارات والخبرات السابقة أن أقدم يد المعونة إلى عدد كبير من الشُّبان، وذلك من خلال رسم الخطط التى يُوَاصِلُون بها تعليمهم، واكتشاف لياقتهم بواسطة الاختبارات النفسية.

غير أن رغبتى هذه ما كانت تحول دون أن أمنع المثات من تحقيق المشروعات، التى كانت تداعب فكرهم ورغباتهم، ذلك لأن شخصياتهم أصبحت عاجزة عن مواصلة عملية الجذب والإفادة من البشر الحقيقيين الذين يملثون المحيط التفاعلى الحياتى من حولهم، لا إلى البشر الذين تغصُّ بهم كتبهم.

إنهم فى حاجة إلى وضع نظرياتهم التى تعلّموها موضع الاختبار بدلاً من حشو العقول بنظريات تقترب من الفَضْفَضَةِ الذهنية، لقد أضحوا فى حاجة إلى الكَفِّ عن الامتصاص كالإسفننج، ولعلّى أستطيع القول إن مثل هذه النماذج يتلذّذون بـ «عملية الامتصاص» هذه حتى أصبحت رذيلة لاصقة بهم، وصاروا فى حاجة إلى البدء فى العطاء والبذل والإنتاج التى يَرهبونها.

وانطلاقاً مما سبق أستطيع أن أقدم العديد من الأسباب الوجّيهة التى تُدعّم نتائج علماء النفس بخصوص الآثار الضّارة الناجمة عن التعليم، إذ تحوّل ملفّاتى ما يَنُوف على المائة قُصاصة من التصريحات التى أدلى بها بعض رجال التربية البارزين وبعض الهيئات التى وُكِّلَ إليها دراسة نظام التعليم القائم، وجميعها تُشير إلى الأخطاء والعيوب السّارية فى نظامنا التعليمى. وعلى أية حال فسأقتصر فيما سأدلى به على الأسباب التى ظهرت لى إِبّان تجاربى مع مرّضى، وعلى نتائج الدراسات التى قام بها غيرى من أساتذة علم النفس.

فالواقع أن الطريق المؤدى إلى الشخصية الجذّابة هو نفس الطريق المتّبع للحصول على العادات الانبساطية، والتى تتلخّص فى اكتساب المرء خبرة توفّله لتحويل طاقته فى اتجاهات نافعة تُشبعه، فالطفل بطبيعته أوّل مستهلك لطاقته داخلياً، وقُدّرت على الاستهلاك أو الامتصاص أكبر من قُدّرت على الإنتاج.

أما الشخصية الجذّابة والمنضبطة فأولى صفاتها الإنتاج، بحيث يفوق إنتاجها وعطاؤها مستوى استهلاكها، وبمعنى آخر ينبغى أن يتمتّع الفرد

بعدد وفير من مهارات إرضاء الغير، وكَسَب رضاهم كى تغدو شخصيته جذابة، أما كون هذه المهارة ترضيه نفسياً وتشبعه، فهذا أمر يأتى فى المرتبة الثانية، وإذا كنا نمنح أطفالنا كل شىء، ونُسَخِّر مواردنا فى سبيلهم دون حدود، فإنه بالمثل لا بد أن تُسَخِّر الشخصية الفردية نفسها وجهودها فى سبيل مَنْ حولهم، أعنى فى سبيل الغير.

وإذا كانت فترة التعليم تساعد على تنمية مجموعة من العادات المرغوبة والعادات الطيبة، إلا أنها فى الوقت نفسه مرحلة تشبُّع وامتصاص، وأكثر العادات التى تُنمِّيها فى الواقع هى عادات الامتصاص، ولما كانت فترة التعليم بالمدارس الثانوية والكليات وما بعد التخرج تُزِيد عادات الامتصاص تأصلاً، فغالباً ما نرى أن عادات الإنتاج مُعَطَّلة إلى حين، فنجد الفرد منهم يعتاد الإصغاء والمطالعة والدراسة، والتقليل من قيمة العمل وبذل النشاط. إننا نربى أبناءنا على التَّلَقَّى والامتصاص دون التفاعل والمشاركة حتى يصبح الواحد منهم بعد تخرُّجه عاجزاً عن معرفة ما يمكن أن يفعله فى استراتيجيات أخرى قد تقابله فى الحياة. لقد قال لى أحد زائرى من الطلبة، الذين لم يتخرجوا بعد فى إحدى الجامعات الشهيرة إنهم كانوا يرون السؤال التقليدى الذى يُوجَّه إليهم عما سيفعلونه عقب التخرج ثقیلاً مملاً وغير محبَّب إلى قلوبهم. إن كثيراً من الطلاب الذين يُتَقَنُّون مهنة ما سيكون أمامهم وقت طويل حتى يكتسبوا العادات الجوهرية اللازمة فى محيط العمل؛ إذ إنهم فى الأصل قد تربُّوا على التَّلَقَّى دون التفاعل والمشاركة.

لقد بلغت عادات التَّلَقَّى تلك حدّاً بات يُنظر إليه على أنه من جملة الرذائل التى قد تلصق بالشخصية السوِّية، وبتنا نسمّى مواصلة النهل من

الثقافة و التعليم والحياة الفكرية (رذيلة)، لا سيما إذا أصبحت هذه العادة الحميدة عقبة كثود فى سبيل تكوين شخصية جذابة مبتكرة إنشائية وفاعلة .

إن الذين ينهجون مثل هذا النهج يميلون أكثر إلى القراءة والتعليم فى علم النفس، ذلك أن طاقة هذا الشخص المعطّلة لا تدور إلا حول نفسها، ومن ثم يذهب إلى دراسة علم النفس الذى يجعل شخصيته لا تكفُّ عن الدَّوران، وهذا بلا شكَّ خيرٌ مثال على الانطواء . أما الشخص المنبسط، أى المتمتّع بعدد وافر من العادات الطيبة فليس فى حاجة إلى دراسة علم النفس؛ لأنه يمارس بالفعل علم النفس وآلياته، فلن يكتسب العادات الطيبة من وجهة نظر علم النفس من قراءة كتب علم النفس، اللهم إلا إذا تفاعل وتشارك أكثر حتى يصل إلى اكتساب العادات الطيبة المقبولة، ولكى يصل إلى ذلك عليه أن يتقن لعبة الجولف إتقاناً عملياً قائماً على الحماسة والتجريب لا من قراءة الكتب المؤلفة عن الجولف، كما لن يستطيع أن يعبر نهراً ضئيلاً ولو قرأ آلاف الكتب عن فن السباحة، وكيف تكون السباحة ضد التيار أو معه، فلن يتسنّى له ذلك إلا بالنزول فى معترك تضارب الأمواج، التى تحرك فيه القدرة على أن يضرب بيد هنا وقدم هناك .

ولقد حذّرت ما ينوف على الألف شخص من الانغماس فى مطالعة كتب علم النفس، فإذا كانت ثمة فائدة تعود على المرء من التعمق والاسترسال فى قراءة كتب الطب والتشريح - وهذا أمر مشكوك فيه - فلا بأس إذاً أن ينكبّ بالمثل على كتب علم النفس، فكلتا العادتين تخلق شخصاً دائم الخوف من المرض، وهما من أعراض الإفراط فى التعليم والمبالغة فى عادات الامتناع .

إن هذا التعليم يشبه تماماً فترة الحضانة، حيث يكون الاهتمام بالطفل والحدب عليه وإبعاده عن أية تيارات عقلانية سائدة، برغم أن الغرض الأساسى من فترة الحضانة هو إعداد أطفال قادرين على مجابهة الحياة أو إعداد أناسٍ لحياة نافعة ومفيدة، فكُلما طالَّت المدة التى يبقى فيها المرء محتجباً عن حقائق الحياة العملية انخفضت قدرته على مواجهتها عندما يحين وقت مُجابهتها. لكن هذا الأمر قد يختلف بالطبع مع حالات معينة كدراسة الطَّبّ على سبيل المثال، فهى تتطلب وقتاً كافياً للتدريب والمران والممارسة داخل المستشفيات عقب التَّخَرُّج مباشرة، فكل الساعات التى يقضيها الطالب فى سنواته الدراسية، وكل هذا الإرهاق والنظام الصَّارم الذى يتعرَّض له ويعيش عليه، كل ذلك يعدُّ من وجهة نظرى تعطيلاً للمرء فى حياته العملية. ويؤسفنى أن أقرر أن خفض المستوى الدراسى، والذى جاء نتيجة لا مفر منها للرغبة فى حشد أكبر عدد ممكن من الأطفال فى المدارس، يجعل من التعليم بالنسبة لأولئك الأطفال المُتميّزين - وكان بوسعهم الاستفادة إلى حد كبير من النظام القديم - مجرد نُزْهة فى الخلاء.

وكثيراً ما تتبنى الحكومات الآن فكرة الهبوط بمستوى التعليم ليتمكن عدد كبير من الطلبة اجتياز السنوات الدراسية المقرَّرة عليهم فى المدارس والجامعات، وتلك فى ظنِّى فضيحة كبرى، لا بالنسبة للطلاب ضعاف المستوى، ولكن لضعف مستوى المواد الدراسية المقدَّمة، وبخاصة إذا كان هذا الخفض العلمى فى مواد الحساب والعلوم والرياضة. إن هذه العلوم بالذات هى إحدى المجموعات التى أثبت علماء النفس تأثيرها المُفيد على الشخصية، فمادة الحساب على سبيل المثال، تساعد على تكوين أفضل العادات وأدقَّها قياساً بغيرها من المواد كاللغات والعلوم الاجتماعية، حيث

تجد المستوى المطلوب لمادة الحساب يتطلب عناية مستفيضة وجهداً أشدّ، فكلما أتاحَت المادة المدرسية للطالب الفرصة لعدم الاهتمام أو التخلّي عن الاعتناء بها كانت هذه المادة ذات ضرر بالغ في تكوين صفات الشخصية المرغوبة. هذا الكلام ينطبق بالطبع على المستوى العام لا على النابغين من الطلبة، الذين يتفوّقون على الرغم من ضعف البيئة التعليمية المحيطة بهم مهما يكن نوع المواد التي يدرسونها.

وقد نادى بعض علماء التربية بإلغاء نظام منّح الدرجات كوسيلة لانتقال الطالب من فرقة إلى أخرى أعلى، مطالبين بضرورة نقل الأطفال آلياً وبلا استثناء من فرقة إلى أخرى بغضّ النظر عن مستواهم ومدى تحصيلهم، والواقع أن تأثير مثل هذه المشروعات على تكوين عادات العمل يكاد يكون مدمراً.

ولقد استمرت الثورة ضد نظام الدرجات سنين متواصلة ونالت استحساناً منقطع النظير، ومع ذلك فإننا نستطيع أن نقرّر أن نظام التصحيح بمنح الدرجات هو أحد الموضوعات القليلة التي نجد فيها وجهاً للشبه بين التعليم والعالم الحقيقي، بما ينطوي عليه من دوافع وجزاءات، وما به من مزج بين العدالة واستعداد البشر للتردّي في الخطأ. وقد فسّرت لأبنائي مراراً أوجه الشّبه بين هذا المظهر من مظاهر تعليمهم وبين تجاربهم المستقبلية، فالدرجات المتميّزة لا تُمنح إلا في حالتين: الأولى عندما يُحقّق الطالب عملاً جيداً، والثانية عندما يتعلم الطالب كيف يُرضى أستاذه، ولا تقلّ الحالة الثانية في أهميتها عن الأولى. وكذلك النجاح المهني والرواتب السخية لا يحصل المرء عليهما بحسّن أدائه لعمله فحسب، بل بتأديته بطريقة تُرضى رئيسه أو صاحب العمل. فالأول نوع من أنواع

الذكاء المدرسى، والثانى هو الذكاء القائم على الاتصال الشخصى بالناس، وهو ما يُشكّل إحدى عادات الانبساط المحبوبة التى تجعلك حريصاً على الاهتمام بيمول الغير ورغباته. وأودُّ أن أقرر أن النوع الثانى أهمُّ من الأول، وأن كل خطوة فى سبيل خفض المستوى التعليمى أو تيسير النظام، تؤدى بالتعليم الرسمى الحالى إلى أن يكون مثله كمثل مُربيّة لينة تُدَلِّل أطفالها؛ لأنه يشجّع على تكوين عادات الامتناس أو الرضاغة الفكرية والخُلُقِية فى الطلبة.

وإنها لمأساة كبرى أن يتم عدد غفير من الناس دراستهم التى أمضوا فيها سنين طويلة، ومروا فيها بألوان مختلفة من التعليم، دون أن يكونوا فى أنفسهم استعداداً خاصاً أو معرفة عامة عن المهنة التى سيلتحقون بها، وأصرّح بالقول بأن أعداداً كثيرة من الشباب يترددون على كى أُجرى عليهم اختباراً أساعدهم به على اختيار المهنة، التى تناسب ميولهم، أو أن اكتشف فيهم المواهب الخفية فى شخصياتهم كى يَنجَحُوا فى الالتحاق بعمل ما. إنهم كثيراً ما يدركون أن المواهب تُكتسب ولا تُكتشف، وأن الوقت المناسب للتفكير فى مدى صلاحية الفرد أم لا لن يتأتى إلا مع التفكير المنضبط والمناسب فى تلك المرحلة المبكرة من حياة كل فردٍ فينا.

وهناك لحظتان حرجتان يخضع الطالب فيهما لاختبار الاستعداد وقياس مواهبه الكامنة: اللحظة الأولى قبل الشروع فى الالتحاق بالمدرسة الثانوية مباشرة، سواء أكانت الدراسة فى هذه المرحلة علمية أم أدبية أم صناعية أم موسيقية أم تجارية أم فنية، و المرحلة الثانية قبل الالتحاق بالجامعة مباشرة. وقد تقدّم علماء النفس تقدُّماً ملحوظاً فى اختبارات قياس صلاحية المرء وتشخيصها، وبذلك أمكنهم النصّح بنوع التعليم الذى يصلحُ له الفرد

ويعود عليه بالفائدة. ومع ذلك فإن مثل هذه الاختبارات لا تتطلب أكثر من ثماني أو عشر ساعات لإنهائها، في حين أن نظام التعليم الحالي يصرّ على فرض ثماني سنوات من التعليم الخاطئ على طَلَبته بدل أن يتيح لهم تلك الساعات الثماني لإجراء التشخيص الناجع المفيد.

إن الشخصية المؤثرة ليست في حاجة إلى جملة من المهارات المختلفة فحسب، بل هي تتطلب بالمثل تفوقاً نسبياً في بعض الميادين، وتفوقاً ملحوظاً في ميدان آخر، أما الميدان الملحوظ الذي أقصده فيكون في الميدان المهني، وأما التفوق النسبي فيكون في الأنشطة البعيدة عن الأداء المهني، مثل الأداء في ميادين الرياضة والفنون الاجتماعية والتسلية، وتكاد ترجع معظم حالات الشعور بالنقص إلى الإخفاق في الوصول إلى تنمية عادات معينة من عادات النجاح والفوز.

أما النظام التعليمي بوضعه الراهن، فلا يُحَفِّز أو يشجّع على تكوين أنواع معينة من التفوق، بل يُقَلِّل من حافزية الفرد المتعلم كما يقلل من صلاحيته في أنشطة ما بدلاً من تنميتها.

ولست هنا في مجال مقارنة بين فوائد التعليم الحر والتعليم الخاص^(١)، فحتى في بعض معاهد التعليم الحر تطلب إلى طلابها أن يقوموا بدراسة واسعة وتتفوق فني في أحد مناهج دراساتهم، وفي المقابل لا تطلب بعض المعاهد الهندسية من طلابها القيام بأية دراسات من شأنها أن تحفز من أدائهم العلمي. لكنني أستطيع القول بأن الأمر ليس بهذه الصورة؛ إذ إن

(١) التعليم الحر في أمريكا يشمل دراسة الفنون والآداب والفلسفة والتجارة، أما التعليم الخاص فيشمل دراسة القانون والطب والهندسة والعلوم... إلخ.

المسألة هي تدريب الطلبة على النظام، ونشدها بلوغ المستويات الرفيعة، لا مجرد تحصيل محتوى المواد الدراسية فحسب.

إن هذا الأمر قد يطلب أيضًا في بعض المدارس الثانوية والابتدائية؛ حيث تشترط تفوق الطالب أو بذله جهداً كبيراً في بعض المواد، حيث يتفوق طالب ما في مادة تحسين الخط وفن الكتابة، ويتفوق غيره في كتابة الرسائل، وآخر في الجغرافيا أو فن التعامل وكتابة الرسائل والنشر، وبقدر الإمكان ينبغي أن يتحلى الطلاب الذين يطمحون للوصول إلى التفوق في مادة دراسية ما، بأن يتحلوا بالاستعداد الشخصي لذلك. غير أن النقطة الحرجة هي الضغط الذي يستهدف له الطفل للقيام بعمل إضافي، وهو - على غير العادة - يكون عملاً شاقاً يحتاج إلى جهد كبير في ميدان معين.

وليس هذا النوع من التعليم هو ما جرى وصفه بالتعليم التقدّمي أو الهادف، إننا نؤمن في قرارة أنفسنا بأن مجرد تكوين عادة «التفوق» هو في حدّ ذاته إعداد للنجاح في الحياة المستقبلية، إننا نربط دائماً بين التفوق الدراسي والتفوق المهني.

أما ما يجري بالفعل فقد جاء وصفه في تقرير صدر حديثاً نتيجة لدراسة استغرقت عشر سنوات على ألفين وخمسمائة من البنين والبنات في مدارس مدينة نيويورك الإحصائية، قام به السيكولوجي المعروف ثورن دايك. فقد أجرى على هؤلاء الأطفال مجموعة من الاختبارات النفسية في سنّ الرابعة عشرة، ثم مضى يتابع بعناية نشاطهم في المدرسة وخارجها في محيط العمل طوال عشر سنوات، واتّضح من هذه الاختبارات أن نظام التعليم الحالي لا يفرّق بين أكثر الأطفال غباءً وأشدّهم ذكاءً في المرحلة التي

يستغرقها التعليم إلا بما يعادل أربعة أشهر يتفوق فيها الأذكىء، وأن هناك علاقة بين قدرات الأطفال ونوع التعليم الذى يتلقونه أو مقداره. كما اتضح أيضاً من خلال الاختبارات أن مثل هذا النوع من التعليم يؤلّد عادات الحُمول بدلاً من التفوّق، بالإضافة إلى سيطرة نمط التَّبعية على الشخصية.

وتعتمد المؤسسات - خاصة المؤسسات التّجارية التى تستهدف الربح لنجاحها - على مدى حُسْن الخدمة التى تكتسبُ بها رضا جمهور المستهلكين فى سوق تُقدِّمُ على المنافسة، ولهذا تقوم هذه المؤسسات باختيار صلاحية منتجاتها وخدماتها بصفة مستمرة، فضلاً عن وُضْعها موضع المقارنة مع غيرها، لا عن طريق المفاضلة التى يُجريها العملاء فحسب، بل بواسطة إحصائيين يقدِّرون بكفاءة حجم الحاجة إلى التّحسين المتواصل. ويرغم ذلك فمُيدان التربية والتعليم على غرار الرِّبح الثابت من طبيعته المحافظة على هذا الثبات، أما نتيجة هذا التعليم أو بمعنى آخر تلاميذه، فهم لا يتعرّضون لمثل هذه التّجارب الصارمة الدقيقة، وأما مستويات هذا التعليم فهى إلى حدٍ كبير من خُلُق التعليم نفسه. وإذ كان هذا النظام حَرِيصاً على التطور الفكرى، فإن القاعدة هى انتقاء المدرسين ذوى المؤهّلات المدرسية قبل كل شىء، وأعنى بذلك أن يكون المدرس قد أتم تعليمه أو حصل على درجة الماجستير أو الدكتوراه.

ويؤدى هذا النظام إلى ما يصحّ أن ندعوه «اختبار طبقة المدرسين من نفس الأسرة» لأن كل منا ينجح إلى تخليد نفسه أبداً الدهر، حتى المدرس المؤمن بقيَمِهِ ومُثله الفكرية، إنه يقدر لهذه المثل، وعلى ذلك سيكون ناجحاً فى خلق جيل يؤمن بالمُثل التى آمن بها هو وتربّى عليها، إن هذا الأمر يشبه تماماً المحاسب الذى يخلُق من أخطائه «مذهباً» وهو يراجع دفاتره لأن

المدرسين لا يتلقون تدريباً يؤهلهم لشرح دروسهم فحسب، لكي ينهضوا بمستوى تلاميذهم أيضاً، هذه الحقيقة المؤلمة ذلك الاختبار النفسى الذى أُجرى فى ثمانى عشرة مدرسة ابتدائية متفرقة، فقد طُلب إلى أربعين مُدرّساً أن يقيسَ كل منهم مستوى شخصية كل تلميذ من تلاميذه. ولما تم جمع النتائج اتضح أن مستوى شخصية أطفال السنة الرابعة أفضل من أطفال السنة الخامسة، وأن مستوى شخصية هؤلاء يفوق مستوى أطفال السادسة، فقد كان مستوى الشخصية فى كل سنة يتناقص عن السنة التى تسبقها، وحسب تقدير المدرسين أنفسهم كان مستوى شخصية أطفال السنة الرابعة أعلى مرتين من مستوى شخصية أطفال السنة التاسعة. ولقد بدت هذه الظاهرة غريبة بالنظر إلى القاعدة المعروفة التى تُقرر بأن الشخصية تتطور وعادات الانبساط تنمو بسرعة فائقة فى الفترة ما بين سن العاشرة وسن الرابعة عشرة.

ومن المُسلم به أن تحسین الشخصية، وتنمية اكتساب العادات الانبساطية فيهما، ينضجان بين سنى العاشرة والرابعة عشرة أسرع من أية مرحلة أخرى، باستثناء الفترة ما بين السنة الأولى والعاشرة. أما الحقيقة فهى أن الطفل الأمثل من وجهة نظر المُدرّس هو ذلك الطفل الهادئ الخامل المستكين المرتبط أكثر بمحدودية المكان حوله وداخل فصله، ويعنى ذلك من وجهة نظر المدرسين أنه كلما نضج الطفل وحاول أن يكون شخصية خاصة به لها مميزات وسمات تعرض لنقد مدرّسيه، و القصد من ذلك أن المدرسين يرون فى الشخصية القابلة للاستيعاب الأفضل لا الشخصية الإيجابية المُبتكرة.

وليس هذا الاكتشاف هو الأول من نوعه، بل هو أحدث ما جاء فى هذا الصدد، حيث أثبت هذا الاكتشاف صدق النتائج التى توصلنا إليها فى

دراسات سابقة مشابهة حتى صار موضع تقدير الباحثين، إن هذه الظاهرة الفكرية هي النتيجة الحتمية لنظام تعليمي يقدرون فيه المظاهر الفكرية على حساب بقية المظاهر، حيث يتوقف اختيار المدرسين فيه على الاعتبارات المدرسية المتداولة.

إن النظرية التي تقول باختيار مدرسين من نفس الأسرة تناقضها بالتأكيد مهنة الطب وطول فترة الدراسة فيها، ولا شك أن التدريس في ميدان الطب يكاد يكون زهواً يفخرُ به المشاركون والممارسون لهذه المهنة، ومن ناحية أخرى تُعدّ هذه المهنة مختلفة باعتبار أن المواد التي تدرس في مدارس الطب يلقيها أطباء يمارسون المهنة نفسها، بل إن نظام إقامة الأطباء تحت التمرين في المستشفيات وأنظمة هذه المستشفيات يقوم على أساس العلاقة بين الطالب أو الطبيب تحت التمرين وبين الطبيب المدرّس، وربما كان هذا الميدان مثلاً أعلى يصحُّ أن يُقتدى به في مختلف ميادين التعليم.

وقد يكون أكثر المظاهر هدماً في التعليم هو ذلك المظهر الذي يفخر به التعليم أكثر من غيره، وأعني به «خلق الفكر الحر»، في حين أن الفكر الحرّ وما يتبعه من التحرر الفكري هما في الواقع أصنام التعليم. وبالرغم من ذلك أصبح التحرر الفكري أمراً يُكّال له المديح لا بين الحلقات العلمية فحسب، بل بين الحلقات الاجتماعية والدينية والسياسية أيضاً، في حين تُوصم المحافظة على القديم بالرجعية والتخلف.

وما عملية التعليم الآن سوى عملية تحرر فكري من هذا الطراز، فعلم طبقات الأرض يؤكّد لنا أن العالم لا يمكن أن يكون قد خُلق في سبعة أيام، وأن الإنسان لا يُعقل أن يكون قد خُلق في يوم واحد، والتاريخ

يروى لنا أساطير الديانات المختلفة، وعلم دراسة الأجناس يفسّر لنا الوصايا العشر كعادات وتعاليم خاصة بجنس معيّن، ومن ثمّ فهي لا تسرى على جنس آخر فى ظروف مختلفة. والفلسفة ترسم اتجاهات التحرّر العقلانى، من معتقدات تشبيه الله فى صورة الإنسان^(١)، وغيرها من المعتقدات الدينية فى هذا العالم، وعلم الأخلاق يشرح مذهب الهيدونية أو اللذة^(٢) ومذهب الرواقى^(٣) وغيرها من مذاهب السلوك المختلفة تاركاً للطالب اختيار ما يحلو له منها، وكل هذه العلوم قطرة من محيط الموضوعات التى يُحرّرنّا بها التعليم من تحامُل الماضي وتقاليده.

إن نظرية التحرّر الفكرى لهى أحد مذاهب التعليم، وهى لا تقل فى غموضها وبُعدها عن العقل عن أى من مذاهب الكنسية.

إذا ما قيمة الفكر الحر فى ذاته؟

وأية قيمة فعلاً لذلك التحطيم العنيف للتصور الملموس للمعتقدات الدينية، ذلك التحطيم الذى غدا فى الحقيقة هدف التعليم اليوم؟

وما العُدّة التى يتسلّح بها المرء فى صراعه مع الحياة، بعد أن يتحرّر من المعتقدات والعادات الفكرية التى اكتسبها إبّان سِنى الطفولة؟

(١) anthropomorphism

(٢) hedonism مذهب مفادُه أن اللذة غاية الحياة. (الترجم)

(٣) stoicism سُميت الرواقية نسبة للرواق المطلي فى أثينا الذى كان زينون رأس المدرسة يُلقى فيه دروسه. وتؤمن الرواقية بأن الكون كلّ وحدة واحدة منظّمة تتكون من العقل، أي الله، والمادة. وتؤمن أيضاً بأن الحوادث تسير فى دائرة طويلة، وحينما تنتهى تبدأ من جديد فتتكرّر الحوادث كما هي تماماً. وتدعو الرواقية إلى الأخوة بين الناس بما فيهم العبيد والبرابرة، وتؤمن بأن حياة الفضيلة هي مآل الإنسان. (الترجم)

وأين هى تلك المثل السّامية التى يمكن أن ينطلق نحوها الفكر الحرّ،
تلك المثل ذات التأثير الأشدّ إلهاماً والصفة الأقوى إرغاماً؟

كانت الإجابة الوحيدة عن هذه الأسئلة فى الماضى، تكاد تنحصر فى
تلك العقيدة التقليدية القائلة بأن تحصيل الثقافة إنما يكون لذاتها، والاستزادة
من المعلومات إنما تكون لذاتها أيضاً. إن مثل هذه العقيدة فى نظرى أشدّ
سذاجة من العقيدة الخاصة بالروح وخلودها.

فالتحرُّر الفكرى، كما عاينته بنفسى فى حالات كثيرة هو النتيجة
الأخيرة لانطلاق المرء انطلاقاً مُتحرِّراً من التقاليد والقيود السّالفة كافة، دون
أن يستبدل بها عدّة كافية من القيود والمثل العليا التى تُعينه فى المستقبل.
وتبدو أعراض التحرُّر الفكرى بين الشباب فى الميل إلى اعتبار الآباء
رجعيّين، والنظر إلى الجيل القديم نظرة التأخُّر الشَّدِيد، وفى ميل الطلّبة
إلى أن يُطلق لهم العنان ليكونوا أحراراً يتصرّفون فى أموال آبائهم أو
سيّاراتهم، وغير ذلك من ممتلكاتهم دون إثقال كواهلهم بأى التزامات أو
مسئولية تجاه ما يُنفقون. وكذلك تبدو فى الاحتقار الفكرى الذى يُبديه
الطلّبة بين آنٍ وآخر للعقائد الدينية والسياسية والخلقية التى يتبعها آباؤهم،
والتي كانوا يعتنقونها يوماً ما فى طفولتهم، كذلك فى الثُّغور الذى يُبديه
الطلّبة المنحدرون من أصل متواضع من مساكن آبائهم، وذلك الاشمئزاز
من المهن اليدوية، وفى ذلك الميل المتواصل إلى التبرُّم بالعمل كمهنة،
وتمجيد المهن الفكرية والثقافية بغضّ النظر عن اللّياقة والاستعداد لهذه
المهن. ونادراً ما يَفطن هؤلاء الشُّبان إلى أن ما يجعل التعليم والمهن الفكرية
أمراً ممكناً هو ما يفيض من الإنتاج والثروة.

ويُفصح هذا التحرُّر الفكري عن نفسه بين الكبار فى صورة الافتقار إلى القدرة على التَّمييز بين مسائل الخير والشرِّ الجوهرية، أو ما يسمونه التَّساهل أحيانًا. إنَّ تخبُّط الآباء وعدم تأكُّدهم من أنفسهم يسلِّبهم السُّلطان على أبنائهم، فتراهم يستبدلون بهذا السُّلطان مبدأ الحرِّية فى تربيتهم لأطفالهم لينشأوا بدورهم أشدَّ تحرُّرًا. إنَّ مبدأ التَّساهل فى البيت هو نتيجة حتمية لمبدأ التَّساهل إزاء أفعال الخير والشرِّ فى المسائل الاجتماعية والسياسية على وجه العموم، فقد انعدم عندهم مثل ذلك الغضب المعنوى الذى دفع السيِّد المسيح - على رَحْمته و سَعَة صدره - إلى طَرْد الصَّيَّافرة من الهيكل. وإذا كان هذا التَّراخى والتردُّد لا يُسبِّب لهم أضرارًا شخصية بليغة إلا أنه أيضًا لا يوجِّههم إلى العمل الإيجابى المفيد فى هذا العالم الذى أصبح فى مَيس الحاجة الى التَّطهير الخلقى.

ولعلَّ أبرز ما تمخض عنه التَّعليم التَّحرُّرى هو ظُهور طبقة الأحرار ذوى النِّشاط الإيجابى الحادِّ، وأعنى بهم أصحاب حركة التَّحرُّر، فبعد أن طغى عليهم إيمان حماسى بخُطة معقولة لصالح البشرية، تراهم ينساقون - وبهم ثقةٌ لا حدَّ لها فى قواهم الفكرية - وراء تحقيق مشروعاتهم، متخطِّين كُلَّ قيود التقاليد ضارِّين بها عُرض الحائط. أما شعارهم فهو أن كل ما هو قديم لا بُدَّ أن يكون خطأ، وأن كل ما هو جديد لا شكَّ فى صوابه وصحَّته، فحقوق المِلْكِيَّة والعُقود القديمة ودُستور البلد والنُّظُم الحالية، هذا إذا لم نُدْرَج أيضًا الوصايا العشر والدين عمومًا ضمن هذه القائمة، وكُلُّ تلك الأمور، إلى عَصْرِ الحصان والعربة. وكتيجة لذلك فلا مانع من اعتبارها أمرًا عتيقًا باليًا. تلك هى الصُّورة، رسمتها بخطوطها الرئسيَّة، وأحسب أن صلاحيتها ومطابقتها لظواهر الحياة العصرية واضحة.

فأولئك الأطفال الذين تُترك لهم حُرِّيَّة العَبَث بامتلاكات آبائهم، وأولئك الأحرار الذين تُترك لهم حُرِّيَّة التَّصَرُّف في حياة الناس وممتلكاتهم، إنما ينحدرون من أصل واحد، فتراهم يُنادون بالتَّحرُّر من القيود التَّقليدية دون أن يكلفوا أنفسهم مشقَّة البحث وراء فائدتها العَميمة إذا ما قُورنت بالآراء الحديثة. ومثُلُ عقولهم كمثُل سفنٍ انفكت روابطها عن مرسأها وراحت تتخبَّط بالرَّغم عنها في المهالك، فبقدر ما تصل إليه هذه العقول من قوَّة وجبروت بقدر ما يكون الدَّمار والهلاك الذي يحلُّ بها.

إن مَيدان التَّعليم لفي مَسيس الحاجة إلى جَمع القِيَم والحقائق الأساسية، التي تبحث في الطَّبيعة البشريَّة وتصنيفها، حتى يمكن المحافظة على تلك التَّقاليد النِّبيلة التي اكتسبها الجنس البشري، و وضعها في المكان اللائق بها، وحتى يمكن إخضاع الغَطْرسة الفكرية لنظام الحياة غير الانانية، ولن نجد ما يجمع بين تلك القيم الماضية القديمة والمثُل الحاضرة الحديثة غير الدِّين والإيمان.

الفصل العاشر

الحياة الوفيرة

﴿ قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْهَا ﴾ (آل عمران: ١٥)

وبعد أن دخل أبناء إسرائيل «أرض اللبن والعسل» بزمان طويل، قام قائد جديد فأعلن : «... وأما أنا فقد أتيتُ لتكون لهم حياة، وليكون لهم أفضل» (يوحنا ١٠ : ١٠)

«لكن اطلبوا أولاً ملكوت الله و برّه، وهذه كلها تُزاد لكم» (متى ٦ : ٣٣)

فى أرضنا، «أرض اللبن والعسل»، تقوم تَبَاشير حياة أكثر سعادةً و رخاءً، ولا غرو فى هذا، فقد أصبح ذلك هو الشُّغل الشَّاغل للهيئات السِّياسية والاجتماعية والدينية. لقد أصبحت هذه هى النِّعمة السائدة التى يتغنى بها رجالُ الحكومات الرِّسميُّون والزُّعماء السِّياسيون وأبرزُ رجال الدين والمُنادون بالإصلاح الاجتماعى.

أما عن الحياة السعيدة التى يَسْعَى وراءها العديد من الناس، ويبدلون فى سبيل ذلك رغبة مُلحةً وأكيدة، إن هذا الأمر له تأثير غير عادى على حياة

هؤلاء الناس، ومن ثم يسعى الطبيب النفسى الذى يتعامل مع مثل هؤلاء المرضى أن يوضح لهم كنه السعادة وأسبابها وأشراتها والسبل المؤدية إليها، وعليه أيضاً أن يُلَمَّ بالظروف المحيطة بهؤلاء الأشخاص أو الكامنة فى نفوسهم. إنه يبحث فى مثل هذه الأمور لعله يكتشف فى هؤلاء الأشخاص ظروفًا فى نفوسهم حَالَتْ دون إحساسهم العميق بالسعادة، وعليه أيضاً أن يوضح لهم الخطوات التى تساعد المرء على تحقيق الحياة الرغدة الرخيّة لنفسه، ولذلك فهو يدرّس بحُكم مهنته مظاهر الحياة الوفيرة التى يصبو إليها الناس منذ بضع سنين مَضَتْ.

هذا اللون الجديد من الحياة، والذى تَنَشَّطَ فيه فكرة المناداة بتحديد تكاليف الحياة اليومية لكل أسرة، وصَرَفَ مَعَاشَاتٍ سَخِيَّةٍ فى سِنِي الشَّيْخُوخَةِ، وتحديد ساعات العمل الأسبوعية بحيث لا تزيد عن ثلاثين ساعة، وصرف إعانات للمتعطّلين عن العمل، والمطالبة بكل الوسائل التى تكفّل لكلِّ مواطن مستوى خاصاً من المعيشة فى كُلِّ الأوقات وفى كُلِّ الظروف. ومهما تكن التفاصيل التى قد تذهب فيها، والتى من شأنها أن تجعل الحياة هائلة وسعيدة، ويتوافر فيها المال الذى يستطيع الإنسان من خلاله أن يُحقِّقَ ما يطمح إليه.

ومن تجاربى مع الناس أقول: إن مثل هذه المثل العليا للحياة الوفيرة ليس إلا مثلاً مُخَرَّباً، مدمراً هداماً، فقد أثبتت التَّجَارِبُ أن الحياة الوفيرة لا تتوفّر بحياة المال بقدر ما تتوفّر فى حياة العادات الطيبة، وأعنى بذلك الخلق، فالسعادة لا تتحقّق للفرد بما يملك وإنما تتحقّق بما يفعله، فليست هى قيمة الشخص وما يؤجّر به سواء أ كان قليلاً أم كثيراً، بل فيما يمنحه ويبدّله، لا من ماله ولكن من وميض نفسه وكيانه. ولا شك أن السعادة

لا تكمن في الحياة السهلة الرّآكدة، ولكنها تتّهيأ في الحياة النّشيطة المجدّدة لا في حياة الركود والكسل، والسعادة أيضاً لا تتأتى من التعليم المتكامل والثقافة الواسعة فحسب، ولكنها تنبعث من صفات الشخصية التى يُنمّيها المرء في نفسه، أو كما سبق وأوضحنا أنّها تتحقّق للمرء بقدر ما يستطيع به أن يُحوّل طاقته الفطرية الموروثة إلى عادات مُفيدة واختلاط نافع مع زملائه.

ولعل من أهم المؤسّسات الحكومية حديثة التّكوين، والتى تهدف إلى مُساعدة الجمهور على بلوغ الحياة الوفيرة أو تحقيق السعادة التى يرجوها: مُعسكرات الشّباب، ففي هذه المعسكرات - وتلك تجربة حقيقية - تناسى المشاركون فيها المعتقدات الشّائعة عن مستوى المعيشة الأمريكى والرغبة فى حياة أكثر بُسراً وسُهولة. ولقد كانت الأجور فى هذه المعسكرات بسيطة لدرجة تدعو إلى السّخرية، بل لم يكن مسموحاً لمن يتقاضى أجرأ أن يحتفظ إلا بالنّذر اليسير منه، على حين يُرسل بقية المبلغ إلى أسرته، وكان على الرّجل أيضاً أن يعمل أشقّ مما عمل فى حياته من قبل، وأن يؤدى ما يُوكل إليه من أعمال، سواء أ كان يميل إليها أم يُبغضها. وكان الرّجال يحسّون التّعب والإرهاق إذا حلّ الليل، وينعمون بلذة النوم الهادئ التى اكتسبوها عن حق، وكان عليهم أيضاً أن ينهضوا من نومهم فى الصباح الباكر، سواء أحسّوا الرّغبة فى النّهوض أم لم يحسّوها. وكان عليهم أيضاً مُشاركة غيرهم والعمل إلى جوارهم مهما تباين الطّبقات، سواء تحقّقت الألفة أم لا، وكان عليهم أن يأكلوا كل ما يُقدّم إليهم من لحم مجفّف، وفول ولحم خنزير وقنبيط، وإلا فليسقوا بلا طعام، كانت حياتهم هكذا حتى غدا مذاق أبسط الأجور وأقلّها حلواً باهظ القيمة.

وبالرغم من تعدّد المُعتَقَدات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وبالرغم من تباين الميول وتناقُرها، وبالرغم من توافر رعاية الآباء والخوف عليهم والحذب المبالغ فيه، فقد كان عليهم أن يتّبعوا نظاماً صارماً تفرضه عليهم المعسكرات.

ولقد نصحتُ الكثيرين من الكبار المُرفَّهين، وأبناء الأسر الثريّة المدلّين كذلك، بالالتحاق بمعسكرات الشّباب كخطوة في سبيل إعادة تشكيل شخصياتهم. والأمر الطيب أيضاً أن التجنيد الإجبارى يقوم هذه الأيام بما تقوم به هذه المعسكرات ولكن بنفقات أعلى وعلى مدى أوسع وأعمّ. لقد كان لإخفاق منْهاج التعليم في تنمية عادات النظام أثرٌ على الملايين من الناس الذين يمتلكون المال والوظيفة، ويشغلون الوظائف العالية المرموقة، ولكنهم يفتقرون إلى العادات المهمة النّافعة، لأنّهم لم يعتادوا الحرمان ولم تكن عائلاتهم محرومة، ولذلك كنت أقترح على هؤلاء الالتحاق فترةً ما بالجيش، مما أدى إلى نتائج لا بأس بها بالنسبة لهم.

كان أحد هؤلاء مراهقاً في الثامنة عشرة، مُصاباً ببعض من العادات السيئة الضّارة، وقد يش أبواه من تهذيبه، كما يش هو نفسه من إصلاح حاله، وقد صارحني منذ اللحظة الأولى التي تحدّثُ فيها إليه، بأنّه قد أجرى على نفسه التّحليل النّفسى مرتين خلال الأشهر الستّة الماضية، وأنّه قد وقف على عيوبه وأسبابها بوضوح، و أرَدَف قائلاً: «غير أن ذلك لم يساعدني على التّغلب عليها، حتى لقد أصبحت حالتي أسوأ من ذي قبل». فقلت له: «لست بحاجة إلى فهم نفسك أكثر من ذلك، ولكنك بحاجة إلى النشاط والعمل. أنت تحتاج إلى أن تُفكّر قليلاً وتعمل كثيراً مع غيرك، وأن يكون مكانك حيث يُفكّر غيرك ويُصدِرُ إليك الأوامر لتقوم

أنت بتنفيذها. وإن المكان الوحيد الذى يوفّر لك هذه الشروط - والذى يمكن لأسرتك أن توفّره لك - هو الجيش.»

وفى اليوم التالى جاءتنى والدته مضطربة وقالت : «ألا تخشى أن تتولّد لدى ولدى عادات سيئة بانخراطه فى الجيش؟»، فأخبرتها بأن ولدها قد كوّن أسوأ العادات بالفعل، وأنه قد أصبح بحاجة إلى أن يُكوّن عادات طيبة نافعة غير تلك العادات المُنفّرة السيئة التى تتصوّرها. وإلى هنا انتهت علاقتى بهذا الموضوع حتى جاءنى الفتى بعد مُضى شهور فلفت نظرى أنه أصبح شخصاً آخر، ولكنها عادت فسمحت لى بذلك. وهانذا فى سبيلى إليه، فى أول الأمر، ولكنها عادت فسمحت لى بذلك. وهانذا فى سبيلى إليه، ولقد حضرت اليوم لأخبرك أنى قد جُنّدت بالأمس.» ومن المؤسف حقاً أنه لا توجد فى هذه الأمة مؤسسات للعمل الإجبارى ونظام الجماعة خلاف مُعسكرات الشّباب والجيش والإصلاحيات والسّجون.

ولقد صار الأطباء اليوم يعترفون بقيمة العمل اليدوى كعلاج ناجع، حتى باتوا ينصحون مَرْضاهم بالعمل فى النّجارة وصناعة السّجاجيد... إلخ، كما أصبحت مُعسكرات الشّباب تُضيف إلى نشاطها العام بعض الأشغال اليدوية. غير أنه لا يمكن مُقارنة هذه الخطّوات الوثيدة لتنمية العمل الجماعى بالعمل المُشترك فى القوّات المسلّحة، ولذلك ينبغى أن يكون هذا الأمر قائماً بصفة مستمرة كلما دعت الضرورة إلى ذلك، حيث اتّفقت الآراء على أن مَنْ تدرّبوا فى هذه المعسكرات ليست لديهم القدرة فقط على العيش بنظام دقيق يتمتّعون فيه بحياة سعيدة، ولكن لديهم الاستعداد لتحقيق مثل هذه الحياة الوفيرة لأنفسهم. لقد تعلّموا خلال تدريباتهم الإجبارية فى المعسكرات احترام الآخرين حتى وإن كانوا من غير

الأصدقاء، بل ومحبتهم كذلك، وفي الوقت الذى باتوا فيه ينظرون إلى غيرهم بتقدير واحترام للمزايا، أصبحوا كذلك يشقون فى ذواتهم ويُقدِّرونها، وتلك نتيجة مُرتبة على سابقتها. وتعلّموا أيضاً من خلال ضغط العمل الجماعى تقدير العمل اليومى الدائم فى المهام التى كُلِّفوا بها، فإذا هم يبدلون ثلاثة أضعاف جُهدهم. لقد علّمتهم حياة المعسكرات وحياة الجنديّة أن وفرة الحياة وسعادتها ليس فى حصولهم على قدر كبير من المال سنوياً، بل إن السعادة كامنةٌ فى أنفسهم، وتحقيقها مرجعه فى الأصل إلى ذواتهم وشخصياتهم. لقد تعلّموا أيضاً تحت ضغط النظام الصّارم الذى فُرضَ عليهم أن (العمل) أكثر مُتعة وإشباعاً من (التأمّل)، وأن الإجهاد النفسى أشدّ عدوية ولذة من الإغراق فى الذات. وهم يتخرّجون فى تلك المعسكرات وهم مدربون على منح غيرهم نصيباً من عنايتهم وطاقاتهم، ومن ثمّ يظفرون برضا النفس، وبالاختصار نراهم قد أصبحوا مُنسططين واجتماعيين بعد أن كانوا مُنطوين.

وبينما تقوم هذه المؤسسات العظيمة بخلق شخصيات إيجابية وفاعلة، ولها القدرة على تحقيق الكسب المادى، إلا أننا نفاجأ بقوة أخرى تنخر فى فاعليّة هذه المؤسسات كما ينخر السوس، حتى تدمر الشخصية وأى عطاءات مادية أخرى. إننا كثيراً ما نفاجأ فى الصُّحف اليومية بالجنون، الذى أصاب كثيراً من طوائف الشعب الأمريكى وتخبّط العديد من زعمائه المشهورين، وهم يتسابقون كى يسلكوا أقصر الطرق المؤدية إلى الحياة السعيدة، حتى بات مبدأ إعادة توزيع الثروة حافزاً سياسياً أشدّ بأساً وأثراً من تكوين الثروة نفسها؛ ففى غضون ستة أشهر، بلغ عدد من سجّلوا أسماءهم ضمن مشروع لمنح معاشات الشيوخ فوراً بواقع مائتى دولار

شهرياً ما يزيد على عشرة ملايين شخص. كما أخذت بعض الصحف تُفرد صفحاتها بأكملها لنشر صور وقصص تلك القلّة من الجمهور التي رُبِحَت ثروات متواضعة من سباق الخيل، متجاهلة تماماً أن هذه الثروة المكتسبة إنما جاءت من أموال الملايين من الناس، وتحولَ البحث عن الكسب المادى إلى سياسة مُقنّنة، حتى أخذت بعض الولايات تنظر إلى عمليات اليانصيب كوسيلة لرفع الأجور نظرة جدية، ثم بدأ الزحف لإسباغ الصفة الشرعية على الميسر والقمار.

ولعل العرض السابق يفسّر تلك الرغبة الجُمُوح التي اجتاحت عقول الناس حتى أصبحوا حيارى أمام سلطان المال وسطوته. ولا غروَ فيما يحدث الآن، فإن هذا الاتجاه يكشف عن أخلاق حقبة من التاريخ ونمط العقلية التي كانت سائدة. إن هذا الاتجاه نفسه مُشابه لما أثار سُخط سيدنا موسى عليه السلام عندما وجد أبناء إسرائيل عند هبوطه من جبل سيناء يرقصون حول «العجل الذهبي» فألقى ألواح الوصايا العشر. وعلى حين ألقى موسى النبيّ الألواح، فالناس والزُعماء والسّياسيون ورجال الدين فى عصرنا يتغافلون عن الوصايا العشر نفسها باسم الوصول إلى حياة أكثر رخاء وسعادة، وعلى ذلك نستطيع أن نقول بحق إن الشعب الأمريكى قد ابتدع وصايا عشر جديدة.

الوصايا العشر من أجل حياة أكثر وفرة

الوصية الأولى:

الحياة الأكثر سعادة ورخاء تقتضى بعض السّرقة والاختلاس دون أن يلجأ الفرد إلى مخالفة القانون، وإنما أن تخرج الحكومة على القانون، وبهذا الأسلوب يتملّص الناخب من مسئوليته الشخصية عن تصرفاته.

الوصية الثانية :

تُعَدَّل الوصية القائلة « ستة أيام تعمل وتؤدى جميع عملك »، لتُصبح خمسة أيام فحسب، لا تتجاوز ساعات العمل فيها أربعين ساعة دون حساب الأجر الإضافى.

الوصية الثالثة :

لتعويض الإنتاج المُتناقص تبعًا لاختصار ساعات يوم العمل، أصبح مسموحًا الآن « بالطَّعم » فى ممتلكات الجار التى تبيحُ الاستيلاء عليها، وذلك عن طريق سنّ القوانين الدستورية أو سواها.

الوصية الرابعة :

الوصية القائلة بأنه « لا يَكُنْ لك آلهة أخرى أمامى »، يمكن تفسيرها بأن الدولة فوق الجميع وأن أى تصرف تُتخذُه الدولة يُصبح حقًا سائغًا لها، بصرفِ النظر عن أية معتقدات دينية تخالفها.

الوصية الخامسة :

يمكن اعتبار الوصية القائلة « أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض » وصية اختيارية لا إجبار فيها. وهكذا صار فى الإمكان تخفيف أخطاء عقدة أوديب^(١)، وتخفيف الوصايا من ٦ إلى ١٠ :

مراعاة هذه الوصايا متروك لاختيار الفرد فى حدود القانون.

(١) أى حب الطفل لأمه وكرهيته لأبيه. وقد أطلق فرويد على هذه الحالة اسم عقدة أوديب الذى رَوَت الأساطير اليونانية عنه أنه قتل أباه وتزوج أمه عن غير علم منه بأنهما والدها، ولما عرف الحقيقة فقا عينيه حزنًا وكمدًا. (المترجم)

لقد سمعنا عن انهيار النظام الرأسمالى والرأسمالية، والحقيقة أن الرأسمالية لم تنهَرْ بل أخلاق الناس هى التى انهارت وتداعت تحت وطأة نظام أخلاقى واجتماعى مُفكك، تسيطر عليه الرغبة فى الحصول على أى شىء بلا أى مجهود، أو دون تحمُّل مسئولية جدية. ولعل السواد الأعظم من الناس لا يزال يتخبط على غير هدى بين نظريات الأمن الاجتماعى والعدالة الاجتماعية، وسباق الخيل واليانصيب ومعاشات كبار السن وشتى أسباب الشراء العاجل، والعديد من الأجهزة المبتكرة لتوفير حياة هادئة و مريحة. وما دمنا قد استمررنا حياتنا على هذا النحو ومضينا نتشبت بالقيم المادية والحياة المريحة ونتمسك فيها، فإن الفساد الذى نزرع تحت وطأته سيستمر إلى ما لا نهاية.

وقد تسألنى كيف لعالم نفسى مهموم بدراسة الشخصيات، ولا تتجاوز خبرته أفراداً قليلين، يُصرَّح بمثل هذه المبادئ الجامعة الشاملة؟

والسبب بسيط؛ فالأحداث السياسية القومية ما هى إلا صورة طبق الأصل من أحداث الأفراد وقيَمهم، فالسياسى الذى يتحدث عن الأمن القومى للبلاد هو نفسه الذى عليه أن يحقق لأسرته الرخاء، والناخب الذى ينادى بأفكار وعقائد تدور حول السياسة القومية إنما يعكسُ خلالها نفس التَّحامل، ومقومات الضعف التى تتحكم فى حياته العادية كل يوم.

شرح لى والد يُعانى مشكلة ابنه البالغ من عُمره السابعة عشرة هذا الموقف قائلاً: «أعتقد أن ابنى يتمتَّع بعقلية سليمة، غير أنه أصبح فى السنوات الأخيرة بالغ الضَّعف فى دراسته ورسبَ فى ثلاث مواد. أما أشد ما يؤرقنى عليه فهو تبرُّمه بالحياة عموماً، فهو يظن أن العالم و والديه على

الأخص مَدِينُونَ لَهُ بِمَعَاشِهِ، وَلِذَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَمْتَلِكَ كُلَّ شَيْءٍ. وَنَحْنُ نَعِيشُ فِي مَجْتَمَعٍ ثَرِيٍّ، وَكَثِيرٍ مِنَ الْأَسْرَ أَكْثَرَ مَنَ ثَرَاءً، وَرَغْمَ أَنِّي أَكْفَلُ لَوْلَدِي الْكَثِيرِ مِنَ الْحُرِّيَّةِ وَأَسْمَحُ لَهُ بِقِيَادَةِ سَيَارَةِ الْأُسْرَةِ وَأَمْنَحُهُ مَصْرُوفًا سَخِيًّا، وَأَزُوْدُهُ بِثِيَابٍ فَاخِرَةٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ غَيْرُ رَاضٍ أَوْ قَانِعٍ، فَهُوَ يَطَالِبُ بِسَيَارَةِ خَاصَّةٍ بِهِ وَحْدَهُ، وَلَا يَكْفَى عَنْ الْحَدِيثِ عَنْ أَبْنَاءِ الْجِيرَانِ الَّذِينَ يَمْتَلِكُونَ سَيَارَاتٍ خَاصَّةً بِهِمْ.

وَعِنْدَمَا طَالَبْتَهُ بِأَنْ يُعْنِيَ بِالْمَدْفَآةِ وَفَنَاءِ الْمَنْزَلِ، أَوْ أَنْ يُؤَدِيَ عَمَلًا مُفِيدًا رَقَضَ مُحْتَجًّا بِأَنْ زَمَلَاءَهُ لَا يُكَلِّفُونَ بِذَلِكَ، وَإِذَا عَاهَدْتُ إِلَيْهِ بِتَصْرِيفِ بَعْضِ الْأُمُورِ، لَا أَسْتَطِيعُ الْأَعْتِمَادَ عَلَيْهِ فِي أَدَائِهَا عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ؛ لِأَنَّهُ يَفْتَقِرُ إِلَى الشُّعُورِ بِالْمَسْئُولِيَّةِ وَبِوَاجِبَاتِهِ، وَلَا غَرَوْ فَهُوَ يَعْتَبِرُ أَنَّ أُسْرَتَهُ مَسْئُولَةٌ عَنْ تَوْفِيرِ كُلِّ احْتِيَاجَاتِهِ. إِنْ فَكَّرْتَهُ الْوَحِيدَةَ عَنِ الْحَيَاةِ هِيَ الْأَسْتِمَاعُ بِهَا، وَإِنْ أَسْعَدَ وَقْتُ لَدَيْهِ هُوَ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشَاءُ وَقَتَّمَا يَشَاءُ بِصَرَفِ النَّظَرِ عَنْ أَىِ اعْتِبَارٍ آخَرَ. وَإِنِّي لِأَخْشَى أَنْ تُكُونَنَّ لَدَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَعْيِيَةِ مَا يَجْعَلُهُ غَيْرَ جَدِيرٍ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ، مِثْلَمَا جَعَلْتَهُ غَيْرَ لَاتِقٍ لِمَوَاصِلَةِ دِرَاسَتِهِ».

لَقَدْ مَرَرْتُ بِمَثَلَاتِ الْحَالَاتِ الْمِشَابِهَةِ لِلْحَالَةِ السَّابِقَةِ، وَمِنْ مَخْتَلَفِ الْأَعْمَارِ وَالْمَرَاكِحِ، حَيْثُ بَدَأُ تَارِيخَ إِخْفَاقِهِمْ فِي الْحَيَاةِ عَلَى غَرَارِ ذَلِكَ الصَّبِيِّ، حَيْثُ أَفْرَطَ الْآبَاءُ فِي تَوْفِيرِ وَأَدَاءِ كُلِّ شَيْءٍ لَهُمْ حَتَّى بَلَغَ بِهِمُ الْأَمْرُ أَنْ بَاتُوا غَيْرَ قَادِرِينَ عَلَى اِكْتِسَابِ عَادَةِ الْأَعْتِمَادِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ. كَانَ الْأَبْنَاءُ يَشْتَهُونَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً فِي مَقَابِلِ إِخْفَاقِهِمْ فِي الْقِيَامِ بِأَشْيَاءٍ أُخْرَى كَثِيرَةً، وَكَانُوا يَتَصَرَّفُونَ وَهُمْ عَلَى قَنَاعَةٍ بِأَنْ أُسْرَهُمْ مُلْزَمَةٌ بِتَدْيِيرِ أُمُورِ حَيَاتِهِمْ وَبِتَعْلِيمِهِمْ، وَبِتِلْكَ الْكِمَالِيَّاتِ الَّتِي كَانُوا يَعِدُونَهَا ضَرُورِيَّاتٍ لَازِمَةً. وَهَكَذَا

قد ترى أن الفاصل بين هذا الاتجاه الأسرى وبين الاعتقاد فى أن العالم مُلزم بتدبير أمر معيشة الناس رقيقٌ واهٍ.

وبرغم أنى أحمل الآباء المسئولية الأولى فى واجب تنشئة الأطفال وحسن تربيتهم ورعايتهم، إلا أننى ألتمسُ لهم بعض العذر نظراً لحجم هذه الصعاب التى تعوق قيامهم بها، فعندما كان مستوى المعيشة عند الغنى أشدَّ بساطة مما هو عند فقير اليوم، وعندما كان الأطفال يشاركون فى النهوض ببعض الأعباء المنزلية بصورة مُرضية منذ وقت مبكر، وعندما كانت سنوات الدراسة أقل مما هى عليه الآن، وعندما كانت الكهرباء والسيارات والآلات لا تزال فى طى الغيب، كان إكساب المرء للمهارات العلمية وتكوين الشخصية الناجحة فى المراحل الأولى من الحياة أمراً كالياً بسيطاً لا يحتاج إلى جهد كبير.

أعرف أباً عقد عزمه على ألا يستبدل بمدفاته التى تُوقد بالفحم بأخرى حديثة تعمل بالكهرباء لأنه على حدِّ قوله: «يستحيل علىّ أن أجد فى منزلى ما يكفى من الواجبات التى أُسخرُ فيها ابنى البالغ ستة عشر عاماً حتى يتدرَّب على اكتساب عادات العمل التى كان الواجب أن يُتمِّها منذ نُعمته أظفاره، فهو قد بدأ يكون مسئولاً عن المدفأة منذ الشتاء الماضى. ولأول مرة فى حياته يعتاد القيام مبكراً من نومه وحدّه. والواقع أن الواجب كان شاقاً ثقیلاً ولكنه أفاد منه الكثير، ولذلك رأيت ألا أستبدل بهذه المدفأة أخرى تعمل بالكهرباء إلا بعد أن يكون قد اعتاد القيام بهذا الواجب بانتظام، هذا علاوة على أنى أنقذته أجراً لقاء هذا الواجب لم أكن لأمنحه له لو لم يؤدِّ لى شيئاً».

أما فى مثل هذه الأوقات التى يسود فيها الرِّخاء، حتى بات العامل المتعطل يتقاضى أجرًا من الحكومة أثناء فترة تعطّله، فإن تكوين عادات العمل الطيبة سيُشكّل معضلة كبرى؛ فعلى صعيد الأسرة نجد الآباء يُدكّلون أبناءهم، والمدرسة تُدكّل تلاميذهم، وينساق الآباء فى رغباتهم الشخصية، كما يدلّل الساسة الجماهير. إن كل المزايا المادية لحضارتنا تكاد تتآمر كلها لتجعل حياتنا أكثر سهولة، وأخلاقنا أشدّ ضعفًا، ولن نجد غير أذى الآباء وأكثرهم إنكارًا للذات من يمكنهم التغلّب على الأثر الضارّ لمثل هذه الظروف على الأطفال، ولن نجد غير الأخلاق القويمة والعقائد الدينية الصادقة لتحمى الآباء أنفسهم من أخلاق الطبيعة الرقيقة الهشة.

إن تلك الرغبة المُحبّية إلى نفوسنا لتدليل أطفالنا والاستجابة لجميع رغباتهم، بالإضافة إلى الوسائل المُتبعة لتحقيق هذه الرغبات، تضرُّ بأطفالنا ضررًا لا يمكن إصلاحه، وهكذا ترى أن الأخطاء المترتبة على حُوء الأب المبالغ فيه على الأطفال تعود بالويلال على أطفاله ثم على أبناء أطفاله، وهكذا حتى تصل إلى الجيل الثالث أو الرابع.

إن أطفال الآباء الفقراء لهم ميزة هائلة عن أطفال الأغنياء فى مجال تكوين الشخصية، وهذا فقط إذا تمكّن آباؤهم من مقاومة المبدأ الضارّ القائل بأن العالم مُلزم بتدبير أمر معيشتهم وضمانها.

فلو كان لى أن أبدى اقتراحًا واحدًا بالنسبة لنظام التعليم، لكان هو إرغام كل الأبناء والبنات بين سنى الثامنة عشرة والحادية والعشرين، الغنى منهم والفقير، ولا سيما طلبة الجامعات، على قضاء سنة كاملة فى معسكرات رياضية خَلَوِيّة تسودها روح التقشف.

إن حياة الأسرة هي حياة الشعب، والحياة الوفيرة بالنسبة للفرد كما هي بالنسبة للشعب المكوّن من أفراد، لا يمكن بلوغها إلا عن طريق كفاءة الفرد الشخصية والمثل العليا التي يعتنقها. ولن يتسنى لنا بلوغ تلك الكفاية أو تلك المثل إذا اعتمد الابن على أبيه أو الأب على ثروته الموروثة، أو طبقة من الشعب على ثروة طبقة أخرى، أو إذا اعتمد الناس عمومًا على حكومة تقوم مقام الوالدين أو تؤدي دورهما. فإذا كان الأب لا يستطيع توفير السعادة أو شراءها لولده لو أنفق عليه كل ما يملك، فكيف يستطيع آباؤنا الحكوميون توفير السعادة للشعب، مع العلم بأن عطايهم ومنحهم ليست ملكًا لهم ؟

ولقد أوصانا الدين بالابتعاد عن الطمع، ولو أنه يُخَيَّلَ إلى أن كلمة الطمع قد أمحت فعلاً من قاموسنا اليومي الحديث، و حلّت محلها كلمات وعبارات أخرى مثل: إعادة توزيع الثروة، وفرض الضرائب على الأغنياء لإعطاء الفقراء، والضرائب التصاعدية، إلى غير ذلك.

إن فرض مثل هذه الضرائب يُزجُّ في دائرة الجشع، وإن كان في نظر المثاليين العاطفيين - الذين يخشون مواجهة حقائق الطبيعة البشرية والظروف القاسية التي تنشأ عنها الأخلاق والثروات - أقول تبدو في شكل أسير جذاب وإن كان ضررُها في الحقيقة بليغاً.

فالجشع في الحقيقة قضاءٌ على الأخلاق وعلى ملكة الخلق والإبداع والإنشاء، فالصبي الذي يطعم في نقود أصدقائه أو يستنزف المال من أسرته إنما يضيعُ سُدَى تلك الطاقة وذلك الوقت الذي كان يمكنه أن يتعلم فيه كيف يخلق ثروته الخاصة به ويُنمّيها في أية سنٍّ كانت. فالطمع يدمرُ فينا

القدرة على الاستمتاع بالثروة التى نَجْنِها من الغير، وذلك لانه يُعْطَل فينا عادات الإبداع والإنشاء والخلق ويُعْرِقْها. فليست السعادة نابعة من مجرد امتلاك الثروة، بل فى خَلْقها وتكوينها، سواء أ كانت هذه الثروة صديقاً أم تجارة، أم بيع الفاكهة أم المناداة على الصُحف أم رسم اللوحات أم الغناء، إلى غير ذلك. وحتى الصَّدَاقَة قال فيها إمرسون: «إن ثمن الصداقة الحقَّة هو قُدرتك على الاستغناء عنها».

كما قال معلّم آخر لا شكَّ فى أنه أعظم منه شأنًا:

«وقال له واحدٌ من الجَمْع: يا معلّم، قل لآخى أن يقاسِمَنِ الميراث»، فقال له: «يا إنسان، مَنْ أقامنى عليكما قاضياً أو مُقسِّماً؟»، وقال لهم: «انظروا وتحفّظوا من الطَّعم، فإنه متى كان لأحد كثير فليست حياته من أمواله... الحياة أفضل من الطَّعام، والجسد أفضل من اللباس. تأملوا الغربان: إنها لا تزرع ولا تحصد، وليس لها مَخْدَع ولا مَخْزَن، والله يُقَيِّتُها. كم أنتم بالحرىّ أفضل من الطيور ومن منكم إذا اهتم بقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة؟ فإن كنتم لا تَقْدرون ولا على الأصغر، فلماذا تهتمون بالبواقي؟»

« فإن هذه كلها تطلبها الأمم لأن أباكم السّماوى يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه كلها. لكن اطلُّبوا أولاً ملكوت الله وبرّه، وهذه كلها تُزاد لكم. فلا تهتمّوا للغد، لأن الغد يهتمُّ بما لنفسه. يكفى اليوم شرّه. » (لوقا ١٢ :

١٣-٢٧، متى ٦ : ٣٢-٣٤)

عن المؤلف

- حصل على درجة الدكتوراه من جامعة ييل بأمريكا عام ١٩١٦ .
- عرضت عليه الجامعة منصباً من مناصب التدريس، لكنه أثر التفرغ لأبحاثه ودراساته لحالات الألف من الناس.
- أنفق خمسة عشر عاماً في هذه الدراسات ختمها بإصدار هذا الكتاب.
- دُمّت له معظم الشركات الصناعية التسهيلات اللازمة لإجراء هذه الأبحاث والدراسات.
- أدار مركز الخدمات النفسية الذى يقوم باختبار استعدادات الأشخاص، كما هو مبتكر العديد من الاختبارات النفسية مثل اختبارات الذكاء واختبارات الشخصية، أى مدى ما اكتسبه الشخص من العادات والمهارة فى خدمة الغير وإسعادهم.
- يُعزى إليه نجاح النظرة التقدمية المتطوّرة... نحو الدين، لأنه جمع بين دراسة نفسية الفرد ونفسية الجماعة.
- نال هذا الكتاب رواجاً واسعاً فى أوروبا وأمريكا.

الفهرس

٥	مقدمة المترجم
	الفصل الأول
١٣	عودتى إلى الإيمان
	الفصل الثانى
٣٣	لماذا أتردد على بيت الله
	الفصل الثالث
٥٣	سبيل السعادة
	الفصل الرابع
٧٣	البلهاء عيىءو السبىة
	الفصل الخامس
٩٧	الخير فى الاندماج مع الناس
	الفصل السادس
١١١	إنما نحن من يصنع الأطفال

الفصل السابع

الحب والزواج ١٣٥

الفصل الثامن

التخطيط الاجتماعى ١٤٩

الفصل التاسع

آفة التعليم ١٦١

الفصل العاشر

الحياة الوفيرة ١٨٣

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص.ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

www.egyptianbook.org.eg

E - mail : info@egyptian.org.eg